أبُو حَاتِمٍ الرَّازي

أعْلامُ النُّبوَّة

الرَّدُّ على «المُلحِد» أبي بكرٍ الرَّازي



DAR
AL SAQI

دار الساقي

المؤسسة العربيّة للتحديث الفكري

أبو حاتم الرازي

أعلام النبوة

الرد على "الملحد" أبي بكر الرازي

DAR
AL SAQI
دار الساقي

المؤسسة العربية للتحديث الفكري

الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ISBN 1 85516 761 1

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ – ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

المؤسسة العربية للتحديث الفكري
جنيف

LA FONDATION ARABE POUR LA PENSÉE MODERNE
GENÈVE

المحتويات

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

تصدير

لم يُظلم أحد قط في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية كما ظلم الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (نحو ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م ـ ٣١٥هـ/ ٩٢٥م). فشهرته كطبيب طغت على شهرته كفيلسوف. فعلى حين أنه لُقب بـ«طبيب المسلمين» و«جالينوس العرب» ، فقد أنكر عليه المنكرون، في حياته كما في مماته، صفة الفيلسوف. وهذا ما حدا به إلى أن يكتب **كتاب السيرة الفلسفية** ليحامي به عن استحقاقه، علماً وعملاً، اسمَ الفيلسوف. ولكن الحملة التي واجهها في حياته لمحو اسمه من سجل الفلسفة تصاعدت شدة وضراوة بعد وفاته. فزملاؤه التالون من الفلاسفة أصدروا عليه حكم إعدام فلسفي، مع إقرارهم له بتجليته كطبيب. وهكذا دمغه ابن سينا، في معرض أجوبته عن أسئلة البيروني، بأنه ذلك «المتكلِّف الفضولي» الذي «بلغ الغاية في المعالجات الطبية» ولكنه عندما «تجاوز قَدْره في بطّ الجراح والنظر في الأبوال والبرازات» وتصدى لشرح الإلهيات، «تكلم بالعوراء والخبائث»، و«فضح نفسه وأبدى جهله فيما حاوله ورامه». وكان ذلك أيضاً موقف ابن ميمون القرطبي الذي خصه في كتابه **دلالة الحائرين** بفقرة جاء فيها: «للرازي كتاب مشهور وسمه بالإلهيات ضمّنه من هذياناته وجهالاته عظائم». ثم عاد يؤكد في رسالته إلى ابن طبون، مترجم كتاب **دلالة الحائرين** إلى العبرية، أن «كتاب العلم الإلهي الذي ألّفه الرازي عديم الفائدة لأن الرازي كان طبيباً فقط».

ولم يكن حظ الرازي مع كبار مصنّفي تواريخ الفلسفة في المأثور العربي الإسلامي بأحسن حالاً. فقد تناقلوا جميعهم، بدءاً بالقفطي وانتهاءً بابن أبي

أصيبعة، الحكم الصارم الذي كان أصدره عليه صاعد الأندلسي في كتاب **طبقات الأمم** الذي وضعه سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م، عندما أشاد به بوصفه «طبيباً للمسلمين غير مدافَع»، ولكن ليضيف حالاً: «إلاَّ أنه لم يوغل في العلم، ولا فهم غرضه الأقصى، فاضطرب لذلك رأيه، وتقلّد آراء سخيفة وانتحل مذاهب خبيثة».

ويبدو أن أحد أسباب الحملة الفلسفية عليه، كانت نزعته الأفلاطونية التي لم تتمتع بقدر مشروع من المصداقية في سياق الهيمنة الأرسطية شبه المطلقة على المشائية العربية الإسلامية. وهذا ما يمكن استشفافه أيضاً من موقف مؤلف **طبقات الأمم** الذي تأذى من شق الرازي عصا الطاعة على أرسطوطاليس ـ الذي انتهت إليه فلسفة اليونانيين وهو خاتم حكمائهم وسيّد علمائهم» ـ فقطع سياق نصه عن «الأمة الرابعة»، التي هي «أمة الفلسفة» بامتياز، ليحمل بعنف على الرازي، وتحديداً من حيث إنه «كان شديد الانحراف عن أرسطوطاليس، عائباً له في مفارقته معلمه أفلاطون»، بل منتهكاً للقدسيات إلى حد الزعم بأن **المعلم الأول** قد «أفسد الفلسفة وغيّر كثيراً من أصولها». ويضيف صاعد الأندلسي: «وما أظن الرازي أحنقه على أرسطوطاليس وحداه على نقضه إلاَّ ما أباه أرسطوطاليس ودان به الرازي مما ضمّنه كتابه في: **العلم الإلهي**، وكتابه في: **الطب الروحاني**، وغير ذلك من كتبه الدالة على استحسانه لمذهب الثنوية في الإشراك ولآراء البراهمة في إبطال النبوة ولاعتقاد عوام الصابئة في التناسخ. ولو أن الرازي وفقه اللّه للرشد وحبَّب إليه نصرة الحق لوصف أرسطوطاليس بأنه محض آراء الفلاسفة وفحص مذاهب الحكماء، فنفى خبثها وأسقط غثها، وانتقى لبابها واصطفى خيارها، فاعتقد منها ما توجبه العقول السليمة وتراه البصائر النافذة وتدين به النفوس الطيبة، فأصبح إمام الحكماء وجامع فضائل العلماء، وليس على اللّه بمُستنكَر أن يجمع العلماء في واحد».

وكما هو واضح من الشاهد الأخير، فإن جرم الانحراف عن أرسطو قد اقترن، في حالة الرازي، بجرم أشد نكراً بعد: إبطال النبوة. فالنبوة هي النواة الصلبة للإبستميه المركزية للثقافة العربية الإسلامية برمتها. والرازي، بإنكاره

النبوة، قد وضع نفسه ـ هذا أقل ما يمكن أن يُقال ـ خارج النسق المعرفي والاعتقادي لهذه الثقافة. ومن ثم لا غرو أن يكون قد عومل معاملة «المنبوذ» الذي يتأثم منتقدوه حتى من إيراد آرائه، ولو في معرض دحضها وترذيلها. أفلم يمتنع المطهر بن طاهر المقدسي في كتابه الموسوم بـ **البدء والتاريخ** ـ الذي وضعه في منتصف القرن الرابع للهجرة ـ في معرض تعليقه على كتاب الرازي **مخاريق الأنبياء**، عن ذكر ما فيه: «فإنه المُفسِد للقلب، المُذْهِب للدِّين، الهادم للمروة، المورِّث البغضَ للأنبياء، صلوات اللّه عليهم»؟

والواقع، أن الذين تصدوا للردّ على الرازي كثيرون، ومنهم أبو القاسم البلخي، (ت. ٣١٩هـ) رئيس معتزلة بغداد في حينه، وأبو نصر الفارابي (ت. ٣٣٩هـ)، وابن الهيثم البصري (ت. ٤٣٠هـ)، وابن حزم الأندلسي (ت. ٤٥٦هـ)، وابن رضوان المصري (ت. ٤٦٠هـ). ولكن عدا أن ردود هؤلاء جميعاً لم تصلنا، فقد حصروا نقضهم للرازي بكتابه الموسوم بـ**العلم الإلهي** الذي لم يصلنا هو الآخر.

وحده أبو حاتم الرازي تصدَّى لمناظرة سميِّه أبي بكر الرازي في موضوع النبوة. ومن هنا الأهمية الفائقة لكتابه الذي وصلنا تحت اسم **أعلام النبوة**. فأبو حاتم ما كان له أن يرد على أبي بكر في كتاب كامل ما لم يورد آراءه ومقتطفات مفصَّلة من كتابه. وعلى هذا النحو، فقد صان من الضياع شذرات ثمينة من **مخاريق الأنبياء**، فضلاً عن أنه ضمَّن رده أقوالاً وآراء لخصمه كان صرَّح بها في المناظرات الشفهية التي دارت بينهما في مجلس أحد أمراء الري.

ومع أن الصفحة الأولى من النسخ المخطوطة قد سقطت وغاب بالتالي اسم الشخص الذي يتصدى مؤلف **أعلام النبوة** للردّ عليه، فلا داعي للشك ـ لأسباب لا يتسع المجال هنا للخوض فيها ـ في أن من يسميه أبو حاتم في سائر فصول كتابه «الملحدَ» هو محمد بن زكريا الرازي.

ومع أن مصنف **أعلام النبوة** يعقد فقرة مطولة ليشرح الأسباب التي دعته إلى

تلقيب خصمه بـ«الملحد»، فلنا أن نلاحظ، من خلال استقراء كلام الرازي نفسه، أنه لم يكن «ملحداً» بالمعنى الذي صار لهذه الكلمة اليوم. فلئن أنكر النبوة، فإنه لم ينكر الألوهة، بل جعل من اللّٰه ـ كما هو واضح من مطلع الفصل الثاني ـ أولَ القدماء الخمسة. ولكنه في الوقت الذي يسلم فيه بوجوده وقِدَمه، فإنه يقيم مسافة فاصلة بينه وبين الأنبياء الذين تكلموا باسمه. فهو، مثله مثل فولتير في القرن الثامن عشر الميلادي، يؤمن باللّٰه ويجحد الدين والشرائع. فإلهه هو، كما سيقال لاحقاً في عصر التنوير الأوروبي، إله الفلاسفة، لا إله أصحاب الشرائع وتابعيهم من اللاهوتيين والفقهاء والقوّامين على السلطة الدينية في كل ملّة. ومن هنا كان عنوان كتابه: **مخاريق الأنبياء**، ومن هنا انفراده المنقطع النظير في إطار الثقافة العربية الإسلامية بدور «محطِّم الأيقونات». وهذا ما استتبع إفراده في هذه الثقافة عينها ـ على حدِّ تعبير الشاعر الجاهلي ـ «إفراد البعير المعبّد»، فضلاً عن إبادة تراثه (إلاّ ما كان منه طبّياً).

ومن منظور هذا «المحجر الصحي» الذي عُزل فيه الرازي الفيلسوف، فإن كتاب خصيمه وسميِّه الرازي المتكلم يتمتع بأهمية استثنائية. فعدا ما تضمَّنه من شذرات لفيلسوفنا «الرجيم»، فقد جاء بحد ذاته نموذجاً مكتملاً عن أدب المناظرات الذي ازدهر في القرن الرابع الهجري، القرن الذهبي للثقافة العربية الإسلامية قبل أن تشرع بمسيرتها الانحدارية نحو الانغلاق الدوغمائي في القرون التوالي. وليس يقلل من أهمية هذه المناظرة بين الرازيين كونها مرويةً بتمامها من وجهة نظرة الرازي الثاني. فالماثل في قفص الاتهام يتمتع هنا بقوَّة حضور غريبة في نوعها بحكم الطابع الرجيم للتهم الموجَّهة إليه. ومع أن الغلبة اللفظية هنا هي للرادّ على المردود عليه، إلاَّ أن الغلبة الفكرية أدنى إلى أن تكون معكوسة الاتجاه. فالمناظرة بين الرازيين تقدم لنا، من داخل الثقافة العربية الإسلامية، مثالاً عينياً على ما يمكن أن يكونه الصراع بين الميتوس واللوغوس: الأول من حيث إنه أكثر ارتباطاً بقوة الألفاظ، والثاني من حيث إنه أكثر ارتباطاً بقوة الأفكار. وبديهي أننا نظلم الرازي الثاني كثيراً فيما لو توهمنا أنه لا ينازل خصمه الرازي

الأول إلاّ بقوة الألفاظ وحدها. فهو يتقن فن السِّجال ويعرف، في غالب من الأحيان، كيف يقارع الحجة بالحجة. ولكن قد يتفق له أيضاً، ولا سيما في الفصول الأخيرة من كتابه، أن يواجه «منطق العقل» كما يداوره خصمه بـ «منطق المعجزة». والحق، أن مثل هذه المواجهة بين المنطقين تكاد تكون ثابتاً دائماً من ثوابت الصراع بين الميتوس واللوغوس في الإطار الخاص بالثقافة العربية الإسلامية. وهذا ما يتبدى واضحاً في العنوان الذي اختاره ثاني الرازيين لرده: **أعلام النبوة**. فالأعلام تعني ها هنا الدلائل والآيات.

وهنا، لا بدَّ من كلمة عن المصنِّف. فالمصادر القديمة والحديثة، على حدّ سواء، تُجمع على أن مؤلِّف **أعلام النبوة** هو أبو حاتم أحمد بن حمدان الورسناني المتوفى سنة ٣٢٢هـ. كما تُجمع هذه المصادر على أن أبا حاتم هذا كان من كبار دعاة الإسماعيلية في الري وأصفهان وطبرستان والديلم. ولكن سقوط الصفحة الأولى من النسخ المخطوطة، التي يُفترض بها أن تتضمّن اسم الكتاب واسم مؤلِّفه واسم من يرد عليه، يُبقي باب الشك مفتوحاً. فقد يكون مؤلِّف **أعلام النبوة** هو فعلاً أبا حاتم الرازي. ولكن هل أبو حاتم هذا هو أبو حاتم الداعي الإسماعيلي نفسه؟ ومما يبيح هذا الشك أن ابن النديم، إذ يُدرج أبا حاتم الرازي في عداد «المصنِّفين لكتب الإسماعيلية»، لا يسمّي من كتبه كتابَ **أعلام النبوة**. كما أن عبد القادر البغدادي، إذ يتكلم في **الفَرق بين الفِرق** عن داعية إسماعيلي نشط في أرض الديلم، فإنه يسميه أبا حاتم الباطني، وليس أبا حاتم الرازي. وهذه الشكوك لا تدع من باب مفتوح آخر للحسم سوى باب «القراءة الداخلية». والحال، أن أقصى ما يمكن استنتاجه من قراءة داخلية لنص **أعلام النبوة**، أن مؤلفه ينتمي إلى فرقة من فِرَق الشيعة، من دون أن تتوفر أي قرينة من داخل النص على أنه كان إسماعيلياً.

يبقى أن نقول إن هذا النص، الذي نعيد نشره هنا، كان صدر في طبعة أولى نادرة، ومسحوبة اليوم من التداول، عن «الجمعية الفلسفية الإيرانية الملكية». وقد صدرت تلك الطبعة الأولى في طهران في: **مجموعة آثار الفكر الإسماعيلي** سنة

١٣٩٧هـ، بتحقيق الأستاذين صلاح الصاوي وغلام رضا أعواني، وذلك نقلاً عن ثلاث نسخ حديثة الاستنساخ، اثنتان منها موجودتان في المكتبة المركزية بـ «جامعة طهران»، ومحرَّرتان في عامي ١٣٢٥هـ و١٣٧٩هـ، وثالثتهما وأقدمهما هي نسخة الجامع الكبير بصنعاء المحرَّرة سنة ١١٤٤هـ. هذا، ويتحدث كل من و. إيفانوف وب. كراوس وف. سزكين عن وجود نسخ أخرى للكتاب في مكتبة البهرة الإسماعيليين في بومباي، ولكن يبدو أنها هي الأخرى حديثة النسخ ومحذوفة منها مقدمتها.

جورج طرابيشي

الباب الأوّل

الفصل الأول

فيما جرى بيني وبين الملحد

(١) أنه ناظرني في أمر النبوة وأورد كلاماً نحو ما رسمه في كتابه الذي قد ذكرناه فقال:

من أين أوجبتم أن اللّه اختصَّ قوماً بالنبوة دون قوم وفضّلهم على الناس وجعلهم أدلة لهم وأحوج الناس إليهم، ومن أين أجزتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك ويشلي بعضهم على بعض ويؤكّد بينهم العداوات ويُكثر المحاربات ويُهلك بذلك الناس؟

قلت: فكيف يجوز عندك في حكمته أن يفعل؟!

قال:

الأَولى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يُلهم عباده أجمعين معرفةَ منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم؛ فلا يفضّل بعضهم على بعض ولا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا، وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة لبعض؛ فتصدّق كلّ فرقة إمامها وتكذِّب غيره، ويضرب بعضهم وجوه بعض بالسَّيف، ويعمُّ البلاء ويهلكون بالتَّعادي والمجاذبات؛ وقد هلك بذلك كثير من الناس كما نرى.

قلت: ألستَ تزعم أن الباري جلَّ جلالُه حكيم رحيم؟

قال: نعم!

قلت:

فهل ترى الحكيم فعل بخلقه هذا الَّذي تزعم أنه أَولى بحكمته ورحمته، وهل أحتاط لهم، فألهَمَ الجميعَ ذلك، وجعل هذه الهبة عامَّة، ليستغني الناس بعضهم عن بعض، وترتفع عنهم الحاجة، إذ كان ذلك أَولى بحكمته ورحمته؟

قال: نعم!

قلت:

أوجدْني حقيقة ما تدِّعي. فإنّا لا نرى في العالم إلاً إماماً ومأموماً وعالماً ومتعلِّماً في جميع الملل والأديان والمقالات من أهل الشرائع وأصحاب الفلسفة التي هي أصل مقالتك؛ ولا نرى النَّاس يستغني بعضهم عن بعض، بل كلهم محتاجون بعضهم إلى بعض، غير مستغنين بإلهامهم عن الأئمّة والعلماء، ولم يلهموا ما ادّعيت من منافعهم ومضارهم في أمر العاجل والآجل، بل أحوجوا إلى علماء يتعلمون منهم وأئمّة يقتدون بهم وراضة يروضونهم؛ وهذا عيان لا يقدر على دفعه إلاً مباهت ظاهر البهت والعناد. وأنت مع ذلك تدّعي أنك قد خُصصت بهذه العلوم التي تدّعيها من الفلسفة، وأن غيرك قد حُرم ذلك وأحوج إليك، وأوجبت عليهم التعلُّم منك والاقتداء بك.

(٢) قال:

لم أُخَصَّ بها أنا دون غيري، ولكنِّي طلبتها وتوانوا فيها، وإنَّما حُرموا ذلك لإضرابهم عن النظر لا لنقص فيهم. والدليل على ذلك أنَّ أحدهم يفهم من أمر معاشه وتجارته وتصرّفه في هذه الأمور ويهتدي بحيله إلى أشياء تدق عن فهم كثير منّا، وذلك لأنه صرف همّته إلى ذلك؛ ولو صرف همّته إلى ما صرفتُ همّتي أنا إليه وطلب ما طلبتُ لأدرك ما أدركتُ.

قلت: فهل يستوي النّاس في العقل والهمّة والفطنة، أم لا؟

قال: لو اجتهدوا واشتغلوا بما يعنيهم لاستووا في الهمم والعقول.

قلت:

كيف تجيز هذا وتدفع العيان؟! وإنّا نرى ونعاين أنّ النَّاس على طبقات وتفاوت مراتب، ولستَ تقدر على دفع ما اتّفق النّاس عليه، أن يقولوا: فلان أعقل من فلان، وفلان عاقل وفلان أحمق، وفلان أكيس من فلان، وفلان كيِّس وفلان بليد، وفلان لطيف الطَّبع وفلان غليظ الطَّبع، وفلان فَطِن وفلان غبيّ؛ ومن دفع هذا فقد كابر وعاند. وإذا ثبت هذا فقد وقعت الخصوصيّة. وقد علمنا أنّ الأحمق البليد الطَّبع الغبيّ لا يدرك بفطنته ونظره ما يدركه العاقل الكيِّس الفَطِن اللّطيف الطّبع من العلوم الدَّقيقة والجليلة في باب المعاش والصّناعات التي ذكرتَ أنّ النّاس اشتغلوا بها عن النّظر في العلوم الدقيقة وأنهم بلغوا في تلك الصّناعات ما يدقّ عن أفهامنا. والنَّاس في ذلك أيضاً يتفاوتون في المراتب والطّبقات ويتفاضلون في كلِّ صناعة. وفي كلّ طبقة من النّاس فاضل ومفضول، وعالم ومتعلِّم، ولا نرى أحداً يدرك شيئاً من الأمور بفطنته وكيسه وعقله إلاّ بمعلِّم يُرشده، وبقانون يرجع إليه ثمّ يحتذي على مثاله ويبني عليه أمره؛ وهذا ما لا مرية فيه، ولا يقدر أحد على دفعه.

وإذا ثبت هذا فقد جاز أن يقع التّفاضُل في النّاس، والتّفاوُت في مراتبهم؛ كما قد أجزت لنفسك ما تدّعيه أنّك أدركت من علوم الفلسفة، بالعقل الكامل والهمّة البعيدة والطّبع التَّام، ما لا يقدر على بلوغه من هو ناقص العقل متخلِّف في الهمّة، ولا يتعلّمه وإن عُلِّم، ولا يتوجّه له وإن هُدي إليه، لبلادته ونقصان طباعه؛ وهذا موجود في جبلّة النّاس. فإنّ البليد الجافي لا يبلغ معرفة ما يبلغه الفَطِن ولا يطيقه، وإن تكلّفه واجتهد فيه. فإذا وجب هذا وثبت أن تختلف أحوال النّاس في العقل والكيس

والفطنة، فقد وجب أن يحوج بعضهم إلى بعض، وأن يتعلّم بعضهم من بعض، فيكون فيهم عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، في جميع الأسباب في الدِّين وفي الأمور الدّنياويّة، كما نشاهده عياناً. وقد انتقض قولك إنّه: لا يجوز في حكمة الحكيم ورحمة الرَّحيم أن يجعل النّاس بعضهم أئمَّة لبعض، وأنّه يجب أن يُلهم عباده أجمعين معرفةَ منافعهم ومضارّهم في عاجلهم وآجلهم، وأن لا يحوج بعضهم إلى بعض؛ وزعمتَ أنّ ذلك أحوط لهم، وأَولى بحكمته. فإنّ هذا غير موجود في جبلّة النّاس.

ونرى الحكيم الرَّحيم قد فعل بعباده خلافَ ما تدّعيه أنّه أحوط لهم وأَولى بحكمته، إلاَّ ما نجد في طبائعهم من تساويهم في أشياء طُبعوا عليها، كما طُبع عليها سائر أصناف الحيوان من البهائم والسِّباع والطَّير ودوابّ الماء وجميع الأجناس، من طلب الغذاء والتناسُل، وأُلهمت معرفة ما لها من المنافع والمضارِّ في ذلك؛ فكلُّ جنس من الحيوان لا تفاضل فيه ولا درجات بينه، بل استوت في ذلك، وهي مطبوعة عليه، فلا درجات بينها ولا مراتب، لأنَّها ليست بمأمورة ولا منهيّة ولا مستعبَدة ولا مكلَّفة ولا مُثابة ولا مُعاقَبة؛ ومن أجل ذلك لا درجات بينها.

وخصّ البشر بأن يكون فيهم عالم ومتعلِّم، وإمام ومأموم، وفاضل ومفضول، ليقوم الأمر والنَّهي، وتظهر الطَّاعة والمعصية، ويثبت الاستعباد، ويقع الثَّواب والعقاب على حسب ما يكون من أعمالهم باختيار لا بإجبار؛ وهذا أوجب في حكمة الحكيم ورحمة الرَّحيم من أن يكون سبيلُ البشر سبيلَ البهائم وسائر الحيوان.

(٣) وليس يخلو الأمر من إحدى ثلاث خلال:

إمَّا أن تقول: إنَّ الحكيم ترك ما ادّعيتَ أنّه أَولى به في حكمته ورحمته وأنّه أعمُّ نفعاً لبريَّته وأحوط لهم، فلم يفعله بهم وهو يقدر عليه، فإنَّ الذي تدّعيه من هذا الباب هو معدوم في العالم، وإنّه فعل

بهم ما هو أعمّ ضرراً وأقرب إلى هلاكهم على زعمك؛ فيكون قد فعل ما لا توجبه الحكمة والرَّحمة؛ فإنّا نراه قد فعل بهم هكذا من إحواج بعضهم إلى بعض.

أو تقول: أرادَ ذلك وأوجبَه، فلم يقدر عليه؛ فتُلزمه العجز.

أو تقول: إنّ الأَولى بحكمته ورحمته ما قد فعله بهم، على نحو ما ادّعيناه؛ فترجع عن أصلك وتدع اعتقادك السَّقيم ودعواك البشعة التي قد نقضتَها على نفسك حين زعمتَ أنّك أدركت بفطنتك ودقة نظرك ما لم يدركه كثير من الفلاسفة القدماء؛ وهم كانوا لك أئمّة، وفي أصولهم نظرتَ، وكتبهم درست، وبها استدركتَ ما تدّعيه، فمرّة تزعم أنه لا يجب أن يكون الناس أئمّة بعضهم لبعض، وأنّه يجب أن يتساووا، فلا يحوج بعضهم إلى بعض؛ ثمّ تنتقض على نفسك كما قد أجزت أن تتفاوت مراتب الفلاسفة حتى يدرك بعضهم ما لا يدركه البعض، وأن يكون بعضهم أئمّة لبعض؛ كما اتّفقت عليه الفلاسفة أن أفلاطُن الحكيم كان إماماً لأرسطاطاليس وأن أرسطاطاليس كان تلميذاً له، وكما ادّعيتَ أنّهم قد نقصوا عن مرتبتك حين أدركت ما تدّعي أنّهم لم يدركوه من الصواب الذي زعمتَ أنّهم أخطأوا فيه، وأنّه واجب عليهم الرّجوع إلى قولك والاقتداء بك.

أوَليس قد أثبتَّ بهذه الدّعوى المراتبَ والدّرجاتِ وأثبتَّ أن يكون في الناس عالم ومتعلّم وإمام ومأموم، وأن بعضهم تعجز فطنته عن فطنة غيره وإن اجتهد؟! أوَليس قد انكسر عليك قولك الأوّل؟!

ولعمري إنْ هذا هو أشبه بالصواب وأثبت.

وإذا ثبت هذا، وجاز أن يكون في الناس عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، وأن تكون فيهم مراتبُ ودرجات، جاز أن يختصّ اللّهُ بحكمته ورحمته قوماً، ويصطفيهم من خَلْقه، ويجعلهم رُسُلاً إليهم، ويؤيّدهم

ويفضّلهم بالنّبوّة، ويعلّمهم بوحي منه ما ليس في وسع البشر أن يعلموه؛ ليعلّموا النّاس، ويُرشدوهم إلى ما فيه صلاح أمورهم ديناً ودنيا، ويسوسوا الخلائق بمثل ما يرى من هذه السّياسة العجيبة التي يرتاض عليها الخاصّ والعامّ، والعالم والجاهل، والكيّس والبليد، ويستقيم أمر العالم بهذه السّياسة التي نشاهدها بالشرائع التي شرّعوها، واستغنى بها البليد الغليظ الطّبع عن النّظر في دقائق علوم الفلسفة التي يتحيّرون فيها وتبهر عقولهم ويعجزون عن ضبطها وإن اجتهدوا.

(٤) فأيُّ الأمرين أَولى بحكمته ورحمته، وأوجب عليك أن تأخذ به: أن يختصّك بهذه الفضيلة التي ادَّعيتَها لنفسك ونقضتَ بها دعواك الأُولى، فتثبت دعوى من يقول بأنّ في العالم إماماً ومأموماً وعالماً ومتعلّماً؟ أو دعواك الأُولى أنّه لا يجوز في حكمته أن يكون في العالم إمام ومأموم وعالم ومتعلّم؟ فاختر أيَّهما شئت! فإن اخترت هذه الدعوى بَطُلَت دعواك وانكسرت عليك، وأنت نقضت على نفسك. وإن اخترتَ الأخرى، وأجزتَ في حكمة الحكيم أن يختصّك بهذه الفضيلة دون غيرك، وأن يحوج النّاسَ إليك وإلى التعلُّم منك، فلِمَ أنكرتَ أن يختار عزَّ وجلَّ رُسُلاً ويختصّهم بالنّبوّة ويجعلهم أئمّة للنّاس، ويحوج النّاسَ إليهم وإلى التعلّم منهم، ليكونوا ساسة للنّاس في أُولاهم وقادة لهم في أمر دينهم؛ كما تراه أنّه قد فعله؟ ولِمَ جاز أن يفيض عليك نعمتَه، فيجعلك إماماً للنّاس وأنت لا تقدر على سياسة رجلين، ولم يجز أن يفيضها على أنبيائه الذين اصطفاهم وجعلهم أئمّة للنَّاس، حتّى ساسوا العالم بأبنية شرائعهم وأحكامهم؟

فهذا ما جرى في هذه المسألة، وإن كان الكلام يزيد وينقص والألفاظ تختلف؛ كان جملته ومعانيه ما قد ذكرته. وقد كان ادّعى في غير هذا المجلس ما احتججتُ به، أنه أدركَ من العلوم ما لم يدركه من تقدَّمه من الفلاسفة، إلى غير ذلك مما قد ذكرتُه من دعاويه.

الفصل الثاني

في ذكر القدماء الخمسة والقول في التقليد والنَّظر

(١) وطالبته في مجلس آخر وقلت له:

أخبرني عن الأصل الذي تعتقده من القول بقِدَم الخمسة: الباري والنَّفس والهيولى والمكان والزمان؛ أهو شيء وافقك عليه القدماء من الفلاسفة، أم خالفوك فيه؟

قال:

بل للقدماء في هذا أقوال مختلفة، ولكنّي استدركتُ هذه بكثرة البحث والنظر في أصولهم، فاستخرجت ما هو الحقّ الذي لا مدفع له ولا محيص عنه.

قلت:

فكيف عجزَتْ فطنُ هؤلاء الحكماء واختلفتْ أقاويلهم، وكانوا بزعمك مجتهدين قد صرفوا هممهم إلى النَّظر إلى الفلسفة حتى أدركوا العلوم اللَّطيفة وصاروا فيها علماء وقدوة؟ وأنت تزعم أنك أدركتَ ما لم يدركوا بكثرة نظرك في رسومهم وكتبهم؛ وهم لك أئمّة، وأنت لهم تبع، لأنك درست رسومهم ونظرت في أصولهم وتعلمت من كتبهم؟ فكيف يجوز أن يكون التابع أعلى من المتبوع، والمأموم أتمَّ في الحكمة من الإمام؟!

قال:

أنا أُورد عليك في هذا ما تعلم أنَّ الأمر كما ذكرتُه، وتعرف الصواب من الخطأ في هذا الباب: اعلمْ أنَّ كلَّ متأخِّر من الفلاسفة إذا صرف همّته إلى النَّظر في الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدّقته وصعوبته، عَلِمَ عِلْمَ من تقدّمه منهم وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أُخَر؛ لأنه مَهَرَ بعلم من تقدَّمه وفَطِن لفوائدَ أُخَر واستفضلها؛ إذ كان البحث والنّظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل.

قلت:

فإن كان الذي استدركه المتأخِّر خلافاً على من تقدّمه كما خالفتَ أنت من تقدّمك، فإنَّ الخلاف ليس بفائدة؛ بل الخلاف شرٌّ زيادة في العمى وتقوية للباطل ونقض وفساد. ونحن نجدكم لم تزدادوا بكثرة البحث والنظر بآرائكم إلاَّ اختلافاً وتناقضاً. فإذا شرطتَ على نفسك أنَّ المتأخِّر يدرك ما لم يدركه المتقدِّم كما زعمتَ أنك أدركته وأوردتَ الخلاف على من تقدَّمك، لا تأمن أنْ يجيء بعدك مَنْ يجتهد فوق ما اجتهدتَ، فيعلم ما قد علمتَ ويستفضل، ويدرك بفطنته واجتهاده ونظره ما لم تدركه أنت؛ فينقض ما حكمتَ به ويخالفك في أصلك، كما نقضت على من تقدمك وخالفته في أصله، حين ادَّعيْتَ قِدَم الخمسة وزعمت أنَّ من تقدّمك قد أخطأ حين خالفك، وكما قد خالف بعضكم بعضاً. وعلى هذه الشَّريطة فإنَّ الفسادَ قائم في العالم والحقَّ معدوم أبداً والباطل منتظمٌ، والذين خالفوك قد مضوا على الباطل والضَّلال، لأنَّ الخلاف باطل والخطأ ضلال. ويَلزمك أيضاً على هذه الشَّريطة أنْ تمضي على الباطل والضَّلال، إذْ كان الذي يجيء بعدك يأتي بفائدة ويصيب ما لم تُصِبْه، على قياس قولك.

(٢) قال:

ليس هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأنَّ كلَّ واحد منهما مجتهد. فإذا اجتهد وشغل نفسه بالنظر والبحث فقد أخذ في طريق الحقّ؛ لأنَّ الأنفس لا تصفو من كدورة هذا العالَم، ولا تتخلص إلى ذلك العالَم إلاَّ بالنظر إلى الفلسفة. فإذا نظر فيها ناظر وأدرك منها شيئاً، ولو أقلَّ قليل، صَفَتْ نفسك من هذه الكدورة وتخلصت. ولو أنَّ العامَّة الذين قد أهلكوا أنفسهم وغفلوا عن البحث نظروا فيها أدنى نظر، لكان في ذلك خلاصهم من هذه الكدورة، وإنْ أدركوا القليل من ذلك.

قلت: ألستَ أوجبتَ أنَّ النّظر في الفلسفة هو الوصول إلى الحقِّ والخروج عن الباطل؟

قال: نعم!

قلت:

فقد زعمتَ أنَّ النَّاس هلكوا بالتَّعادي والاختلاف؛ فعلى زعمك، لا يزداد من ينظر في الفلسفة إلاَّ هلاكاً؛ لأنك قد أقررت أنَّ للفلاسفة أقاويلَ مختلفة، وأنَّ الذي تعتقده خلاف ما كان عليه من تقدَّمك، وألزمتَ نفسك هذه الشريطة: أنَّ الذي يجيء بعدك يجوز أنْ يخالفَك ويخالفَ غيرك. فعلى هذه الشريطة، يقوى سبب الهلاك في كل يوم ويزداد الباطل والضلال.

قال:

أنا لا أعدُّ هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأنَّ من نظر واجتهد هو مُحِقّ، وإنْ لم يبلغ الغاية على ما قد وصفتُه لك، ولأنَّ الأنفس لا تصفو إلاَّ بالنظر والبحث؛ هذا هو جملة القول فقط.

قلت:

أمَّا إذا أصررتَ على هذه الدَّعوة ورددتَ الحقّ وعاندتَ، فأَخبِرْني ما تقول فيمن نظر في الفلسفة وهو معتقد لشرائع الأنبياء: هل تصفو نفسه وهل ترجو له الخلاصَ من كدورة هذا العالم؟

قال: كيف يكون ناظراً في الفلسفة وهو معتقد لهذه الخرافات، مقيم على الاختلافات، مُصِرٌّ على الجهل والتقليد؟!

قلت: أوَليس ادَّعيتَ أنَّ من نظر في الفلسفة، وإنْ لم يتبحَّر فيها، ونظر في أقلّ قليل منها، صَفَتْ نفسه؟!

قال: نعم!

قلت:

فإنَّ هذا الذي لم يتبحَّر ونظر في القليل، قد اقتدى بمن تقدَّمه وقلَّده، ولم يحصل إلاَّ على الاقتداء بالخلاف وعلى التَّقليد؛ فأيُّ خرافات أكثرُ من هذه، وأيُّ تقليد فوق هذا، وأيُّ جهل أعظمُ منه، وأيُّ تصفية لنفس هذا؟! وعلى ماذا حصل إلاَّ على رفض الشرائع، والكفر باللَّه وأنبيائه ورُسُله، والدخول في الإلحاد، والقول بالتَّعطيل؟! أوَليس هذا أَولى بأن يُسمَّى جاهلاً مقلِّداً معتقداً للخرافات والاختلاف من جميع الناس؟

قال: إذا انتهى الكلام إلى هذا فيجب أنْ يسكت!!

الفصل الثالث

قوله: إن الخمسة قديمة لا قديم غيرها

القول في الزمان والمكان

(١) وطالبته في مجلس آخر، وقلت له: أَخبرْني، أَلَسْتَ تزعمُ أنَّ الخمسة قديمة لا قديم غيرها؟

قالت: نعم!

قلت: فإنَّا نعرف الزَّمان بحركات الفَلَك وبمرّ الأيَّام والليالي، وعددِ السنين والأشهر، وانقضاء الأوقات؛ فهذه قديمة مع الزَّمان أم مُحْدَثَة؟

قال:

لا يجوز أنْ تكون هذه قديمةً، لأنَّ هذه كلَّها مقدَّرة على حركات الفَلَك، ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها؛ والفلك وما فيه مُحْدَث؛ وهذا قول أرسطاطاليس في الزَّمان. وقد يخالفه غيره؛ وقالوا فيه أقاويل مختلفة. وأنا أقول: إن الزمان زمان مطلق، وزمان محصور. فالمطلق هو المدَّة والدَّهر، وهو القديم، وهو متحرك غير لابث. والمحصور هو الذي بحركات الفلَك وجزي الشمس والكواكب. وإذا ميّزتَ هذا وتوهَّمتَ حركة الدهر، فقد توهَّمتَ الزَّمان المطلق؛ وهذا هو الأبد السَّرمد. وإنْ توهّمتَ حركة الفلك، فقد توهمتَ الزمان المحصور.

قلت:

فأَوْجِدْني للزَّمان المطلق حقيقةً نتوهمها. فإنَّا إذا رفعنا حركاتِ الفلك ومرَّ الأيام واللَّيالي وانقضاءَ الساعات عن الوهم، ارتفع الزمانُ عن الوهم، فلا نعرف له حقيقة، فأوجدْني حركةَ الدَّهر الذي ذكرتَ أنَّه الزمانُ المطلق.

قال: ألا ترى كيف ينقضي أَمْرُ هذا العالَم بمرِّ الزّمان: (طفّ، طفّ، طفّ)؟ هو شيء لا ينقضي ولا يفنى، وهكذا حركة الدَّهرِ إذا توهَّمت الزَّمان المطلق.

قلت:

إنَّما ينقضي أمر العالَم بمرّ الزّمان الذي هو بحركات الفَلَك، والعالم مُحْدَث والفَلَكُ محدَث، وأنت مُقِرّ بذلك؛ والزّمان من أسباب العالَم وهو محدث معه؛ ومرُّ الزّمان وانقضاؤه مع انقضاء أمر العالَم، كما أنّ حدوثه مع حدوثه؛ ولا نعرف للزمان حقيقةً إلاَّ ما ذكرنا من حركات الفَلَك والشَّمس وعدد السّنين والأشهر والأيّام والسَّاعات؛ فإذا رفعتَ هذه عن الوهم ارتفع الزَّمان، فلا زمان كما ذكرنا. فإمّا أنْ تجعل هذه أيضاً قديمةً مع الزَّمان حتى يكثر عدد الأشياء القديمة، ويكون الفَلَكُ وما يدبّره داخلاً في هذه الجملة؛ فيكون من ذلك الرجوعُ إلى القول بقِدَم العالَم، أوْ تقرّ بأنَّ الزمان مُحْدَث كما هذه محدثة، أو توجدني للزمان إنِّيَةً غير هذه، يكون واقعاً تحت الوهم، كما أنَّه الآن واقع تحت الوهم، بوقوع هذه تحت الوهم. وهذه الألفاظ التي أوردتَها، قولك: طفّ، طفّ، طفّ، هو أيضاً شيء يقع عليه العدد، ولا يقع تحت الوهم إلاَّ من جهة النطق والعدد؛ والنطق والعدد مُحدَثان. وإذا كان كذلكَ فَلَمْ تورد بعدُ شيئاً حين أوردت هذه الألفاظ التي يستحي العاقل من مثلها. فهاتِ ما تكون له حقيقة ويقع تحت الوهم!!

قال:

هذا لا ينقضي القول فيه، وقد عرَّفُتك أنَّ أرسطاطاليس كان يعتقد ما

تقوله أنتَ، وقد خولف فيه. وقول أفلاطُن لا يكاد يخالف ما نعتقده في الزمان؛ وهذا عندي أصوبُ الأقوال.

قلت:

فإذا رجعت إلى التقليد وإلى الاختلاف الذي أنكرتَه، واقتديتَ بأفلاطنَ في هذا الباب وقلَّدته، وتركت قول أرسطاطاليس وخالفته، فقد سلمناه لك. ويلزمك أيضاً في المكان مثل ما قد لزمك في الزمان.

قال: كيف؟

(٢) قلت: أخبرني عن المكان، أهوَ محيط بالأقطار، أم الأقطار محيطة به؟

قال: بل الأقطار محيطة بالمكان.

قلت: كيف لا تعدّ الأقطار مع الخمسة التي زعَمتَ أنّها قديمةٌ؟ لأنَّه إنّ كان المكان قديماً، فقد أوْجَبتَ أنَّ الأقطار قديمةٌ معه!

قال: الأقطار هي المكان، والمكان هو الأقطار، وهما شيء واحد لا فَرق بينهما.

قلت:

كيف لا يكون الفرق بينهما؟ وكيف يكونان شيئاً واحداً وقد أعطيتَني أنّ الأقطارَ تحيط بالمكان، والمكانَ لا يحيط بالأقطار؟! أوَليس قد فَرَّقتَ بهذا القول بين المكان والأقطار؟ ولَعمري إنَّ الصَّوابَ أنْ تفرِّقَ بينهما، ولكن قد اضطرَّك الأمرُ إلى أن تُباهِتَ وتقول: إنهما شيءٌ واحدٌ، حين انْتَقَضَ عليك قولُك بقِدَم المكان دُونَ الأقطار. فإمَّا أنْ تجعل الأقطار الستَّة قديمةً مع المكان حتى يصير عدد الأشياء القديمة أحد عشر، أو ترجع عن القول بِقِدَم المكان.

قال: قد اختلف قول الفلاسفة في الأقطار، فأنكر بعضهم أنْ تكون ستَّة، وقالوا في هذا أقوالاً كثيرة.

فلما رأيته قد فزع إلى هذا القول يريد أن يخرج إلى كلام آخر، قلت:

لا نُبالي اختلفوا في عددها أم اتَّفقوا، زادوا أم نقصوا، قالوا إنَّ أعدادها كثيرة أو قالوا هو قُطرٌ واحد، فإنَّ تلك الكثيرة أو هذا الواحد، هو مع المكان. فإنْ كان المكان قديماً، فإن القُطرَ قديم؛ وإن كان القطر مُحدَثاً، فإنَّ المكان مُحْدَث؛ ولا بدَّ للمكان من الأقطار؛ لأنه إنْ لم تكن أقطار، فلا مكان.

قال:

فإني أقول في المكان أيضاً: إنَّه مكانٌ مُطْلَقٌ ومكان مُضَافٌ. فالمكان المُطلق، مثاله مثالُ الوِعاءِ الذي يَجْمَعُ أجساماً، وإنْ رَفَعتَ الأجسامَ عن الوَهم، لم يرتفع الوعاء؛ كما لو أنّا رفعنا الفلك عن الوهم، لم يرتفع الشيء الذي هو فيه عن الوَهْم؛ بل هو باق في الوهم، كالدَّنِّ الذي يفرغ من الشراب، فارتفع الشَّراب عن الوهم ولم يرتفع الدَّنُّ بَتَّة. والمكان المُضاف إنّما هو مضافٌ إلى المتمكِّن. فإذا لم يكن المتمكِّن، لم يكن مكان. وهذا مثلُ العَرَضِ الذي إذا رفعتَه عن الوهم ارتفع الجسم؛ كما أنك إذا رفعتَ الخطَّ عن الوهم، ارتفع السطح عن الوهم.

قلت:

فإن السطح مِنَ الخطِّ وليس مثالُه مثالَ المكان من المُتَمكِّن؛ إنَّما المثال كقولك الأوَّل في الفلك. ولكنَّ الأمر خلافُ ما ذكرت أنَّك إذا رفعتَ الفَلك عن الوهم، لم يرتفع المكان عن الوهم؛ بل يرتفع المكان عن الوهم بارتفاع الفلك عن الوهم. والذي قلت في باب الدَّنِّ والشّراب، هو أيضاً مثل الخطِّ والسَّطح؛ لأنَّ كِلاهما جسمان، وليس مثل المكان والمتمكِّن.

قال: فأَوْجدْني للأقطار إنِّية يشار إليها!

قلت: أَجبْني! هل نحن في المكان؟

قال: نعم!

قلت: فأشِرْ إلى المكان الذي نحن فيه.

قال: هذا الذي نحن فيه، لا يدْفعه أحد.

قلت: قولك إنْ أشَرْتَ إلى الأرض، قلنا هذه أرض ولها أقطار؛ وإِنْ أَشَرْتَ إلى الهواء، قُلنا هذا هواء وله أقطار؛ وإنْ أشَرْتَ إلى السَّماء قُلْنا هذه سماء ولها أقطار.

قال: هذه كلُّها متمكِّنة في المكان، والمكان ليس له جُرم يشار إليه، إنَّما يعرف بالوهم.

قلت:

وكذلك الأقطار التي تحيط بالمكان، ليس لها جُرم يشار إليه، إنَّما تُدرَك بالوْهم؛ كما يُدرَك المكان بالوهم. فإنْ ارتفعت الأقطار عن الوهم ارتفع المكان. فإذاً لا مكان ولا أقطار، وسبيلهما في الواقع تحت الوهم سبيل واحد. وهذه المسألة مثل ما جرى في باب الزّمان.

قال:

أجل لَعمري، والذي أقوله أيضاً في باب المكان هو قول أفلاطُن؛ والذي تشبَّثتَ به أنتَ هو قولُ أرسطاطاليس. وأنا قد وضْعت في المكان والزَّمان كتاباً؛ فإنْ أردْتَ الشفاء في هذا الباب، فانظرْ في ذلك الكتاب.

قلت:

لستُ أدري ما في ذلك الكتاب، ولا ما قاله أفلاطن وأرسطاطاليس، فهاتِ على ما تدَّعيه بُرهاناً، ولا تُحِلْني على كتاب.

قال: هو ما قد قلتُ لك. ثم سكت.

الفصل الرابع

[في] أن العالم محدث

(١) قلتُ: قد انقضى هذا. ألستَ تزعم أنّه لا قديم إلاّ هذه الخمسة، وأنَّ العالم مُحْدَث؟

قال: نعم!

قلت: وأيُّ هذه الخمسة أحْدَثَ العَالَم؟

قال: نعم!

قلت: تكلَّم في هذا الباب؛ فإنَّه أنفع، فقد كثُرت المطالبة مِنَ الدَّهريّةِ لنا بالعلّة في حَدَثِ العالَم.

قال: للنَّاس فيه أقاويل غير مقنعة، وليست عليهم حجة أوْ كَد ممَّا استدركتُه، ولا تثبت لأحد حجة في ذلك دون الرُّجوع إلى ما أعتقده.

قلت: وما تلك الحجّة المقنعة؟

قال:

أنا أقول: إنَّ الخمسةَ قديمةٌ، وإنَّ العالَم مُحْدثٌ، والعلَّة في إحداثِ العالَم أنَّ النَّفْسَ اشتهتْ أن تتَجبَّلَ في هذا العالَم، وحرَّكتْها الشّهوةُ لذلك، ولم تعلَم ما يلحقها من الوبَال إذا تجبّلت فيه؛ واضطربت في إحداثِ العالَم، وحركت الهيولى حركات مضطربة مشوّشة على غير

نظام، وعجزت عما أرادت. فرحمها الباري جلَّ وتعالى، وأعانها على إحداثِ هذا العالَم، وحملها على النِّظام والاعتدال رحمةً منه لها، وعلماً أنّها إذا ذاقت وبال ما اكتسبت، عادت إلى عالمها وسكن اضطرابها وزالت شهوتها واستراحت. فأحدثت هذا العالَم بمعاونة الباري لها. لولا ذلك لما قدرَتْ على إحداثه، ولولا هذه العلَّة لما أُحْدِثَ العالَم. وليست لنا حجّة على الدَّهريّة أوْكَدُ من هذه. وإنْ لم يكن هكذا، فلا حجّة لنا عليهم بَتَّةً بَتَّةً؛ لأنَّا لا نجد لإحداثِ العالَم علَّةً ثبتت بحجّة ولا برهان.

قلت:

أمّا الحجج على الدَّهريَّة في إحداثِ العالَم فكثيرة، ولكنَّها خفيت عليك؛ لأنَّ هواك فيما تدَّعيه قد غلب. وإنْ لم يكن على الدَّهريّة حجّة في إحداثِ العالَم إلاَّ ما ذكرتَ، فقد ضعف من قال بحَدَثِ العالَم ـ ونعوذ باللَّه من ذلك ـ لأنَّ الذي تدّعيه ينكسر عليك من وجوه كثيرة.

قال: ومن أين ينكسر عليَّ؟

(٢) قلت: أخبرني! ألستَ تزعم أنَّ النَّفْسَ اشتهت أنْ تتجبّل في هذا العالَم، فاضطربت في إحداثِهِ على ما حكيتَ مِنَ القول، فأعانها الباري رحمة منه لها؟

قال: نعم!

قلت: فهل عَلِمَ الباري أنْ يلحقها في ذلك الوبال إنْ تجبّلت فيه؟

قال: نعم!

قلت: أليس لو لم يعاونها على إحداثِ هذا العالَم ومنعها من التَّجبُّل فيه، كان أَوْلى بالرّحمة لها من أنْ أعانها وأوقعها في هذا الوبال العظيم على زعمك؟

قال: لم يقدر على منعها من ذلك.

قلت: قد أَلْزمْتَ الباري العجز!

قال: لم أُلْزِمه العجز!

قلت: أَلَستَ تزعم أنّه لم يقدر على منعها؟ فقولك: «لم يقدر» أليس هو عجزاً؟

قال:

لم أعْنِ أنّه لم يقدر لأنَّه عجز عن منْعها؛ ولكنّي أضرب لك مثلاً تعرف منه صواب ما أوردْتُه؛ إنَّما المَثل في هذا كمثَل رجل له ولد صغير يحبّه ويرحمه ويشفق عليه ويمنع منه الآفات. فتطلَّع ولده هذا في بستان، فرأى ما فيه من الزَّهر والغضارة، وفي البستان شوك كثير وهوامّ تلسع، والصّبيّ لا يعرف ما فيه من الآفات، إنَّما يرى الزّهر والغضارة، فتحرِّكه الشُّهوة وتنازعه نفسه إلى الدُّخول إلى هذا البستان، ووالده يمنعه لعلمه بما في البستان من الآفات، وهو يبكي وينزع إلى ذلك جهلاً منه بما يلحقه من الوبال من جهة الشَّوك والهوامّ. فيرحمه والده، وهو يقدر على منعه من الدُّخول؛ ولكن يعلم أنَّه لا ينتهي حتّى يدخله فتشوكه شوكة أو تلسعه عقرب؛ فعند ذلك ينتهي، وتزول شهوته، وتستريح نفسه؛ فيخلِّيه حتَّى يدخله. فإذا دخله لسعته عقرب، فرجع ثمَّ لم تنازعه نفسه بعد ذلك إلى العَوْد إليه، واستراح. فهكذا مثال النَّفس مع الباري جلَّ وتعالى، وهذا معنى قولي: «لم يقدر على منعها»، ولم أُلزمه العجز.

قلت: وهذا أيضاً مُنكسر من جهات.

قال: كيف؟

قلت: أليس تقول إنَّ الباري جلَّ وعزَّ تامُّ القدرة؟

قال: نعم!

قلت: فكيف لم يعرِّف النَّفس ما ينالها من الوبال إذا تجبّلت في هذا العالم قبل أنْ تتجبَّل فيه، وهو قادر تامُّ القدرة؟ فإنَّ ذلك أتمُّ في الحكمة

وأبلغُ في الرحمة من أنْ ألقاها في هذا الوبال الطّويل هذا الدَّهرَ المديد. فإنْ زعمتَ أنَّه لم يقدر أنْ يُعرِّفها إلاّ بعد تجبّلها في هذا العالم، فقد عجَّزته؛ لأنَّ المخلوق أيضاً لا يقدر أنْ يعرِّف الصّبيَّ إلاّ بعد دخوله البستان؛ فإذاً قد استوى الخالق والمخلوق في القدرة؛ وهذا هو العجز التامُّ، جلَّ اللّه وتعالى عن ذلك. وإنْ زعمت أنَّه قدر ولم يفعل، فقد أدخلتَ النَّقص في رحمته وحكمته، عزَّ اللّه عن ذلك. وينكسر أيضاً من جهات أُخَر: ألستَ تزعم أنَّ النَّفْسَ كانت جاهلة بما يلحقها من الوبال إذا تجبَّلت في هذا العالَم، وضربت المثل بالصّبيِّ والبستان؟

قال: نعم!

قلت:

فقد وجدنا البستان مع وجود الصّبيِّ، والصّبيُّ ينظر إليه وتحرِّكه الشّهوة الغريزيَّة للدُّخول إليه، فهل كان العالَم موجوداً مع النَّفْسِ حتى تطلَّعتْ فيه وحرّكتها الشهوة للتَّجبُّل فيه؟ فإن زعمتَ أنْ العالَم كان موجوداً مع النَّفْسِ، فقد رجعت عن القول بِحدَثِ العالَم؛ لأنك زعمتَ أنَّه موجود مع النَّفس؛ والنَّفْسُ عندك أزلَّية قديمة. وإنْ زعمتَ أنَّ العالَم كان معدوماً، فَمِن أين عرَفت النَّفْسُ أنَّ عَالَماً يكون بهذه الصِّفة حتى اشتهت أنْ تتجبَّل فيه؛ والنَّفْسُ جاهلة بما نالها من الوبال في ذلك؛ فهي بأنْ تجهلَ عالَماً ليس بموجود أَوْلى. وإنْ زعمتَ أنّها علمتْ أن عالَماً يكون على هذا المثال قبل أنْ كان، فقد قضيتَ عى النَّفْس بِالعلم. فكيف يجوز أنْ تعْلَمَ أنَّ عالَماً يكون بهذه الصّفة، ولم تعْلَمْ ما يلحقها من الوبال لمَّا تجبَّلت فيه؟ وإنْ زعمتَ أنَّ العالَم ليس بقديم مع النَّفْس، وأنَّه أُحدِثَ العالَم، ثمَّ تطلَّعت النَّفسُ فيه، فقد نقضتَ قولَك: إنَّ علَّةَ إحداثِ العالَم أنَّ النَّفْس اضطربتْ وحرَّكتها الشَّهوة للتَّجبُّل في هذا العالَم، فأعانها الباري حتى أحدثته.

(٣) وفي وجه آخر:

أخبرْني عن هذه الحركة التي بعثَتْ شهوةَ النَّفْس على التَّجبّل في هذا العالَم: أَهِيَ غريزيَّة، أمْ قسريَّة؟ فإن ادَّعيتَ أنّها غريزيَّة، فقد لزِمك أنْ تقولَ: إنَّ هذه الحركة والشَّهوة قديمتان مع النَّفْس. وإذا كان كذلك، فيجب أنْ يكون سبعة أشياء قديمة؛ لأنَّ الحركة والشَّهوة قديمتان. ويلزمك أيضاً أنْ يكون العالَم قديماً معها؛ لأنَّه إذا كانت علَّةُ تجبُّلها في العالم الحركة والشهوة، وهما قديمتان، فالعالم إذاً قديم مع علَّته؛ لأنَّ الطَّبع لا يَفْتُرُ عن عمله، والمعلول مضاف إلى علته. وإن زعمتَ أنَّ الحركة التي بعثت الشَّهوةَ مُحْدَثَةٌ غيرُ طبيعية، فلا بدَّ أنْ تكون قسريَّة، ولا بدَّ مِنْ قاسر قسرها؛ ولا يجوز أنْ يكون شيء قسرها إلاَّ الباري جلَّ وتعالى؛ إلاَّ أنْ تجعل القاسر لها الهيولى أو المكان أو الزمان؟ وهذا خُلُفٌ غير ممكن.

قال: فإنّي أقول إنَّ هذه الحركة ليست طبيعيّة ولا هيَ قسريَّة.

قلت: فإنَّ الفلاسفة اتّفقوا على أنَّ الحركة حركتان: طبيعيّة وقسريَّة؛ ولا ثالثة لهما.

قال:

صدقتَ، هذا قول القدماء. ولكنِّي قد استدركتُ في هذا شيئاً لطيفاً، واستخرجتُ منه ما لم يسبقني إليه أحد غيري. وأنا أقول: إنَّ الحركاتِ ثلاث: طبيعيّة، وقسريَّة، وفَلْتِيَّة.

قلت: فهذه الثَّالثةُ لم نسمع بها ولا نعرفها، فعرِّفناها كيف تكون؟

قال: أنا أضربُ لك مثلاً يتصوّر لك وتعرفُ وجه الصَّواب فيه.

وجرت هذه المناظرة بيني وبينه في دار بعض الرؤساء، وكان ذلك الرَّئيس قاعداً مع قاضي البلد يتناظران في أمر بينهما، وهما بحيث نراهما؛ وحضر هذا المجلس معنا المعروف بأبي بكر خِتن التَّمار المتطبِّب. فقال الملحد في باب المثل الذي أراد أنْ يثبت به الحركة الفَلْتِيَّةَ التي أبدَعها:

(٤) هل ترى هذا القاضي قاعداً مع الأمير؟

قلت: نعم!

قال:

أرأيتَ لو أنه تناول طعاماً رِياحيّاً، فتحرّكت الرِّياحُ في جوفه واشتدَّتْ، وهو يُمسكها ويضبِط نفسه، وهو لا يُرسلها حَذَراً مِنْ أن يتأذّى الأمير بنَتْنِها، أو حذراً مِنْ أنْ يكون لها وقع، فيفتضح؛ ثمَّ تغلبه الرياح فتفلت منه؛ فليست هذه الحركة طبيعيّةً ولا قسريةً، بل هي فَلْتِيّةٌ.

قلت: ألستَ تزعم أنَّ علّة هذه الرِّياح التي انفلتتْ من القاضي هي الطَّعام الذي تناوله؟

قال: نعم!

قلت:

فيجب، إذاً، أنْ تكون لهذه الحركة الفَلْتِيَّة التي تزعم أنّها حرّكت شهوة النَّفس علّةٌ قد تقدَّمت الحركة حتى أحدثتها في النَّفس، كما أنَّ الطعام علَّةٌ لهذه الرِّياح. وإذا كانت هنالك علَّةٌ قد تقدَّمت، فلا بدَّ أنْ تكون قديمةً مع النَّفْس، أو أحدثها مُحْدِثٌ. فإنْ كانتْ قديمة معها، فهي طبيعيّة. ويجب أنْ تكون النَّفْس أبَداً متحرِّكةً بهذه الحركة، لأنَّ الطَّبع لا يَفْتُرُ عن عمله؛ ويجب أيضاً أنْ تَعدَّها مع هذه الخمسة التي تزعم أنّها قديمة. وإنْ كانت الحركة مُحْدَثةً، فهي قَسْريَّةٌ. فَمَنْ ذا الذي أحْدثها، وقَسَرَ النَّفْس عليها؟

فلما انتهى الكلام إلى ها هنا، ضحك خِتن التَّمار شامتاً به، وكان يحضر هذه المناظرات، فيُظهر الشَّماتة به إذا انكسر، لما كان بينهما من الخلاف في قِدَم العالَم وَحَدثَه. فلمّا ضحك متعجّباً لِمَا أوْرَده، خجل الملحد من ضحكه، وأقبل عليه وقال له:

وأيُّ مقدار للدَّهريِّ حتى يستهزئ ويضحك ويُسيءَ أدبه! دعْ عنك الضحك، وتكلّم على مذهبك من القول بالدَّهر وقِدَم العالم، لأعرِّفَكَ مقدارَك. قال له خِتن التَّمار: الآنَ، بعد أنْ افْتضحْتَ وانكسرتَ ولم يُقْنِعْكَ حتَّى ضَرَّطْتَ القاضيَ وفضَحته عند الأمير وأوردْتَ هذا السُّخْفَ وهذه الحجة الباردة، أقبَلْتَ تسفِّه عليَّ وتستريح إلى مخاصمتي! دَعْني ومذهبي، وأجِبِ الرَّجلَ؛ فليس هذا مما يعينك ويخلصك مِنْ هذه الفضائح والدَّعاوى الباطلة التي تُمَخْرِقُ بها على النَّاس.

وبقيا ساعة في نحو هذا التَّشاتُم وانقطع الكلام.

وإنَّما ذكرتُ هذه الحكاياتِ لتعرف ـ رحمك اللَّه ـ ما كان عليه الملحد من الاعتقاد الضّعيف والرَّأي السَّخيف؛ ثم يصنّف بعقله المدْخولِ ورأيه المأفون كلاماً في إبْطال النُّبوَّة، ويورد ذلك الهَذَرَ الذي في كتابه الذي صنّفه في هذا الباب. وأنا أذكر نُكَتاً أحتجُّ بها وأَدُلُّ على فساد قوله، وأقول في إثبات النُّبوَّة، وتقوية أمر الأنبياء والرُّسلِ عَليهم السَّلام، والدَّلائل الواضحة على نبوَّتهم، ما يمحق اللَّه به دعاوى الملحدين الكَفَرة الضَّالّين الفَجَرة؛ وإنْ كان اللَّه عزَّ وجلَّ قد أوْهنَ كيدهم، وأعزَّ دينه ونصر أولياءَه، وأهان أعداءَه وأعداء دينه؛ وأذكر من معجزات محمّد صلّى اللَّه عليه وآله، القائمةِ في العالَم، ما لا يقدر ملْحد على دفعه، ولا كافر على نقضه، بحول اللَّه وقوته ـ عزَّ جاره ـ وبحسن نظر أوليائه. وباللَّه نستعين، وعليه نتوكل؛ وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

وممّا ذكر الملْحد في كتابه المسألة التي ذكرنا في صدر كتابنا هذا أنّا ناظرناه عليها، وذكرنا في جوابها ما فيه مَقنَعٌ لمن أنصف إنْ شاء اللَّه.

الباب الثاني

الفصل الأول

ومما ذكر أيضاً في كتابه واحتجَّ به

(١) قال:

إنَّ أهل الشَّرائع أخذوا الدِّين عن رؤسائهم بالتَّقليد؛ ودفعوا النَّظر والبحث عن الأصول، وشدَّدوا فيه، ونهَوا عنه؛ ورووا عن رؤسائهم أخباراً توجب عليهم ترك النَّظر دِيانَةً، وتوجب الكفر على من خالف الأخبار التي رَوُوها. من ذلك، ما رَووه عن أسلافهَم: أنَّ الجدلَ في الدِّين والمِراء فيه كفر؛ ومن عَرَّضَ دِينَه للقياس لم يزل الدَّهْرَ في الْتباس؛ ولا تتفكّروا في اللَّه وتفكّروا في خلقه؛ والقدَر سرُّ اللَّه، فلا تخوضوا فيه؛ وإيَّاكم والتَّعمُّق، فإنَّ من كان قبلكم هلك بالتَّعمُّق. وذكر نحو هذا، ثمَّ قال:

(٢) إنْ سُئِل أَهلُ هذه الدَّعوى عن الدَّليل على صحَّة دعواهم، استطاروا وغضبوا وهدروا دم من يطالبهم بذلك، ونَهَوا عن النَّظر، وحرَّضوا على قتل مخالفيهم. فمن أجل ذلك، اندفن الحقُّ أشدَّ اندفان، وانكتم أشدَّ انكتام.

(٣) وقال الملحد:

وإنّما أتوا في هذا الباب مِنْ قول الإلْفِ لمذهبهم، ومرِّ الأيام والعادة، واغترارهم بلِحى التُّيوس المتصدِّرين في المجالس يمزِّقونَ

حلوقهم بالأكاذيب والخرافات وحدَّثنا فلان عن فلان بالزّور والبُهتان وبرواياتهم الأخبار المتناقضة؛ مِنْ ذلك: آثار توجب خَلْقَ القرآن وأخرى تنفي ذلك، وأخبار في تقديم عليٍّ وأخرى في تقديم غيره، وآثار تنفي القَدَرَ وأخرى تنفي الإجبار، وآثار في التّشْبيه؛ ذكرها الملحد وكرهنا تطويل الكتاب بها.

(٤) وقال الملحد:

إنّما غرّهم طول لِحَى التُّيوس، وبياض ثياب المجتمعين حولهم: الضّعفاء من الرِّجال والنّساء والصُّبيان، وطول المدَّة، حتَّى صار طبعاً وعادة.

هذا كلام الملحد واحتجاجه في هذا الباب.

جوابه:

(٥) أمّا قوله: «إنَّ أهل الشّرائع أخذوا الدِّين عن رؤسائهم بالتّقليد ودفعوا البحث عن الأصول والنظر وشدَّدوا فيه ونَهَوا عنه»، فقد ذكرنّا في صدر كتابنا ما فيه جوابُ قوله في باب التَّقليد والنَّظر؛ ولكنّا نعيد القول به، إذْ كان هذا موضعه، ونقول:

إنّه وغيره ممّن يدَّعي الفلسفة، قد أوْجبوا التَّقليد على أتباعهم فيما يدُقُّ مِنْ علومهم، وأجازوا التّسليم لرؤسائهم فيما لا تبلغه عقولهم؛ على ما ادَّعاه الملحد مِنْ أنَّ مَنْ نظر في شيءٍ من الفلسفة، تخلَّصت نفسه من كدورة هذا العالم، وإنْ لم يبلغ الغاية فيها. أَوَليست هذه رخصةً في ترك النَّظر فيما يدُقُّ، والتَّسليم والرِّضى بمقدار ما يلحق؟ أَوَلَيْس قد أوجب التَّقليد فيما لا يبلغه عقله؟ فكيف يُجيز ذلك لأتباعه، وينكر على أهل الشَّرائع أنْ يَنهَوْا أتباعهم عن النظر فيما تعجز عنه عقولهم، وأنْ يسلِّموا لعلمائهم إذا عرفوا طريقَ الحقِّ، وأنْ يقلِّدوهم ما ليس في وسعهم أنْ يلحقوه؟!

ونقول:

إنَّ أهل الحقّ والعدل لا يجيزون التقليد في الأصول، مثل: معرفة التَّوحيد، وأمر النُّبوَّة، وإثبات الإمامة؛ هذا ما لا يجوز قبوله بالتَّقليد. فإذا ثبت التّوحيد وصحَّ أمر النُّبوَّة وثبت أمر الإمامة، بعد ذلك يجوز التقليد للإمام الحقِّ العادل العالِم. وليس في جِبِلّة البشر أنْ يبلغوا الغاية من العِلم، إذ كان فوق كل ذي علْم عليمٌ. وإنْ سقط التّقليد بعد معرفة هذه الأصول كما ذكرنا وكُلّف الناسُ كلُّهم أنْ يبلغوا الغاية، فقد كُلِّفوا ما لا يطيقون؛ واللّه عزَّ وجلَّ أعدلُ وأرحمُ بعباده من ذلك، ولا يُكلِّف نَفْساً إلاَّ وُسعَها.

الفصل الثاني

عود إلى البحث والنظر

(١) وأمَّا ما ذُكر في باب البحث والنظر، فإنَّ أهل الشَّرائع كافةً لا يدفعون ذلك؛ ولا تُوجب الشرائع ترك البحث والنَّظر. وإن كان قومٌ مِنْ ضعفاء أهل المِلَلِ يدفعون لضعفهم، ويخفى عليهم وجه الصَّواب فيه، فليس ذلك بحُجَّة للملحد على كافَّة أهل الشَّرائع. وتحقيق ذلك في القرآن العظيم، قال اللَّه أصدق القائلين: «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذينَ يَسْتمعونَ الْقَوْلَ فَيتَّبعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئك الَّذينَ هداهم اللَّه وَأُولِئِكَ هُم أُولو الأَلْباب».

وأمر النَّبيَّ أنْ يدعو اليهود إلى النَّظر، فقال: «تَعالُوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ إلاَّ نَعبُدَ إلاَّ اللَّه وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيئاً وَلاَ يتّخذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُون اللَّه».

ودعاهم إلى النَّظر في التَّوراة وما يوجبه حكم التَّوراة فيما أنكروه عليه وخالفوه فيه، في أشياء أُحلَّت لهم وحُرِّمتْ عليهم، فقال: «قُلْ فَأْتوا بالتَّوْراة فَاتْلوها إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ». فهذه الآيات تدلُّ على أنَّ اللَّه، جلَّ وتعالى، أمر بالنَّظر وأمر بالاستماع من المختلفين، والنَّظر فيه واتِّباع ما هو أحسن وأَولى وأحقُّ وأوجب؛ وعلى هذا أهل المعرفة وَذوو الألباب مِنْ أصحاب الشَّرائع. وليست للملحد حجة عليهم بما يفعله ضعفاء الأُمَّة، ومَنْ لا معرفة له مستحكِمة، ومَنْ هو مِنْ عوام الناس.

(٢) فأمّا الخبرُ الذي احتجَّ به وعاب على رواته، وزعم أنّه يوجب ترك النَّظر، قوله: «الجدلُ في الدِّين والمِراء فيه كفر»، فإنَّه صحيح؛ ولكنْ ليس الجدل معناه النَّظر، وإنَّما معنى الجَدل الخصومة والتنازع. وأُخِذَ الجدلُ من الجَدَالة، والجَدَالة هي الأرض: كأنَّ المجادلَين، أحدهما يخاصم صاحبه وينازعه حتَّى يلقيهِ إلى الأرض ويستعلي عليه. فإذا كان الأمر على هذا، فليس ذلك بنظر؛ بل هو جَدَل وخصومة، وهو كفر في الدِّين؛ لأنَّه على طريق المغالبة والمعاداة وترك الإنصاف. والمُجادل على هذه الجهة هو تارك لما أُمِرَ به مِنَ النَّظر على أحسن الوجوه بالإنصاف والعدل؛ وهو الجَدَل الذي نُهينا عنه، ورُوِيَ فيه أنَّه كفر، لأنَّه كما ذكرنا مغالبة ومكابرة واستعلاء. وقد نهى الله عن الجدل وأمر بالنَّظر على أحسن الوجوه، فقال جلَّ ذكره: «وَلاَ تُجادِلوا أَهلَ الكِتاب إلاَّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ». ألاَ تراه قد نهى عن الجَدل على وجه المغالبة والاستعلاء والمكابرة ودفع الحق، وأطلق فيه على أحسن الوجوه، واستثنى، فقال: «إلاَّ بالَّتي هِيَ أَحسَنُ»؟ وقال في آية أخرى: «أُدْعُ إلى سبيل رَبِّكَ بِالْحِكَمةِ وَالْموعظَةِ الْحسَنَةِ وجَادِلْهم بِالَّتي هي أَحْسَنُ». فقد نهينا عن الجدلَ والخصومة والمِراءِ، وإذا كان على سبيل التَّنازع والمكابرة وترك الإنصاف ودفع الحقّ، فهذا هو الكفر. فأمَّا إذا ترك المناظرُ الخصومةَ والتَّنازعَ ودفعَ الحقّ، فالنَّظرُ مُطَلقٌ له: بل هو أمْرٌ من اللَّه، على حسب ما ذكرنا. والمِراء، أيضاً، معناه الخصومة والتَّنازع. وقال بعض أهل اللُّغة: المراء هو الجحود، واحتجّ بقول الشاعر:

لَئِنْ هَجَرْتَ أخا صِدْقٍ وَمَكْرُمةٍ لقد مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمريكا

قال: يمريك، معناه يجحدك. فالجحود في الدين هو كفر؛ لأنَّه استعلاء وظلم وردٌّ للحقِّ على معرفة ويقين؛ كما قال اللَّه عزَّ وجلَّ: «وَجَحدوا بها واسْتَيقَنَتْها أَنْفسُهم ظُلماً وعُلوّاً». فهذا معنى الحديث؛ ولكنَّ الملحد خَفِيَ عليه معناه، لقلَّة معرفته بلغة العرب؛ فقدَّر أنَّ المرادَ بالمراء والجدل هو النَّظر والإنصاف، واحتجّ بما لا حجّة له فيه.

(٣) وأمّا احتجاجه بالحديث: «لا تتفكّروا في اللّه وتفكّروا في خلقه» فهو أيضاً خبر صحيح؛ ولكنْ ليس هو ممّا يَنهَى عن النَّظر؛ إنَّما نُهينا عن أنْ ننظر في كيفيَّة الخالق، وأنْ نُقدِّر أنَّا نبلغ الغاية فيه. وأُمرنا أنْ نعلم أنَّ أحداً مِنَ الخلائق لا يبلغ نَعْتَه، وأنَّ الحواسَّ لا تحيط به، وأنَّ الأوهامَ والصِّفاتِ تقصر عنه. فنُهينا عن أن ننظر في كيفيَّته، وأُمِرنا أنْ ننظر في خلقه، ونعتبر به، ونعرف إلهيَّته ورُبوبيَّته وتوحيده بِخَلْقِه، ونستدلَّ عليه بصُنْعِه؛ فإنَّ في ما خَلَقَ مِنْ سماواته وأرضه وما بينهما من عجائب الصُّنع، ما يدلُّ على إنِّيته ووحدانِيَّته؛ وفي ذلك عبرةٌ للمعتبرين، ودليلٌ للمتفكِّرين. وبهذا أمر جلَّ ذكره في القرآن العظيم، فقال:

إنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والفُلْكِ الَّتي تَجْرِي في الْبَحْرِ بِمَا يَنْفعُ النَّاسَ وما أَنْزَلَ اللّه من السَّماءِ مِنْ ماء فأحيَا به الأَرْضَ بَعد مَوْتِها وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون.

وقال في آية أخرى:

إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولي الأَلْبابِ الَّذينَ يَذْكرُونَ اللَّهَ قِياماً وقعوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكّرون في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطلاً سُبْحانَك فَقِنَا عَذَابَ النَّارْ.

وقال في آية أخرى:

وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلِ فِيها رَوَاسِيَ» إلى قوله: «إنَّ فِي ذَلِك لآيَاتٍ لِقوْمٍ يَتَفكّرُونَ»؛ وقال في آية أخرى: «وَالْخَيْلَ وَالْبغَالَ وَالْحَمِير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً» إلى قوله «إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقوْمٍ يَتَفَكّرونَ.

(٤) فهذه الآيات وما أشبهها كثيرة في القرآن، هي كلُّها تدلُّ على أنّا قد أُمرنا أنْ نتفكُّر في خَلْقِ اللَّه، ونعتبرَ بما فيه من عجائب الصُّنع والتَّدبير، ونستدلَّ بذلك عليه جلَّ وتعالى؛ إذْ كُنَّا لاَ نَلْحَقُ كَيفِيَّته ولا نحيطُ به. ومَنْ تفكَّر فيه دُونَ خَلقهِ

تحيَّر، وذُهِلَ عقله، ولم يُدرك كيفيَّته ولم يُحِط به، لأنَّه، عزَّ وتعالى، جلَّ عن أَنْ يحيط به مخلوق؛ لأنه إذا أحاط المخلوق بالخالق، فالمخلوق أعلى مِن الخالق، تعالى اللَّه عن ذلك؛ بل المخلوق يعجز عن الإحاطة بالخالق، والخالق يحيط بخلقه كلِّه؛ لا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة في الأرض ولا في السَّماء. وإنَّما نُهينا عن التَّفكُّر في اللَّه، وأُمرنا بالتَّفكُّر في خَلْقِهِ لهذه العلَّة؛ ومَنْ خالف ذلك هلك. وهذا هو الحقُّ الواضح. وليس للملحد في ردِّه حجَّةٌ، ولا له إلى ذلك سبيلٌ. وليس هذا الحديث مِمَّا يردُّ النَّظر وينهَى عنه؛ بل فيه: النَّهي عن النَّظر في كيفيَّة الخالق، والتَّفكُّر في ذاته، والأمر بالتَّفكُّر في خَلْقِهِ والاعتبار به والاستدلال بذلك على إنِّيته وكيفيَّته. وأيُّ حجَّةٍ للملحد في هذا حين أنكره على رُواته؟!

(٥) وأمَّا الخبر، قوله: «القَدَرُ سِرُّ اللَّه فلا تخوضوا فِيهِ»، وما ادَّعى مِنَ الأخبار التي ذكر أنَّها تنفي القَدَرَ، وأخرى تنفي الإجبار، فإنَّها كلُّها صحيحة. ومَن الذي نظر في القَدَرِ فبلغ الغاية فيه حتى قطع حجة خصمه؟ ومن الذي أثبت القَدَر، أو مَنْ الذي أثبت الإجبار، مع كثرة نظر النَّاس فيه ومجاذباتهم؟ وهل حصلوا إلاَّ على الوسواس والهَذَيانِ ونقض بعضهم على بعض؟ هذا مِمَّا يدل على أنَّ الأخبار التي تنفي القَدَر هي صحيحة؛ وكذلك التي تنفي الإجبار هي صحيحة.

(٦) وأهل النَّظر في ذلك ـ أعني القَدَر ـ على ثلاث طبقات؛ قوم أَوْجبوا الإجبار، وادَّعوا أنَّ أفعالَ العباد مخلوقةٌ وأنَّها بِقَدرٍ، وأنَّ العِبَاد مُجبَرون على أفعالهم. فهؤلاء أوْجبوا أنَّهم أطاعوا اللَّه وَعصوه مُكْرَهين؛ فألزموا الباريَ الجَورَ، وأوْجبوا أنَّ اللَّه أجبَرَ خَلْقه على المعاصي، ثُمَّ يعاقبهم عليها، عزَّ اللَّهُ عن ذلك.

والطَّائفة الأخرى قالوا:

إنَّ أفعال العباد ليست بمخلوقة، وإنّه ليس للَّه فيها مَشِيئة ولا إرادة ولا تقدير. فأوجبوا أنْ العباد يَقْدِرونَ على فِعْل ما لا يريده اللَّه ولا يُقَدِّره، وأنَّهم عَصوْه وأطاعوه غالبين؛ فأشركوا أنفسهم مع اللَّه في

سلطانه؛ إذْ كانوا يَقْدِرُونَ على ما لا يُقَدِّر اللَّه ولا يريده؛ وسقطوا عن حكم التَّنزيل؛ لأنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ، يقول: «إنَّا كلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ»، وأفعال العباد هي شيء داخل في الكلِّ الذي ذكره اللَّه أنَّه خلقه بقَدَر، تعالى اللَّه عن قولهم علواً كبيراً.

وقوم عرفوا الحقَّ والعدل، فنفوا القَدر والإجبْارَ، وصَحَّحوا الأخبار التي أنكرها الملحد وزعم أنَّها متناقضة، وزعم أنَّ منها ما ينفي القَدر ومنها ما ينفي الإجبار، جهلاً منه بهذه المنزلة الثالثة. وأهل الحقِّ والعدل اقتدوا في ذلك بالصَّادقين من آل الرسول عليه وعليهم السَّلام الذين هم ورثة عِلم رسول اللَّه وصحَّحوا هذه الأخبار كلَّها التي تنفي القَدَرَ والإجبار، وقالوا: لا إجبارَ ولا تفويض؛ كما قال الصّادق جعفر بن محمد عليه السَّلام، حين سُئِل فقيل له: يا ابن رسول اللَّه، الناس مُجبَرون؟ قال: اللَّه أعدل من أنْ يُجبِر خلقَه على المعاصي، ثم يعاقبهم عليها. قيل: فمفوَّضٌ إليْهم؟ قال: هو أعزُّ من أن يكون لأحَدٍ في مُلكه سلطان. قالوا: فكيف هو؟ قال: هُوَ أمْر بَيْنَ أمْرَيْن، لا إجبارَ ولا تَفْويض.

(٧) فهذا هو سرُّ اللَّه الذي مَنْ ترك القول بالعدل والحقِّ فيه، وسلك فيه برأيه وقياسه، هلك؛ وهو سرُّ اللَّه الذي أطْلَعَ عليه أنبياءَه وأولياءَه؛ ولا يُوصَل إلى معرفته إلاَّ بتوقِيفٍ مِنهم. وكذلك كلُّ أمْرٍ ملتبَس في الدِّين لا يُلحَقُ إلاَّ بِتَوْقيفٍ مِنْهم؛ وَمَنْ لم يرجع في ذلك إلى الأصل يأخذه عنهم، وقال في ذلك برأيه وقياسه، لم يزل الدهرَ في التباس، على نحو ما رُويَ في الحديث الذي عاب به الملحد، وذكر أنَّ هذا الحديث يَنهَى عن النَّظر. وقد ذكرنا في باب النَّظر ما فيه كفاية لمن أنصف. وإنَّما هذا الحديث ينهَى عن الخوْض فيما ليس في وسع المخلوقين أن يدركوه برأيهم وقياسهم، ولا يعرفونه إلاَّ بِتوقيفٍ مِنَ العلماء البَرَرة كما ذكرنا، الذين هم قادة الأنام. ومن قاس برأيه في مثل هذه الغوامض، على غير أصلٍ من أصولهم وابتدع بقياسه ما يعقد به الرياسة، لا يزال الدهرَ في التباس؛ وهذا هو القياس المَنْهِيُّ عنه.

الفصل الثالث

البحث في التعمق

(١) وأمّا قوله: «إيّاكم والتّعمقَ فإنَّ من كان قبلكم هلك بالتّعمق»، فليس في هذا أيضاً نهيٌ عن النظر، إنّما هو نَهْي عن التّعمق في الدِّين. وليس معناه: إيّاكم والنَّظر؛ بل: التّعمق في الدِّين ترك القَصْدِ؛ وهو الغُلُوّ في الدِّين، وابتداع أشياء لم يُؤْمَروا بها في باب العبادة، والتشديد في ذلك، وترك القصد في الاجتهاد والأخذ بالتعسير فيه. فالمتعمق يغلو ويزعم أنّه مجتهد في الدِّين، يتكلَّف ما لم يكلِّفه اللّه؛ كما فعل الخوارج في هذه الأمّة، حتى ابتدعوا تلك الآراء وخالفوا الأئمّة، وغَلوا في الدِّين، وتعمقوا في العبادة، من غير جهة السُّنَّة التي سنّها اللّه عزَّ وجلَّ، وأمرهم بها. وقد جاءت فيهم أخبار بصحّة ما قلنا؛ كما رُوِيَ أنَّ رسول اللّه (ص) نظر إلى رجلٍ ساجدٍ في المسجد، حتى فرغ النبي (ص) من صلاته، فقال (ص): «مِنْ رَجُلٍ يَقْتُلُه؟». فقام أبو بكر ومشى إليه ليقتلَه، ثم انصرف وقال: «يا رسول اللّه كيف أقتل رجلاً ساجداً للّه؟!» فقال: «مِنْ رَجُلٍ يَقْتُلُهُ؟». فقام عُمر ومشى إليه ليقتلَه، ثم انصرف وقال: «يا رسول اللّه كيف أقتل رجلاً ساجداً لِلّه؟!» فقال: «مِنْ رَجلٍ يَقْتُلُهُ؟». فقام علي (ع) ومشى إليه ليقتله، فوجده قد ذهب. وفي الحديث زيادة، ولرسول اللّه (ص) فيه قول؛ وإنّما أَمرَ رسولُ اللّه (ص) بقتله، لأنّه تَركَ القصدَ وابتدع ما لم يفترضْه اللّهُ جلَّ ذكره، ولا أمَرَ به رسولَه (ص) من التّعمق في العبادة. ثم قيل إنّه كان أَحدَ الخوارج الذين قال فيهم النَّبيُّ (ص): «يَقْرَأونَ الْقُرآنَ لاَ يُجاوِزُ تَراقِيَهُمْ». وقال: «يَمْرقُونَ مِنَ

الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»؛ والمروق هو أنْ يصيب السَّهم الرَّمِيَّةَ، ثم ينفذ إلى الجانب الآخر؛ فهذا هو خروج عن المقدار. وكذلك التَّعمُّق، هو الغُلُوُّ والخروج عن المقدار. وكل خارج عن المقدار والحدِّ، فهو غالٍ ومتعمِّق ومارق.

(٢) وَرُوِيَ عن أمير المؤمنين (ع)، أنَّه قال:

الغُلُوُّ على أربع شُعَبٍ: على التَّعمُّق، والتَّنازُع، والدَّفع والشِّقاق. فَمَنْ تَعمَّقَ، لم يُنِبْ إلى الحقِّ، ولم تنحسر عنه فِتْنَة إلاّ غَشِيَتْه أخرى، وانخرق دينه، فهوى في أمر مَرِيج.

والغُلُوُّ والتَّعمُّق في الدِّين على وجوه كثيرة، أحدُها ما قد ذكرناه من فعل الخوارج الذين شدَّدوا في أشياء لم يُلْزَموها، وخفَّف اللّه عن الأُمَّة فيها؛ فتعمقوا وتركوا القصد وغَلَوا ومرقوا؛ وإنَّما تُعْرَفُ هذه المعاني من لغة العرب.

(٣) وقد قال السيد بن محمدٍ الحِميريّ في تحقيق ما قلنا يخاطب الشِّيعَةَ:

أنْتم قليل من كثير، فاقْصدوا وذروا التّعمق واحذروا أن تمرقوا. إنَّ الذين بنَهرَوان، إنَّما مرقوا مِنَ الإسلام حين تعمَّقوا، نزعوا غداتَئِذٍ بحكم واقع عند الحكومة، جاحدين، فأُغْرِقوا.

فجمع معنى التَّعمُّق والمروق والإغراق، وهي كلُّها بمعنى الغلوِّ وترك القصد. أَلا تراه يقول: فاقصدوا وذروا التَّعمُّق؟

(٤) وقوله في هذا الحديث: «فإنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُم هَلَك بالتَّعمُّقِ»، فإنَّه هذا المعنى بعينه؛ يعني بذلك النَّصارى الذين ذكرهم اللّه تعالى حيث يقول: «وَجَعلْنا في قُلُوب الَّذِينَ اتّبعوهُ رَأفةً ورحمةً ورَهْبَانيةً ابتدعوهَا ما كَتَبْنَاهَا عَليهِمْ إلاَّ ابتغَاءَ رِضْوَانِ اللّه فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِهَا»، يعني ما ابتدعته النَّصارَى مَن الرَّهبانيَّة، والتعمُّق في الدِّين، والتَّعسير على أنفسهم، والغُلُوّ فِيما لم يأمرهم اللّه به ولا كَتَبه عليهم، أي: لم يفترضه عليهم؛ إنَّما أُمروا بالعبادة بمقدار ما يبتغون به رِضوان اللّه، وأُمِروا أنْ يقتصدوا رأفةً ورحمةً؛ فابتدعوا وتكلَّفوا ما لم يُؤمَروا به، ولم

يرعَوا فرائض اللَّه حقَّ رعايتها؛ فهلكوا بذلك. فهذا هو التَّعمُّق في الدِّين الذي نُهينا عنه، وأمِرْنا باجتنابه واستعمال القصد وترك الابتداع في التَّعمُّق، لِئَلاَّ نهلك كما هلك مَنْ كان قَبلَنا. ولم نَعنِ بالتَّعمُّق، النَّظرَ؛ ولا نُهينا عن النَّظر. وأخطأ الملحد في تأويل هذا الحديث، لقلّة معرفته بلغة العرب؛ فجهل معنى الخبر، وعاب بما لو مَدَح به، لكان أَوْلَى؛ لأنَّ مَن أَمر بالقصد ونَهى عن التَّعمُّق فقد احتاط، وخفَّف، ويسَّر؛ وهو بالمدح أحقُّ منه بالذَّمِّ.

(٥) ولعلَّ معارضاً يقول: إنَّا احتججنا على الملحد بالقرآن وبالحديث وبالشِّعر، ولم نقل ذلك احتجاجاً عليه في أصله. ولكنَّا أَرَدْنا أنْ نُبيِّن معنى ما جهِلَه من تأويل الأخبار؛ وكذلك السبيل فيما نُورِدُ بعد هذا من الاحتجاج بالقرآن والأخبار والشِّعر إنْ شاء اللَّه تعالى.

الفصل الرابع

البحث في التناقض

(١) وأمّا الأخبار التي ادَّعى فيها التناقض وما ذكَر في باب التّشبيه وغير ذلك، فإنَّ هذه الأخبار، منها ما هي مصنوعة، ومنها ما هي صحيحة. فأمّا المصنوعة، فمنها: ما ابتدعها الكذّابون من أهل الشَّريعة، أرادوا أن يعقدوا بها الرياسات، ويُورِدوا أخباراً غريبة يستميلون بها قلوب العامَّة؛ فإنَّ المبتدعين في كلِّ شريعة هكذا كان سبيلهم. ومنها: ما وضعها الملحدون ودسُّوها، يريدون أنْ يشنِّعوا بها. فقد رُوِيَ عن قوم منهم أنَّهم فعلوا ذلك، مثل: ابن المقّفع وابن أبي العَوجاء وأشباههما. فأمّا ابن المقّفع فإنَّه كان مشتهراً بالزندقة، يستتر بالإسلام، ويميل إلى المجوسيّة والمنانيَّة، ويعتقد القول بالاثنين. ورُوِيَ أنَّه مَرَّ على بيت النَّار، فتمثّل بقول القائل:

يا بَيْتَ عاتِكَةَ التي أَتَعزَّلُ   حَذَرَ الْعِدَى وبه الفؤادُ مُوكَّلُ
إنِّي لأمنحُكَ الصُّدودَ وإنّني   قَسَماً إلَيكَ مَعَ الصُّدودِ لأمْيَلُ

وأمّا ابن أبي العَوْجاء، فإنَّه كان معروفاً بالإلحاد. فهذان قد عُرِفا واشتهر أمرهما؛ وأنَّهما كانا يصنعان هذه الأخبار ويدُسَّانها، نحو قوله: إنَّ اللَّه أجرَى خيلاً، فعَرِقَتْ، فَخَلَقَ نفسَه من ذلك العَرَق. ونحو حديث: زَغَبِ الصُّدر، ونورِ الذِّراعين، وعيادةِ الملائكةِ، وَقَفَصِ الذَّهب على جَمَلٍ أوْرَق؛ وأشباهِ هذه الأخبار التي هي منْ هذا الجِنْس.

(٢) وأمَّا الأخبار التي وضعها الكذَّابون مِنَ المُحَدِّثين الذين ابتدَعوها واسْتمالوا بها قلوبَ العامَّة، فإنَّ الثِّقاتِ مِنْ رُواةِ الحديث قد نبَّهوا على كثيرٍ منها، وذكروا رُواتِها الذين صنعوها وجرَّحوهم، ونَهَوْا عن الرِّواية عنهم، ووقفوا على كِذبهم. كما رُوِيَ عن شُعْبَةَ أنَّه قال: لأنْ أَزْنِيَ كذا وكذا زَنْيَة، أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أَرْوِيَ عن أبانِ بِن عيَّاش. ورُوِيَ عن ابن المبارك أنَّه قال: حديث أُبيٍّ بن كَعْبٍ أنَّه قال: مَنْ قرأ سورة كذا فَلَهُ كذا، ومن قرأ سورة كذا فَلَهُ كذا، هو مِن وضع الزَّنادقة، فلا تَرْوُوه. ويُروى عن المغيرة صاحب إبراهيمَ أنَّه قال: حديثُ سالم بن أبي الجَعْدِ وحديث فلاَّس لا تُروُوه؛ وكان لا يعبأُ بما يُرْوى عنهما. ورُوِيَ عَنْ غير واحدٍ أنَّ حديث ابنِ عبّاس: أنَّه كان يبصُقُ في الدّواةِ ويكتُبُ منها، وضعه عاصم الكُوزيّ. وكذلك الحديث: شُربُ الماءِ على الرِّيقِ يُعقِدُ الشَّحْمَ، وضعه عاصم الكوزيُّ. وقالوا: حديث النَّبيِّ (ص): أنَّه لم يحدّ المريضَ، وضعه سَهل السرَّاج. وحديثه (ع) الذي رُوِيَ عن عمرو بن حُريث، أنَّه قال: رأيت رسول اللّه (ص) يومَ العيد يُسار بين يدَيْه بِالحرابِ، وضعه المُنْذرُ بنُ زِياد. وحديثه (ع) أنّه نُهيَ عن عَشرِ كُنىً، وضعه أبو عاصم قاضي مَرْو. وحديثه (ع): لا يزالُ راجِلٌ راكِباً ما دامَ مُنتَعِلاً، وضعه أيُّوبُ بن خُوط.

فهكذا كان سبيلُ هؤلاءِ الكذَّابين والزَّنادقةِ والمُلحدين، الذين وضعوا هذه الأخبارَ. وليس ما يبتَدعه الكذَّابون ويُدلِّسه المُلْحِدون بحجّةٍ للملحدين على الأنبياء الطّاهرين وعلى أهْل الصِّدقِ مِنَ الأُمَّة؛ إذْ كانت الشَّريعةُ قد اشتملَتْ على أصنافِ النَّاس.

(٣) وأمَّا الأخبارُ الصَّحيحة: فمنها ما يُشْكل معناها، ومنها ما يقع فيها النَّسخُ. وأما ما يُشْكِلُ معناها فكثيرة؛ ومَنْ لا يعرِف معانيها يُقدِّر فيها التَّناقض. ومنها ما يقع فيها الزِّيادةُ والنُّقصانُ، ويوهم فيها المُحدِّثُ ويغلَط؛ مثل الحديث الذي احتجَّ به المُلْحد وعابه وطعنَ على النَّبيِّ (ص)، قوله: «رأيْتُ رَبِّي في أَحْسَنِ صُورةٍ ووَضعَ يَدَه بَيْنَ كَتِفيَّ حتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنامِلِه بَيْنَ ثَنْدُوَتيَّ». فإنَّه (ص) إنَّما أراد أنَّه رآهُ في المنامِ، لَمْ يُرِدْ أنه رآه في اليقظَة. وكيفَ يجوز أنْ يقول إنه

رأى ربَّه، واللَّه عزَّ وجلَّ يقول: «لاَ تُدرِكُه الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكَ الأبصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخبيرُ»؟ فأرادَ (ص) أنّه رآه في المَنامِ. ومثل هذا الحديث رواه عبيد اللَّه بن وَهَب عن عمرو بن الحرْث عن سعد بن أبي مالك عن مَروانَ بن عُثمانَ عن عمارةَ بن عامِر عن أمِّ الطُّفَيْل امْرَأةِ أُبيِّ بن كعْب، قال: سمعت النّبيَّ (ص) يذكر أنّه رأى ربّه في المنام في صورة شابٍ مُوفَّرٍ على فراشٍ من ذَهَبٍ في رِجْلَيْهِ نَعلانِ مِنْ ذَهَبٍ. وليس هذا بِمُنْكَرٍ أنْ يقول (ص): رأَيْتُ رَبِّي في المَنامِ؛ فإنَّ كثيراً من الناس يَرَوْنَ مثل هذه المنامات؛ يروْن ربَّهم ويروْنَ الملائكة ويرون الأنبياء ويرون القيامة ويرون الأمور العظيمة؛ وهذا واسع كثير غير مدفوع، وليس يقع فيه نكير من أحد من العالمين.

(٤) وقرأت في كتاب إشعياء النَّبيِّ: أنَّ إشعياء رأى رؤيا من بعد ارتفاع النُبوَّة عنه بثلاث سنين، في السنة التي توفي فيها عُزّيًا الملك وقال:

رأيت الرَّب جالساً على منبر عظيم، ورأيت نوراً خرج مِنْ أسفل منْبره ملأ هيكله، ورأيت السَّرافين قائماً أمامه، له ستّة أجنحة، يستر وجهه بجناحين، وبجناحين يستر رجليه ويطير بجناحين، ويضيف بعضها إلى بعض ويقول: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والروح، قُدُّوس الرب القويُّ الذي الأرض كلُّها ممتلِئة من تسبيحه؛ وتزلزلت مَعَاقِمُ الأبواب مِن الصَّوت الذي هَتَفَ، وامتلأُ البيتُ دُخاناً؛ ورأت عينايَ المَلِكَ الرَّبَّ القَوِيَّ». ثم ذكر أشياء كثيرة رآها ثم فسَّرها.

وقرأت في كتاب دانيال: رأى دانيال رؤيا وحَلِم حُلماً ورأسه على مضجعه، فكتب حينئذ رؤياه وقصَّ مبتدأ كلامه وبَدَأَ بالقول، فقال: رأيتُ فيما يرى النائم باللَّيل كذا، ورأيت كذا، وذكر أشياء كثيرة ثم عبَّرها وفسَّرها؛ وتطول الخُطَبُ بذكرها. وقال في آخرها:

ومن بعد هذه الأمور، رأيتُ كراسيَّ قد وُضِعَتْ، وعَتِيقَ الأيَّام قد جَلَس ولسانه أبْيَضُ كبياض الثَّلج، وشعر رأسه كالقُطن الأبيض النَّقيِّ،

وكُرسِيُّه كَلَهَبِ النَّار، ودعائمُ كرسيِّه وبَكَراتُه من نارٍ تَتَّقِدُ؛ ورأيتُ نهراً من نارٍ يجري بين يَدَيه، وبين يَدَيه ألفُ ألفِ خُدَّام يخدمُونه، وكُتَّابٌ لا تُحصَى؛ ورَأيتُ الدَّيَّان قد جَلَس، ونُشِرَتِ الأسْفَارُ؛ ورَأيتُ على سحابِ السَّماءِ كهيئةِ إنسانٍ، فانتهى إلى عَتِيقِ الأَيَّامِ وقدَّموه بين يَدَيه. فَخَوَّلَه المُلْكَ والسُّلطانَ والكَرامَةَ؛ وأن تتعبَّد له جميعُ الشُّعوب والأُمم واللُّغات؛ وسلطانه دائم إلى الأبد، ومُلكه إلى الأبد لا يتغيَّر. وضاقت نفسي أنا دَانِيال على مضجعي، وغمَّتني الرُّؤيا التي رأيتُ، فَدَنَوتُ من خادِمٍ مِن الخُدَّام، وسألتُه عن تحقيقِ هذه كلِّها، وقال لي يقيناً، وأخبرني بتعبير رؤياي. ثم فسّر دانيال تعبيرَها، وقال في آخرها: أربعة أملاك تقوم في الأرض ويرثون المُلكَ؛ والمملكةُ الرَّابِعَةُ هي التي تتفاضل على المملكاتِ، ويملكُ الأرض كلها، ويدُوسُها، ويَدُقُّها، وينالُ المُلْكَ والسَّلطان العظيم، والعظمةَ التي تحتَ السماءِ والشَّعبَ الظَّاهِرَ؛ مُلكه دائمٌ إلى الأبدِ، له يَتَعبَّد كلُّ سلطانٍ ويطيعُ. إلى ها هُنا انقضى الكلام. فأمَّا أنا دانيال، فغمَّتني فِكرتي جدّاً وتغيّر لونٌ بهائيٌ، ولكنِّي حفظت الكلام في قلبي.

فهكذا، هو من الحديث الذي ذكره الملحد، وقال: إنَّ في التَّوراة أَنَّ قَدِيم الأيَّامِ في صورة شيخٍ أبيض الرَّأسِ واللِّحية. فعابَ الملحد هذا وأشباهَه ممّا رآه الأنبياء في مناماتهم. وهذه الرُّؤيا أراد اللّه عزَّ وجلَّ أن يوحِيَ بها إلى دانيال، ليُخبِرَ بما يكون في العالَم؛ فأَخْبَرَ بذلك، وَصَحَّ ما ذَكَرَه. وَذَكَرَ في هذه الرؤيا أخبارَ ملوكٍ كانوا بَعْدَه، وما يحدث من أمورهم وممالكهم، يطول شرحها. ثُمَّ أخبر بعد أخبارهم وقِصَصِهم، بهذه القصَّة التي أمرُها أوْضَحُ من فَلَق الصُّبح؛ لأنَّه قال: أربعةُ أملاكٍ تقوم في الأرضِ ويرثونَ المُلْكَ. فالأملاك الأربعةُ هي أملاك أهل الأديان الأربعة، اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والمجوسيَّة والإسلام. والمملكةُ الرَّابعةُ التي ذكر أنّها تتفاضل على المملكات، هي مملكةُ الإسلام، وهي التي ورثت المُلك في هذا العالَم. فأمَّا الممالكُ كلُّها في العالَم، فهي تحت هذه الممالك

الأربعِ، ومنها انشَعَبَت كلُّها. ومملكةُ الإسلام، التي هي الرَّابعةُ، قد عَلَتْ عليها؛ كما قال: «إنَّ الرَّابعةَ تتفاضَلُ على المملَكاتِ، وتملكُ الأرضَ كلَّها، وتدوسُها، وتَدُقُّها؛ وينالُ المُلْكَ، والسلطانَ العظيمَ، والعظمة التي تحت السَّماء، والشَّعبَ الظَّاهِرَ؛ مُلكه دائِمٌ إلى الأبد؛ وله يتعبَّدُ كُلُّ سلطانٍ وُيطيعُ». فهذه المملكةُ الرابعةُ هي مملكةُ الإسلام؛ وقد داسَت الأرضَ، ودَّقتها، وقَهَرَتْ كلَّ شريعةٍ، وكَسرت الأصنام، وتعبَّد لها كلُّ سلطانٍ؛ وهي دائِمَةٌ إلى القيامة.

والذي رآه على سَحابِ السَّماءِ كَهَيئةِ إنسانٍ وقُدِّمَ إلى عَتيقِ الأيَّام، وخَوَّلَهُ المُلْكَ والسلطانَ والكَرَامةَ، وأن يَتعبَّدَ لَهُ جميعُ الشُّعوبِ والأُمم واللُّغات، وسلطانُه دائمٌ إلى الأبد، ومُلْكُه لا يتغيَّر، هو مُحَمَّدٌ صلَّى اللَّه عليه وعلى آله، لأنَّ شريعته قد قهرت جميع الشَّرائع، وسلطانه دائم إلى الأبد.

فهذا هو كتاب دانيال، وهو في أيدي أهل الكتاب، يقرأُونه ويدرسونه، ولا يُنكرونه؛ ولكن قد عَمِيت قلوبُهم عن هذا الأمرِ الواضح؛ وهذا أَقْوى الدَّلالاتِ على نُبوَّةِ مُحَمَّدٍ (ص)، وعلى سائر النُّبوَّاتِ، وهذا ما عاب به الملحد. وإنَّما كانت رؤياً أراها اللَّهُ دانيالَ في نومه، وصحّت كما ترى؛ ولكنَّ الملحد قصد إلى موضع التشنيع، وذكر ألفاظاً شنَّع بها، ولم يعرف القصّة بعينها؛ وإن كان قد سمعها بكمالها، فقد حبل تأويلها، وكتم ذلك عناداً منه وكُفراً. وهذا حجّة عليه في إثبات النّبوَّة أكيدة، لا يدفعها إلاَّ مُباهت ولا ينكرها إلا مُعاند. وحديث النبي (ص)، الذي طعن عليه الملحد، هو رؤيا، كما قد ذكرنا؛ وهو مشاكل لرؤيا دانيال ولرؤيا إشعياء، في رؤية اللَّه عزَّ جلَّ؛ وليس ذلك بمنكر، ولا فيه مطعن ولا حجّة للملحد.

الفصل الخامس

إن أهل الشرائع إذا طُولِبوا بالدليل شَتَموا!

(١) وأمَّا قوله: إنَّ أهل الشرائع إذا طُولِبوا بالدَّليل على دعاويهم، شَتَموا وغَضِبوا وهَدَروا دَمَ من يطالِبهم؛ فَمِنْ أَجْلِ ذلك، انْدَفَن الحقُّ أشدَّ اندفانٍ وانكتم أشدَّ انكتام.

فإنَّا نقول: لا تخلو كلُّ أمَّة من أخلاط النَّاس، ولا يكملون قاطبةً في العقل والفهم والمعرفة والحلم. وليس يجوز أن تطالَب الأُمَّةُ كلُّها أنَّ يكونوا تامِّين في هذه الخصال، مع كثرة عددهم الذي لا يحصيه إلاَّ اللَّه عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ العالَم قد امتلأ من أهل الشَّرائع، وهم مجبولون على طبائع مختلفة وأخلاق شتَّى. ففيهم الكامِل والنَّاقص، والعالِم والجاهل، والسَّفيه والحليم، والعاقل والأحمق؛ بل أهل العقل والعِلم والحِلْم والمعرفة هم الأقلُّون عَدداً في كلِّ شريعة؛ واشتملت الشَّرائع على هذه الطَّبقات من النَّاس، على تفاوت آرائها ومذاهبها؛ وليس في رَسم الشَّرائعِ أن لا يقبل إلاَّ الكاملُ العاقلُ الدَّيِّنُ اللَّبيبُ، وأن يطرد عنها من نقص عن هَذه المراتِبِ؛ ولا تُوجِبُ الدِّيانةُ ذلك، بل يُقْبَلُون على مراتبهم ويُعَلَّمون ما يحتاجون إليه مِن أمرِ دينهم، ويُؤْمَرون ويُنْهَون ويُراضُون؛ ثُمَّ حِسابُهم على اللَّه عزَّ وجلَّ، يُجازي كلاً بعَمله، وعلى مقدار قبول الأمْرَ والنَّهيَ، وسعيِه لأمْر معادِه؛ إذ كان اللَّه، عزَّ وجلَّ، يَسْتَعبِدُ الأنامَ على مقدارِ عُقولِهم ووُسعهم وطاقَتِهم؛ ثُمَّ هو أَعْلَمُ بما يستوجبون مِن الثَّوابِ والعِقابِ، وإنَّه عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدور؛ كما أمَرَ به رسولَه محمّداً (ص)، وسَنَّه له في القرآن، فقال تبارك

اسمه: «إنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ وعَلَيْنَا الحِسَابُ»، وقال: «ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ ربَّهم بُالغَدَاةِ والعَشي يُريدُونَ وجهَهُ مَا عَلَيْكَ مِن حسَابِهم من شيءٍ وَمَا مِنْ حسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شيءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِين».

(٢) هكذا جرت السُّنةُ فيمَن تَقَدَّم مِنَ الأنبياءِ، كما قال اللّه عزَّ وجلَّ في قِصَّة نُوحٍ (ع) لمّا عيَّره قومه بأتباعه، وقالوا له: «أنؤمِنُ لك واتَّبَعَك الأرذَلونَ»، قال لهم: «وما عِلمي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ إنْ حسابُهُم إلاَّ على ربِّي لو تشعرونَ وَمَا أنَا بِطارِدِ المُؤمِنِين»؛ فقد دلَّ أنَّهُم لم يطردُوا أتباعهم، وإن قَلَّت معرفَتُهم، وضعفت عقولُهم؛ بل علّموهم وبلّغوا رسالات اللّه، وَوَكَلُوا أمْرهم إلى اللّه. فاشْتَملت الشَّرائع على طبقات النَّاس. وليس فِعْلُ السُّفهاءِ، الذين يُسيئُون آدابَهم، بحجّة للملحد على العلماء وذوِي الألباب. فإنَّ أهل العلم والمعرِفة لا يدفَعون النَّظر، ولا يَكِيعُونَ عن الحُجَجِ والبراهينِ؛ ولكنَّ الملحدَ أراد أن يستَظْهِر بهذه الدَّعاوَى، ويحتجَّ بما لا حجَّة له في إبطال النَّبوَّة. ولو وَجَدَ الملحد على اعتقادِه وأصل مقالتِه أتباعاً يكونُ لهم أدْنَى عددٍ، لكانوا لا يَخْلونَ مِنْ هذه الأخلاقِ التي قد جُبِلَ عليها عوامُ النَّاس: لأنَّ الجميع، إذا كَثُرَ، لم يَخلِ مِن هذه الطَّبقاتِ؛ ولكنَّ الملحد لم يجِد مَنْ تابَعَه على مقالته وأصل اعتقاده إلاَّ مَنْ ينقُص عددُهم عن عدَدِ أصابعه. ومع ذلك، فقد ماتَتْ مقالتُه قبل مَوْتِه؛ إذ كان الباطلِ لا قِوامَ له، ولا ثبات؛ كما قال اللّه تعالى: «ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتُثَّت مِنْ فوقِ الأرْضِ ما لَهَا مِنْ قَرار».

الفصل السادس

قوله: اغترُّوا بطول لِحَى التيوس...

(١) وأمَّا قوله: اغترُّوا بطول لِحَى التُّيوس، الذين يمزِّقون حلوقَهم بالزُّور والبُهتان ورِواياتِ الأخبار المتناقِضَةِ التي ذَكَرَها، وأنَّهم اغترُّوا بكثرة الحُمقاء المجتمعين حولهم من ضعفاء الرِّجال والنِّساء والصِّبيان، وطولِ المدَّةِ حتَّى صار طبعاً وعادة، وأنَّهم يفعلون ذلك لِيبلغُوا مبلغ رؤسائهم التُّيوس، فليس في هذا الكلام فائدةٌ ولا حُجَّةٌ؛ بل هو جنسٌ من الحُمق والسَّفاهَة. ولو شِئْنا لقابَلْناه بمثلِه، وطَوَّلنا القولَ بِصفَتِه وصِفَةِ أمثاله مِنَ الملحدين، الذين هم على مِثلِ أَخلاقِ القِرَدَةِ والخنازير؛ ولكنَّا نكره أن نجرِيَ مَجراه في بابِ السَّفاهةِ والحُمق، فنكون قد نُهينا عَنْ شَيْءٍ وآتيناه؛ كما قال اللَّه تعالى: «أتأمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتنسون أنفسَكم».

(٢) ولكنَّا نقول: لَولاَ هذه القُوَّةُ التي هي في الشَّرائع وفي رُسومِ الأنبياء وكلامِهم، التي صَدَّرَتْ أصحابَ اللِّحى في هذه المجالس، لكان عَيْشُ الكِلابِ أهنأ مِنْ عَيْشِ الملحدين. ولكنَّ تلك القُوَّةَ هي التي أَقرَّتْ رُؤوسَهم على كَواهِلها، وَحَقَنتْ دِماءَهم في أُهُبِهَا. فَإنْ قال قائلٌ: إنَّ قَوْلَنا له: «الملحد» هو من باب السَّفاهة، قلنا: ليس كذلك: لأنَّ الإنسانَ يكون ملحداً ولا يكون تَيْساً. فإذا سَمَّى أحدُهم الآخرَ تَيْساً، فقد سَبَّهُ. وإذا سَمَّاه ملحداً، وكان ملحداً، فلم يَسُبَّهُ؛ ولكنْ نَسَبَهُ إلى مقالَتهِ؛ كما يُقالُ مُسْلِمٌ ويَهودِيٌّ ونَصْرانِيٌّ وَمَجوسِيٌّ ودِيصانِيٌّ ومَنَّانِيٌّ وغيرُ ذلك. فكلُّ إنسانٍ يُدْعَى بما يعتقِدُه؛ وعلى هذه الجِهَةِ،

قُلنا: «ملحد». وإن قال: إنَّا ذكرنا القِرَدَةَ والخَنازير، قلنا: أليس هذا المِقدارُ يستوجِبُ مِنَ الجوابِ هذا المِقدارَ...؟ حين أسُبُّ أعلامَ الشريعة ومشايِخَها ابتداءً؟! ولا عيبَ علينا إذا كان الجوابُ هذا المقدار، إلاَّ أن نُعاتَب على التَّقصيرِ والمُحاباةِ، قَصْداً مِنَّا للاقتصِارِ، وتَركاً لِلتَّطويلِ واجتناباً لِلسَّفاهَةِ؛ ونستغفرُ اللَّه من ذلك.

الفصل السابع

قوله: اندفن الحق أشد اندفان...!

(١) وأمّا قوله: اندفَن الحقُّ أشدَّ انْدِفانٍ وانكتمَ أشدَّ انكتام، فإن كان هذا الحقُّ الذي اندفَن وانكتم، هو النَّظر في أُصول هؤلاءِ الضُّلّال الذين تشبَّهوا بالفلاسفةِ المُحِقِّينَ، حتَّى قَبَّحوا أَمْرَهُم عندَ العامَّةِ بوساوِسِهم وأباطيلهم التي تدعو إلى الإلحاد، فإنَّ تلكَ ظاهرةٌ مكشوفَةٌ مَبذولَةٌ لكلِّ حاذقٍ وقاذفٍ؛ وهي غير مُنْدَفِنَةٍ ولا مَكْتومَةٍ؛ واختلافاتُهم وقوانينُهم المتناقضة غير معدومةٍ؛ ولكن ليس فيها بُرْهانٌ واضحٌ تَقبَلُهُ العُقولُ، ولا قوّةٌ كامِنَةٌ فَتَجْتَذِبُ القلوبَ. والرّاغبون فيها، على مِقْدارِ قوّة ذلك الكلام؛ وليس هو كقوّة كلامِ الأنبياء (ع) والكتُبِ المنزَّلةِ التي قد جَذَبَت قلوبَ الخلائقِ من الخاصِّ والعامِّ، والعالِم والجاهِلِ؛ وكثيرٌ مِمَّن قَبِلَ كلامَ الأنبياء والكُتبِ المنزَّلة، لا يعرفون ما فيها؛ ولكنَّ تلكَ القوَّةَ جمَعت الأنفس على مَحبَّتِها؛ حتَّى جعلوها شِعارَهُم ودِثارَهم، وحَلَّتْ في قلوبِهم، وجذَبتها إلى قبولِ ذلك، كما تَجْذِبُ القوَّةُ التي في حَجَرِ المغناطيسِ الحديدَ. فكذلك في الكُتبِ المنزَّلة، قوَّةٌ كامِنَةٌ مُسْتَسِرَّةٌ فيها، تَجْذِب القلوبَ؛ حتى قد صارَتْ كتُبُ الأنبياءِ (ع) مِثْلَ الطلسماتِ في العالَم. وسوفَ نشرحُ هذا البابَ في مَوضعِهِ، ونذكُرُ في جَوابِ قول الملحد في باب الإلفِ والعادَةِ، ما يجبُ إن شاءَ اللّه تعالى.

الفصل الثامن

قوله في الضعفاء من الرجال والنساء...!

(١) وأمّا قوله في الضُّعفاءِ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والصِّبيانِ، واجتماعِهِم على رُؤَساءِ أَهلِ المِلَّةِ، فإن هذه الطَّبقاتِ من النَّاسِ، إن كانَتْ أَنْفُسُهم لا تتخلَّص مِن كُدورَةِ هذا العالَم، حتَّى ينظروا في الفلسفةِ، على ما ادَّعاهُ الملحد، فإنَّ الحكيم الرَّحيمَ قد ظَلَمَهُمْ - عزّ تعالى عن ذلك - حينَ لم يرزقْهُم عُقولاً تامَّةً قويَّةً تضبِطُ الفلسفةَ، وتَقْدِر على النَّظر فيها، حتى تتخلَّص من كُدورَةِ هذا العالَم. ولا يجوزُ في حكْمتِه وعِلْمِه أن يُعينَ هذه الأنفسَ على أنْ تتجبلَّ في هذا العالَم، وتتَّحد بهذه الأجسادِ الكَدَرةِ، وتقعَ في هذا البلاءِ العظيم، فيلزمون النَّظَر في أُمورٍ يعجزون عنها، ويكلَّفون طلَبَ ما لا يُطيقونَه. فإذا لم يفعلوا، تركَهم يكرُّون في هذا العالَم، ويشقَون فيه، على أصل مقالة الملحد. وهذا ظُلْم، وتعالى اللَّه عن ذلك عُلُوّاً كبيراً؛ لأنَّا نَجِدُ دهْماءَ النَّاس في هذه الأقاليمِ التي نُشاهِدُها، وكافَّةَ الأُمم في سائر الأقاليم والجزائر مِنْ أهلِ الألسِنة المختلفةِ، لا يدرون ما الفلسفة، ولا يعرفون كيفيَّتها وحقيقتَها، فضلاً عن النظر فيها؛ إلاَّ قليلاً مِنَ النَّاس من أهْلِ اللُّغة العربيّة أو اليونانيَّةِ، ولو عُدُّوا لسهل تَعدادُهم؛ وسائر الخلائِق، سبيلُهم ما قد ذكرنا، ونَعْتَدُّ في ذلك بما نُشاهِدُه. فأَيْنَ الفلسفة بلسانِ الفُرْسِ، وبِلُغاتها المختلفة في بُلْدانها؟ وهكذا سبيلُ سائر الأمم. فأمَّا النِّساءُ والصِّغارُ مِنَ النَّاس الذين لم يبلُغوا الاستعبادَ، والضُّعفاءُ مِنَ البالغينَ في جميع الأمصار والمُدُنِ فيما قَرُبَ وَبَعُدَ، فأنْتَ يائِسٌ مُنقَطِعُ الرَّجاء أن يرتاضوا بالفلسفة، أو تبلغَها عقولُهم؛ لأنَّا

لا نَجِدُ فيلسوفاتٍ ولا وِلداناً ولا ضعفاءَ مِنَ النَّاس متفلسفين؛ والموتُ يجرى عليهم.

(٢) وحُكْمُ الأُمَمِ التي في أطرافِ الأرضِ مِنْ أصنافِ العجَم مثلِ الدَّيْلَم والتُّركِ والزنج والحَبَشَةِ وسائر الأقاليم، حُكْمُ ما نُشاهِدُه. فإنْ كان الحكيمُ الرحيمُ حَرَمهُم ذلك، ومنَعهم تلك القوَّةَ وبَخِلَ عليْهم بتلك الآلةِ، حتى عَجِزوا عن النَّظر في الفلسفة، ثم إذا ماتوا، يُعينهُم على التجبُّل في هذا العالَم والعودِ إليه على مذهب الملحد، أنَّهم يكرُّون فيه أبداً حتى ينظروا في الفلسفة، فتصفو أنفسهم، فإنَّ هذا لظلمٌ غيرُ جائز في حكمة الحكيم ورحمة الرحيم، حين لم يلهمهم كافَّةً ما يحتاجون إليه في أمر دِينهم ودنياهم طبعاً وفِطْنةً، وقد اخْتار لهم أعسَرَ الأُمورِ وحَرَمهم أيسرَها؛ وهو خِلافُ ما ادَّعاه الملحد، أنَّ الحكيم اختار لهم أيسرَ الأُمور، ولم يكلِّفهم الأعْسرَ، وألهمَهم هذه الأسبابَ طَبْعاً، وزعم أنَّه لا يجوز في حكمة الحكيم النَّاظِرِ لِخَلْقِه، إذا وُجِدَ السَّبيلُ إلى أيسر الأُمور، أن يكلِّفه عباده، فيدع ذلك ويكلِّفهم الأعسرَ؛ يُريدُ بذلك أنَّه لم يُكلِّفهم طاعة الأنبياء والرُّسل، فإنَّها أعسرُ الأُمور؛ ولكن ألهمَهُم ما يحتاجون إليه، ليُدرِكُوه بِطباعِهم. فأين ما ألهم هؤلاء الضُّعفاء مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والْوِلدان، وهذه الأُمَم التي ذكرناها؟ أوَلَيْسَ ما يَدين به أَهْلُ الشَّريعةِ أَولى بحكمةِ الحكيم ورحمةِ الرَّحيم، وأيسرَ الأُمور التي اختارها لِبَريَّته؟ لِأَنَّ أهلَ الشَّريعةِ قالوا: إنَّ الخلائقَ كلَّهم مُسْتَعبدونَ، مأمورونَ، مَنْهيُّونَ، مُجازونَ بأعمالهم على قَدْرِ نِيَّاتِهم واجْتهادِهم، وإنهم لا يُكَلَّفون ما لا يُطيقُون؛ وإنَّ الضُّعفاء مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ والوِلدان، الذين ليس في وسعهم الطَّلَبُ والبَحْثُ، لم يكلَّفوا ذلك؛ بل كُلِّفَهُ العقلاءُ الأقوياءُ؛ فإذا قصَّروا، عوقِبوا؛ وإذا اجتهدوا، أُثِيبوا؛ وإذا عَجِزوا، فقد وَعَدَ اللَّه أن يعفُوَ عنهم؛ وبهذا نطَق القرآنُ، قال اللَّه عزَّ وجلَّ:

إنَّ الَّذِينَ تَوفَّاهُم الملائِكَةُ ظالِمِي أنفُسِهم قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قالوا كُنَّا مُستَضْعَفِينَ فِي الأرضِ قَالُوا أَلَم تَكُن أرضُ اللَّه واسِعَةً فتُهاجروا فِيها فأولَئِكَ مَأْواهُم جَهَنَّم وسَاءَتْ مَصيراً إلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساء

والوِلدانِ لا يَسْتَطِيعونَ حِيلَةً وَلاَ يَهتَدُونَ سَبيلاً فَأُولئكَ عَسَى اللَّه أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُم وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً.

(٣) فهذا شرطُه عزَّ وجلَّ على بَرِيَّتِه ولِبرَيَّتِه على لسَانِ رسوله محمَّد (ص) الذي جعلَه سبباً بينه وبين خلقه. وهذا أشْبَهُ بحكمتِه ورحمتِه، وأَوْلى به؛ وهو أيْسرُ الأُمورِ عليهم مِنَ الذي ادَّعاه الملحد. وإذا كان الأمر هكذا، فإنَّ الضُّعفاءَ من الرِّجال والنِّساءِ والوِلدان هُم معذورون في اجتماعهم على رؤساء أهل الملَّة، والأخذ عنهم مقْدار ما يُطيقون ممَّا يرجُون به خلاصَهم مِنْ وبالِ هذا العالَم، وجائزٌ لهم التَّقليدُ إذا لم يستطيعوا حيلَةً ولم يهتدوا سبيلاً. وتقليدُهم لِهؤلاءِ الرُّؤساء أولى مِنْ تقليدهم للمتفلسفين؛ لأنَّ الرُّؤساء من أهل الشرائع يرغَبُون في الثواب العظيم على العمل الصالح، ويرْهَبون من العذاب الأليم على الظلم والفساد؛ والرؤساء المتفلسفون من أهل الإلحاد، فلا رغبة عندهم ولا رَهبة. فأيُّ الأمرين أَوْلى بالاحتياط: الاقتداءُ برؤساء أهل الشَّريعة والأخذُ بالحزم وتقليدُهم إيَّاهم، أم الاقتداءُ بالملحدين وتقليدُهم في إهْمال الأمر؟! وأيُّ الأمرين أشبه بحكمةِ الحكيم ورحمةِ الرَّحيم: ما ادَّعاه الملحدُ، أم ما ادَّعاه أهلُ الشريعة؟! كلاً لا وزرَ للملحد من هذا ولا مَحيصَ؛ وليس في احتجاجه باجتماع الضُّعفاء مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدان على رُؤساءِ أهل المِلَّةِ برهانٌ على إبطال النُّبوَّة.

الباب الثالث

الفصل الأول

قوله: الآن ننظر في كلام القوم وتناقضه

(١) وأمَّا قوله: الآن ننظر في كلام القوم وتناقضه - يعني بذلك كلام الأنبياء (ع) - وقال: زعم عيسى أنَّه ابنُ اللَّه: وزعم موسى أنّه لا ابن له، وزعم محمدٌ أنه مخلوقٌ كسائر الناس، وماني وزَرْهِشْتُ خالفا موسى وعيسى ومحمداً في: القديم، وكَوْنِ العالَم، وسَبب الخير والشرُّ، وماني خالف زَرْهِشْتَ في الكَوْنَين وعِلَلِهما، ومحمّدٌ زعم أنَّ المسيح لم يُقْتَل، واليهودُ والنَّصارى تُنْكِرِ ذلك وتزعم أنَّه قُتِلَ وصُلِبَ؛ وذكَر هذه الأبوابَ وخلَطَها بِحَشْوٍ كبيرٍ من دعاوَى المجوسِ والثَّنَويَّةِ وبِدَعهم؛ ثم قال: إنَّ اليهود قالت إنَّ موسى قال: إنَّ اللَّه قديرٌ غيرُ مؤَلَّفٍ ولا مَصْنُوعٍ، وإنَّه لا تَنْفعه المنافع ولا تضرُّه المضارُّ؛ وإنَّ في التَّوراة: أن يُوضَعَ الشَّحْمُ على النار لِيَشُمَّ الرِّيحَ مِنْه الرَّبُّ، وإنَّ في التَّوراة: أنَّ قَديم الأيَّامِ في صُورَة شَيْخٍ أبيض الرَّأسِ واللِّحْيةِ: وفيها: ما لَكُمْ تُقَرِّبونَ إليَّ كلَّ عَرْجاء وعَوْراء؟ أتُراكُم لو أهْدَيْتُمْ ذلك إلى أصْدِقَائِكُمْ قبلوهُ منكم إلاَّ صَحيحاً؟ وفيها: اتَّخِذوا إليَّ بِساطاً من أُبْريسم دَقيقِ الصَّنْعَةِ وخِواناً من خَشَبِ الشَّمْشارِ. ثم قال الملحد: هذا، بكلام أهل الفَاقَة، أشْبَهُ مِنْه بِكلام الغَنِيِّ الحميد. وذكر أشياء كثيرة ممَّا هي في التَّوراة وعابها. وقال: زعَمَت النَّصارى أنَّ عيسى قديمٌ غير مَرْبوبٍ، وأنَّه قال: جئت لأتَمِّمَ التَّوراةَ، ثم نَسخَ شرائِعها وبدَّل قوانينها وأحكامها، وأنَّ النَّصارى زعمت أنّه آبٌ وابنٌ وروحُ الْقُدُس. وذكَر ما تدَّعيه المجوسُ عن زَرْهِشْتَ في باب أَهْرِمن وارمزد، وما ادّعاه ماني: أنَّ الكلمةَ انفصلَتْ من الأب

ومزَّقَت الشَّياطين وقتلت، وأنّ السماء من جلود الشياطين، وأنَّ الرَّعد جرجرة العفاريت، وأنَّ الزَّلزلة تحرِّك الشَّياطين تحت الأرض، وأنَّ ماني رفع سابور الذي عمل له «الشَّابرقان» في الجوّ، وأخفاه حيناً هناك، وأنّ ماني كان يُختطَف من بين أيديهم بروحه يُحاذي به عين الشَّمس، فربَّما مكث ساعة وربَّما مكث أياماً. فأورد مثل هذه المحالات التي ابتدعها المبتدعون في المجوسيَّة والمنَّانيَّة وخلطها بما في الكتب المنزَّلة وآثار الأنبياء، وأضافها إلى رسل اللّه الطَّاهرين الذين هم براء من كلِّ ذلك. وزعم أن هذا من رسومهم، وأنَّ هذا اختلاف وتناقض في كلامهم؛ واحتجَّ بذلك في دفع النُّبوَّة، وأراد أن يستظهر بهذه المخاريق والخرافات، ويقوّي كلامه بهذه الأباطيل والسَّخافات. ولعمري قد افتقر من أراد أن يطفئ نور اللّه بالمحالات التي تدَّعيها المنَّانيَّة والزَّنادقة وغيرهم من الضُّلّال في كل أمَّة: «واللَّهُ مُتمُّ نورِهِ ولوْ كَرِه الكافِرونَ».

فنقول في جوابه:

(٢) أمَّا الذي ذكره عن المجوس والمنَّانيَّة، فإنَّ الملحد قصد في ذلك التَّشنيع على أهل الملل؛ وليست له حجَّة في إيراد تلك المحالات التي ابتدعها المنَّانيَّة والمجوس على إبطال النُّبوَّة؛ فإنَّ تلك بدع من الضُّلاَّل، مثلها يُنسَب إلى الفلسفة؛ وسنذكره في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

(٣) فأمَّا الذي ذكره أنَّه في التَّوراة وفي الإنجيل وفي غيرهما من الكتب المنزَّلة، وما ادَّعاه من التَّناقض في القرآن، فإن أكثر ذلك أمثال مضروبة، منها ما معانيها واضحة، ومنها مستغلقة؛ وليس هناك اختلاف ولا تناقض؛ وهو كله حقٌّ وصدق؛ وإنَّ الأنبياء لم يختلفوا. وكلامهم الذي يقدِّره الجهَّال أنّه متناقض فإنّه وإن اختلفت ألفاظه، فإنَّ المعاني فيه متَّفِقة؛ لأنَّ الأنبياء والحكماء كان أكثر كلامهم مرموزاً، وكانوا يخاطبون الأمم بالحكمة، ويضربون الأمثال؛ فيسمعها الخاصُّ والعامُّ، فيعقل ذلك عنهم العلماء والخواصُّ الذين كانوا يقفون على أسرار الأنبياء (ع)، ثم يعلِّمون المستحقين من النَّاس؛ ليكون في النَّاس عالِم

ومتعلِّم وخاصٍّ وعامٍّ، وليكون الامتحان قائماً فيهم بذلك. ومن نظر في ظاهر ألفاظهم ولم يعرف معانيها، حكم فيه بالتناقض والاختلاف.

(٤) هكذا كانت رسوم الأنبياء (ع)؛ وهو الأصل الصَّحيح الذي كان يعتقده العلماء في كل ملَّة، من مضى منهم في الشَّرائع القديمة، ومن غبر في هذه الأُمَّة. وبهذا نطقت الكتب المنزَّلة، ودلَّت عليه جميع كتب الحكماء، وبه أخبر العلماء. وهذه شريطة موجودة أيضاً في كتب الفلاسفة الحكماء المحقِّين؛ ففيها كلام مغلق، يحتاج المتعلم فيه إلى من يحلُّه له، حتى يصل إلى معرفته. وَمَنْ جهله، وقال فيه برأيه، أخطأ فيه؛ حتى اختلفوا وتقوّلوا على القدماء وطعنوا عليهم في مذاهبهم؛ كما اختلفوا في أمر أرسطاطاليس، فمنهم من قضى عليه في كلامه أنَّه موحِّد، وقضى آخرون بغير ذلك؛ هذا حين جهلوا رموز كلامه. فسبيل الكتب المنزَّلة وكلام الأنبياء (ع) والأخبار التي رُويت عنهم على ما ذكرنا.

(٥) ويجب أن يُنظَر في شأن هذه الكتب المنزَّلة وأخبار الأنبياء (ع) التي ادّعى الملحد أنَّها مستحيلة، وأنَّ فيها تناقُضاً؛ فإنْ كان من تُنسَب إليه هذه الأخبار صادقاً عاقلاً مميَّزاً عند أهل زمانه، فالأمر فيه على ما ذكرنا. وإن كان من تُنسَب إليه هذه الكتب وتُسنَد إليه هذه الأخبار كذوباً مجنوناً معتوهاً عند أهل زمانه لا يَعقِل ما يقول، جاز أن يُحكَم فيها بالتَّناقض والكذب، على حسب ما ادَّعى الملحد؛ لأنَّه لا يجوز أن يورد العاقل المميّز الكامل كلاماً متناقضاً وقولاً مستحيلاً يخالف بعضه بعضاً، ولا يجوز أن يكون عاقلٌ مميزٌ يشهد لغيره بالصِّدق والنُّبوَّة، ويزعم أنَّه على منهاجه وأنّه يريد أن يشيِّد بنيانه، ثم ينقض كلامه ويهدم بنيانه، مثل ما ادَّعاه الملحد من تناقض كلام الأنبياء والخلاف من بعضهم على بعض وهدم بعضهم بنيانَ بعض. فإن كان الأئمَّة الذين أُخذت عنهم هذه الكتب ورُوِيت عنهم هذه الأخبار، مثل: موسى وعيسى ومحمَّد (ع) معروفين بالجهل والغباوة والحمق والجنون، فالقول فيه ما قال الملحد ـ ونعوذ باللّه أن يكون كذلك ـ بل الأئمَّة الذين يقتدي بهم أصحاب الشَّرائع، مثل موسى وعيسى ومحمَّد وغيرهم من الأنبياء (ع)، كانوا مشهورين بالكمال والعقل والتَّمييز والسِّياسة

والجمع لكلِّ خُلق محمود؛ وكيف لا يكون كذلك مع سياستِهم للأَنام وجمعهم إيَّاهم على شرائعهم؟ وكما اتفقت الأمم التي شاهدت محمداً (ص) أنَّهم وجدوه تامّاً في عقله وحُلمه وأناته وتدبيره، وسياسته للخاصِّ والعامِّ، وكماله في جميع الخصال التي يحتاج إليها السَّائس للبريَّة.

(٦) فأقرَّت قريش أنهم وجدوه أكمل أهل دهره، وأجمعهم للخصال الحميدة؛ وكانت قريش تسمِّيه «الصَّادق الأمين» قبل أن قام بالنُّبوَّة؛ حتى إنَّهم لما اجتمعوا لبناء البيت، لأنَّه كان قد انتقض بناؤه، فحضر من كلّ بطن من بطون قريش رؤساؤهم وتعاونوا على بنائه، لكي لا تكون تلك المنقبة لبعضهم دون بعض. فلمَّا أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود موضعه، اختلفوا وتنافسوا في ذلك، ثم اتَّفقوا على محمَّد (ص) وقالوا: رضينا بحكم الأمين. فحضر (ع) وأمر أن يبسط ثوب ويوضع عليه الحجر، وأن يأخذ رئيس كلِّ قبيلة طرفاً من الثّوب، ثمَّ يرفعوه معاً، ففعلوا، ثمَّ تناوله هو (ص) فوضعه في موضعه؛ فرضوا بذلك ثقةً منهم به، واعتماداً على رأيه وأمانته وعقله وصدقه؛ وبذلك كانوا يعرفونه حتى ظهر بالنُّبوَّة.

(٧) فلمَّا ظهر بالنُّبوَّة وعاب دينهم، وما كانوا يعبدونه من دون اللَّه، عادوه ونابذوه وقالوا: يا محمد إنَّا عرفناك صدوقاً أميناً، فما هذا الذي قد أتيتَنا به؟! فأنزل اللَّه تعالى في ذلك، فقال: «فَإِنَّهم لا يُكَذِّبُونَكَ ولَكنَّ الظَّالِمِينَ بآياتِ اللَّه يَجْحَدُونَ»، أي: لا يجدونك كذَّاباً، ويعرفونك بالصدق؛ ولكن يظلمون أنفسهم ويجحدون الحقَّ ويستنكفون منه. فإن قال قائل: فلمَ قالوا له إنَّك مجنون حتى أنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: «ثمَّ تَولُّوا عنهُ وقالوا مُعلَّمٌ مَجْنُونٌ»، وأنزل قوله: «أَمْ لَمْ يَعرِفوا رَسولَهُم فهُم لَهُ منكرِون أَمْ يَقُولونَ بِه جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُم بالحَقِّ وأكثرُهُم لِلْحقِّ كارِهُون»؟ قلنا: إنَّهم لم يعنوا بهذا أنَّه مجنون معتوه، ولكنَّهم ادّعوا أنَّ له تابعاً من الجنّ يعلِّمه، وعلى هذا المعنى قالوا به جِنَّة؛ لأنَّهم لمَّا وجدوا للأشياء التي يُخبر بها حقيقةً من الأُمور الغائبة التي كان يذكرها ثم يجدونها كما يقول، قالوا: هذا له رِئيٌّ مِنَ الجِنِّ، وتابعٌ يُلقي إليه هذه الأُمور.

(٨) وهكذا قالوا لمن تقدَّم من الأنبياء، كما ذكر اللَّه في قصَّة نوح: «إنْ هو إلاَّ رَجُلٌ بِه جِنَّةٌ فتربَّصوا بِهِ حَتَّى حِيْنٍ». وفي قِصَّة موسى (ع) حكاية عن فرعون حين قال: «إِنَّ رَسُولَكُم الَّذي أُرْسِلَ إليكم لَمَجنُونٌ»، ثم قال على إثر هذه الآية التي أظهرها من العصا واليد: «إنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُريد أن يُخْرِجكُم من أَرضِكُم بِسِحرِهِ». فكيف يجوز أن يعني بقوله مجنون أنَّه معتوه، ثم يقول إنَّه لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره؟ فكيف يكون المجنون ساحراً عليماً؟ وكيف يخاف فرعون من مجنون أن يُخرجه من أرضه؟ ولكنَّه أراد بقوله مجنون، أي له رَئِيٌّ من الجنِّ؛ لأنَّه كان يُخبرهم بأشياء تصحُّ، فقالوا هذا من جهة الجنِّ. ولمَّا رأوا الآيات، قالوا: هذا سحر. فلم يكن قولهم لمحمَّد معلَّم مجنون، وبه جِنَّة، طعناً عليه في عقله وكماله وتمام فهمه وتمييزه. فكيف يجوز أن يظنُّوا به الجنون مع الأمور العظيمة الجليلة التي كانت تُرى منه؟ ألا تراه يقول عزَّ وجلَّ: «أم لم يَعْرِفوا رَسُولَهُمْ فَهُم لَهُ مُنكِرُون»، يعني: أم لم يعرفوه بالصِّدق والأمانة فهم ينكرون عقله ويتهمونه بالكذب؛ وقد عرفوه بالصِّدق والأمانة. وقال عزَّ وجلَّ أيضاً: «ما أَنْتَ بنعمةِ رَبِّك بمجنونٍ»، قوله بِنِعْمَةِ رَبِّك كما يقول ما أنت بحمد اللَّه بمجنون. ثم قال على إثر ذلك: «وَإِنَّك لَعلى خُلُقٍ عَظيم»، قالوا في تفسيره: الخُلُق العظيم هو القرآن؛ يعني: أنَّ الذي تورده، ليس هو من الجِن، بل هو القرآن العظيم الذي هو وحي من اللَّه عزَّ وجلَّ.

(٩) فإذا كان الإمام في مثل حال محمّد (ص) من كماله وجَمعه للخصال الحميدة كلِّها التي تكون في النَّاس من الصِّدق والأمانة والعقل والحِلْم والرَّزانة والوقار وحسن الخلق والتَّواضع والسَّخاء والوفاء والشَّجاعة ورقَّة القلب والتَّعطُّف على من آمن به وتبعه، والعفو عمن كفر به وخالفه عند ظفره به، وغير ذلك من كلِّ خصلة محمودة تكون في النَّاس، فلا يجوز أن يَتَّهِمَ من يكون في مثل هذه الحال بأنه يتكلَّم بما يعرف غيره فيه التَّناقضُ والاختلافُ، ويجهل هو ما يتكلَّم به؛ فإنَّ محمَّداً (ص) قد كان يجمع هذه الخصال كلَّها؛ ونحن نذكر منها ما هي مشهورة عنه، ليعرف صدق ما ذكرناه إن شاء اللَّه تعالى.

الفصل الثاني

في حلية الرسول (ص) وشمائله

(١) وأمَّا الصِّدق والأمانة فقد ذكرنا طرفاً منه: وأنَّ قريشاً كانت تسمِّيه بالصَّادق الأمين، لثقتهم به ومعرفتهم إيَّاه بالصّدق قبل ظهوره بالنُّبوّة. وقد ذكرنا تراضيهم به في باب بناء البيت، وأنَّهم اختاروه من بينهم أجمعين، ورضوا بحكمه؛ وهم المعروفون بأصالة الرأي والعقول الرَّصينة من بين جميع العرب.

(٢) وأمَّا السَّخاء فإنَّه كان لا يذخر شيئاً، وكان يأخذ من أغنياءِ أصحابه صَدَقات أموالهم ويفرِّقها على فقرائهم، ولا يذخرها ولا يقتني عقاراً؛ والذي كان يصير إليه في سهمه من الغنائم، وغير ذلك ما يفضل من قُوته، كان يشتري به عقاراً ويجعله صدقة؛ فقد كان اشترى بساتين، وتصدَّق بها؛ وهي معروفة إلى يومنا هذا. وكان لا يمسك يده عن بذل ما يملكه، حتى رُوِيَ أنَّ: سائلاً سأله ولم يكن يملك ما يعطيه، فأعطاه ثوبه الذي كان عليه. فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: «ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغلولةً إلى عُنقك ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسطِ فَتقعُدَ ملوماً محسوراً».

(٣) وأمَّا الحِلْم والعفوُّ، فكان أحلمَ النَّاس. ولما فتح مكَّة وفيها أعداؤه الذين عادوه وأخرجوه من داره وأَجْلُوه عن أهله ووطنه ولم يَدَعوا المكر به والاحتيال في قتله وطلب الغوائل عليه، فنادى في أصحابه وأمرهم أن لا يقتلوا أحداً بعد فتح مكة إلاّ أربعة نفر، أمر أن يُقتلوا ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة؛ لأنَّهم استوجبوا ذلك بعظائم كانت منهم، وبقتلهم قوماً من المسلمين غيلةً،

وارتدادهم عن الإسلام. ثم أتاه بعضهم بعدُ تائباً، فعفا عنه وقبل توبته؛ وأخبارهم مشهورة، تركنا إطالة القول بها. ونادى في النَّاس، قبل أن تضع الحرب أوزارها، أنَّ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه على نفسه فهو آمن»؛ وعفا عن أبي سفيان، وكان أكبر أعدائه ومن المحرِّضين على قتله قبل هجرته وعلى قتاله بعد هجرته، وصاحب العير يوم بدر، وصاحب الجمع يوم أُحُد، وفي غيرهما من الغزوات قبل فتح مكة، ومن المنافقين الخاذلين المخذلين عنه يوم حُنين، ومن المنافقين الباذلين أموالهم لمن حاربه، فعفا (ص) عنه وقبل إسلامه ابتغاءَ مرضاة اللَّه وإيثاراً لطاعته فيما أمر به في شأن المنافقين. وعفا عن امرأته هند بنت عتبة وقد بقرت بطن حمزة حين استشهد يوم أُحد، وأكلت كبده، وقالت فيه:

شَفَيْتُ مِنْ حَمزة نَفْسي بِأُحُد حيـنَ بَقَـرتُ بَـطنَهُ عـنِ الـكَـبـد

فأتته مُظهرةً للإسلام بعد فتح مكَّة، وبعد أن كانت تحرِّض النَّاس على القتال يوم فتح مكة، وتشتم أبا سفيان وتوبِّخه حين استأمن وتُقبِّحُ فعله، فعفا عنها بعد أن أظفره اللَّه بها، وقبل إسلامها، وحلم عنها؛ وحمزة عمُّه، وأعزُّ النَّاس عليه، وأسد اللَّه وأسد رسوله. وقبل إسلام وحشيٍّ غلام جبير بن مطعم؛ وهو الذي زرق حمزة بالحربة وقتله؛ فحلم عنه وآثر رضاءَ اللَّه على رضاء نفسه. ولما فُتحت مكّة هرب صفوان بن أميّة، وهو سيد قومه، وكان شديد العداوة لرسول اللَّه (ص)؛ فمضى يريد جدَّة. فقال عُمير بن وهب: يا نبيَّ اللَّه، إنَّ صفوان بن أميَّة قد خرج هارباً ليُغرق نفسه في البحر، فأمِّنْه. قال (ص): «هو آمن»، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكَّة. فخرج عُمير ولحقه، فرجع وقال: يا محمَّد أليس قد أمّنتني؟ قال: نعم. قال: فخيِّرني في نفسي شهرين. قال: «قد خيَّرتك أربعة أشهر»؛ وعفا عن كثير من أعدائه الذين ارتكبوا العظائم؛ حتى قال أبو سفيان: ما رأينا أحلم منك يا رسول اللَّه! وجاءه بعد ذلك قوم من الشُّعراء، قد كانت ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، بعد أن كانوا قد هجوه أقبح هجاء وحرَّضوا عليه بشِعرهم، مثل: عبد اللَّه بن الزِّبعري، مع كثرة أشعاره في هجائه

وشدَّة عداوته وتحريضه عليه. فأتاه معتذراً وهو يقول:

يا رَسولَ المَليكِ إنَّ لساني راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بورُ
إذ أجاري الشيطان في سَنَنِ الـ غيِّ ومَن مالَ مَيلَهُ مَثبورُ
آمَنَ اللَّحْمُ والعظامُ بما قلـ تَ فنفسي الفِدَى وأَنْتَ النَّذيرُ

فقال (ص) له: «قد آمنك اللَّه» وقبل إسلامه وعفا عنه. ومثل كعب بن زُهير الذي كان يهجوه ويؤذيه بهجائه، فأتاه تائباً مسلماً، وقال في شعر له يمدحه ويسأله العفو:

نُبِّئتُ أَنَّ رسولَ اللَّه أوعَدني والعَفوُ عِندَ رسولِ اللَّه مأمولُ

فقال (ص): «قد عفوت عنك» وقبل إسلامه، وكذلك عفا عن شعراء كثيرين كانوا يهجونه ويؤذونه بهجائهم، بما كان الملوك وذوو القدرة يَقتلون بأصغر من ذلك.

(٤) وأمَّا الشَّجاعة، فإنه (ص) غزا بنفسه ثلاث عشرة غزوةً ما ولَّى الدُّبْرَ في شيء منها. ولما اشتدّ القتال يوم أُحد واشتغل كلُّ امرئٍ بنفسه واستحرَّ القتل في النَّاس، صمد له فرسان قريش وتعاقدوا وتحالفوا على قتله واحتوَشوه وحاربوه بكل سلاح حتى رموه بالحجارة. فصبر لهم، حتى شُجَّ في وجهه، وسالت الدماء على لحيته، وغاب من حلق المغفر في جبهته، وأُصيبت رباعيّته، وجرح في شفته؛ وأقبل أُبَيُّ بن خلف، وهو يقول: لا نجوتُ إن نجا محمد؛ وكان يقول بمكَّة: إنَّ لي عُوداً أُعلِّقه وأَضعه، لأقتل عليه محمَّداً. فبلغ ذلك النَّبيَّ (ص) فقال: «أنا أقتله إن شاء اللَّه». فلمَّا أقبل ذلك اليوم، عارضه عليّ (ع) مع قوم من المسلمين، يريدون منعه من رسول اللَّه (ص)؛ فقال (ص) لهم: «خلُّوا سبيله»؛ فبرز إليه وتناول حربة فطعنه بها في فرجة بين البيضة والمغفر في عنقه، فصرعه. ثم نهض أُبيٌّ وانهزم عنه وأتى أصحابه، وهو يخور كما يخور الثَّور؛ فقالوا له: لا بأس عليك، إنَّما هو خدش! فقال: أليس قد قال إنَّه يقتلني؟ واللَّه لو كانت هذه الخدشة بأهل ذي المجاز، لماتوا كلُّهم منها.

ويوم حنين، لمَّا انهزم أصحابه (ص) وذهبوا في كلِّ وجه، وقف في حومة الحرب ومعه عليٌّ (ع) مع نفر يسير من أصحابه، والنِّبال والسِّهام عليه (ص) مثل قطر المطر؛ وهو ينادي: «هلمُّوا إليَّ، أنا محمّد بن عبد اللَّه، أنا محمّد رسول اللَّه»، وما ولَّى حتى أتاه النَّصر مِنَ اللَّه عزَّ وجلَّ. ومقاماته في غزواته وما ظهر من شجاعته، يطول الشَّرح به.

(٥) وأمَّا الوقار والرَّزانة، فإنَّه كان أوقر النَّاس مجلساً، وأعظمهم هَيْبَةً في صدور النَّاس. وكان إذا قعد بين أصحابه، قعدوا حوله كأنَّما على رؤوسهم الطَّيرُ هيبةً له؛ يهابونه هيبة الملوك مع بشاشته بهم وبجميع النَّاس، وحسن خُلُقه؛ فإنَّه كان أحسنَ النَّاس خُلُقاً وخَلْقاً؛ وكان يأمر أصحابه بمحاسن الأخلاق ويحثُّهم على ذلك، ويقول: «أقربُكم إلى إللَّه أحسنُكم خُلُقاً»، وقال: «إنَّ العبد ليبلغ بحسن الخُلُق درجة الصَّائم القائم»، وقال: «ليس عمل في الميزان أثقل من حسن الخُلُق».

(٦) وما رُوِي عنه نحو هذا كثير ممَّا كان يأمر به ويحثُّ عليه. وكان لا يطرب ولا يمزح، ولا يطيش ولا يبطش في فرح ولا غضب. وترِد عليه الأُمور العظيمة البشارة، فلا يستخفُّ لها، وكان جلُّ غضبه أن تحمرَّ وجنتاه، فيملك نفسه، ويدرُّ العرق من عِرْق بين عينيه، فلا يتزعزع، ولا يبطش بيد ولا لسان؛ وما رئي قطُّ قهقه واستغرب في ضحك، وكان جلُّ ضحكه التَّبسُّم. وكانت ترد عليه الأمور العظيمة التي يمتحن بها، فلا يتزعزع لها، بل كان يظهر الوقار الشَّديد والرَّكانة، ويحتسب ويحمل الصَّبر؛ حتى أمر اللَّه عزَّ وجلَّ أُمَّته أن يتأَسَّوا به في الذي ينوبهم من مِحَن الدُّنيا، وأن يتأدَّبوا بأدبه، فقال جلَّ ذكره: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللَّهِ أُسوَةٌ حسنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللَّهَ واليَوْمَ الآخِرَ».

(٧) وأمَّا الوفاءِ، فإنَّه كان أوفى النَّاس بعهد وذمَّة، وأوكدهم حرمة. قد كان بعث خالداً بن وليد إلى بني جَذِيمَةَ، ولم يبعثه مقاتلاً بل بعثه داعياً؛ فأجابوه إلى الإسلام. وكانت بين خالد وبين القوم ترة في الجاهلية، فقال لهم: ضعوا

سلاحكم. فلمّا وضعوا السلاح، كتَّفهم وعرضهم على السَّيف. فلما انتهى خبرهم إلى النبي (ص) رفع يديه إلى السَّماء، وقال: «ألَلَّهُمَّ إنِّي أبرأُ إليك ممَّا صنع خالد» . وزعم خالد أنَّه لم يقتلهم حتى امتنعوا من الإسلام. فبعث رسول اللَّه (ص) علياً (ع) وبعث معه مالاً، وقال: «اجعل أمر الجاهليَّة تحت قدميك»؛ فخرج إليهم وودَى الدِّماء والأموال، حتى وداهم ميلغة الكلب، وبقيت معه بقيَّة من المال، فقال: هل بقي لكم دم أو مال؟ قالوا: لا. قال: فهذه البقيَّة لكم احتياطاً لرسول اللَّه (ص) ممّا لا أعلم وممّا لا تعلمون. فلمَّا رجع، قال له النبي (ص): «أحسنت وأصبت».

وكانت بينه وبين العرب هدنة بعد فتح مكَّة، أن لا يُمنعوا عن البيت وأن لا يُخافوا. فنزلت سورة «براءة» وأمره اللَّه أن يُرَدَّ إليهم عهدهم؛ فدفع الآيات من أول سورة براءة إلى أبي بكر، وبعثه إلى الموسم، وأمره أن يقرأها على النَّاس. فنزل جبرائيل (ع) وقال له: «إنَّه لا يبلِّغها إلاَّ أنت أو رجل منك». فبعث علياً (ع) فأخذ الصحيفة من أبي بكر بعد أن لحقه في طريقه، ومضى. فلمَّا وافى «مِنى» يوم النَّحر، أذَّن في النَّاس حتى اجتمعوا، فقرأها، وردَّ إليهم عهدهم: أن لا يحجَّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان؛ ومن كان له عند رسول اللَّه عهد أو ذمّة، فهو إلى مدّة أربعة أشهر، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم من بلادهم، ثم لا عهد بعد ذلك لمشرك، إلاَّ من كان له عهد عند رسول اللَّه (ص) إلى أَجَل معلوم، فعلى رسول اللَّه الوفاء بذلك. فلو شاء أن يكابرهم قبل أن يرجعوا إلى ديارهم، ويُوْقِع بهم، لفعل؛ ولكنَّه أراد أن يفي بذمَّتهم، ولم يغزهم في ديارهم ولم يرعبهم حتى أخذوا حذرهم، وفاءً بعهدهم واجتناباً للخديعة والمكر بهم.

(٨) وأمَّا التَّواضع، فإنَّه (ص) مع رفيع منزلته وهيبته في صدور النَّاس، كان يبدر من لقي بالسَّلام؛ وكان لا يتقدَّم أصحابه إذا مشى؛ ويقف للصَّغير والكبير، والغنيِّ والفقير، والنِّساء والرِّجال؛ ولا ينصرف عمَّن يقف له حتى ينصرف عنه صاحبه؛ ولا يقوم في مجلسه عن جليسه، حتى يقوم عنه؛ ويقعد حيث ينتهي به المجلس؛ وكان الفقير والضعيف أقرب إليه من الغنيِّ والقويِّ حتى إنَّه رُئِي واقفاً

على عجوزٍ حتَّى أعيا. فقيل له: يا رسول اللّه أطلت الوقوف على هذه المرأة! فقال: «إنَّها عجوز كانت تأتينا أيَّام خديجة، وإنَّ حُسن العهد من الإيمان». وفي حديث آخر: أنَّه بسط لها رداءه، وقال: «إنَّ هذه من صدائق خديجة وإنَّ حُسن العهد من الإيمان». وفي حديث آخر: أنَّ خالته من الرِّضاعة أتته فبسط لها رداءه. وكان يأكل على الأرض ويقول: «إنَّما أنا عبد آكل كما يأكل العبد». وكان لا يذمُّ ذواقاً ولا يمدحه. فهذه أخلاقه، ذكرنا منها على الاختصار، ولو شرحنا محاسنها لطال الوصف بها.

(٩) وأمَّا خَلْقه في اعتداله وحُسن صورته وجماله التي يحكم بها أصحاب الفراسة ويستدلُّون بها على تمام عقل الإنسان، فإنَّه كان مشتهراً بالجمال واعتدال الصُّورة، وكان معتدل القامة، أطول من المربوع وأقصر من المشذَّب، عظيم الهامة، رجل الشَّعر، واسع الجبين، أزجَّ الحواجب سوابغ في غير قرن، أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشمَّ، كثَّ اللِّحية، سهل الخدَّين، ضليع الفم، أشنب، مفلَّج الأسنان، كان يفترُّ عن مثل حبِّ الغمام، واسع الصّدر، بعيد ما بين المنكبين، طويل الزَّندين، رحب الرَّاحة، سبط القصب، سائل الأطراف، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السَّماء، لا يسارق النَّظر ولا يلاحِظ، بل كان يلتفت جمعاً، ولا ينظر شَزَراً نظرَ المسارق ونظرَ التَّعادي؛ لأنَّ الذي ينظر شزراً، يكون متجسساً أو مُضمِراً حقداً، فتنزَّه عن هذه الخليقة المذمومة، وصان نفسه عنها؛ فكان إذا التفت، يلتفت جمعاً.

وإن ذكرنا صفة خلْقته المستحسَنة الجامعة لكلِّ جمال، طال شرحها. وذكرنا هذا المقدار، مختصَراً من الذي رُوي عن ربيبه هند بن أبي هالة التَّميميِّ، وكان أوصف النَّاس له، لأنَّه نشأ في حجره. فرُويت عنه صفة حليته، وأخذها عنه النَّاس، لم ينكروا شيئاً ممَّا قاله، لأنَّهم شاهدوه (ص) ووجدوه (ص) بهذه الصِّفة. هذا، دون ما وصفته به أُمُّ معبد لزوجها، لمّا نزل عندها وحلب شاةً حائلاً حتَّى درَّت باللَّبن؛ ودون ما وصفه به غيرها من الخِلَق الجميلة.

(١٠) وذكرنا ذلك، لأنَّ الفلاسفة يحكمون بالفَراسة، ويستدلُّون بمثل هذه الصِّفة على عقل الإنسان وكماله. فمَن الذي وُجد في العالم وذُكر أجمعُ منه لهذه الخصال؟ لأنَّ من ذُكر بالأمانة والصِّدق، كان منفرداً بتلك دون غيرها من الخصال؛ وكذلك من ذُكر بالسَّخاءِ أو بالحِلْم أو بالشَّجاعة أو بالوفاء أو بغير ذلك، كان ينفرد بتلك الخصلة دون غيرها. فكان (ص) قد برع النَّاس وفاقهم أجمعين، في جميع هذه الخصال؛ حتى لا يقاومه أحد، ولا يُذكر له في العالم نظير قد جمع هذه الأخلاق والخِلَق.

(١١) ثم كان أنضرَ الناس عُوداً، وأعلاهم شرفاً وأفخرهم منصباً. شعبه أفضل الشُّعوب، وقبيلته أفضل القبائل، وعشيرته أفضل العشائر. قد ولده الأنبياء والرُّسل: آدم وشيث ونوح وسام وإبراهيم وإسماعيل (ع). ثم ولده كِرام النَّاس وكِرام العرب، ثم كِرام مضر، ثم كرام كنانة، ثم كرام قريش، ثم كرام بني هاشم. ومناقب أجداده ظاهرة، وكرائم أخلاقهم مذكورة في الزَّمن الأوَّل:

(١٢) كان مضر أفضل عدنان، وكان يفك العاني، ويطعم الطَّعام. وكان كنانة أفضل مضر، وكان يأنف أن يأكل وحده؛ فإذا لم يجد من يأكل معه، أكل لقمة ورمى بلقمة إلى صخرة قد نصبها بين يديه، أنفةَ من أن يأكل وحده. وكان قريش قد فاق العرب بأصالة رأيه وتدبيره. وكان قُصيٌّ أفضل قريش، واسمه «زيد» وسُمِّي «مجمعاً» لأنَّه جمع قبائل قريش، وأنزلها مكَّة؛ وفيه يقول القائل:

أبوكُمْ قُصيٌّ كان يُدْعَى مَجْمعاً   بِهِ جَمّعَ اللَّهُ القَبائلَ مِنْ فَهْرِ

وكان هاشم أفضل قريش واسمه «عمرو» فسُمِّي هاشماً، لأنَّه كان يهشم الثريد ويطعم الحاجَّ والنَّاس، وكان يقعد على كرسيٍّ من ساسم ويختصر بقضيب من خيزران، وجزور تُنحر، وأخرى تُطبَخ، وأخرى تساق لتُنحَر، ومناديه ينادي: يا وفد اللَّه هلمُّوا إلى الغداء، وآخر ينادي: ألا من تغدَّى فليرح للعشاء. وأمَّا عبد المطلب فكان حكمهم، ومفزعهم في النَّوائب، وموئلهم في الأمور، وكان يرفع من مائدته في رؤوس الجبال للطَّير، ويُطعم الحجيج ويسقيهم، وسوطه

للسَّفيه قائم، وكان يقال له «شَيْبَة الحمد»؛ وأجدبت قريش فاستسقت به؛ فوضع عبد المطلب رسول اللَّه (ص) على عاتقه وهو يومئذٍ طفل وارتقى أبا قبيس، وأقبلت قريش تدفُّ حوله، وطافوا به وهو يدعو؛ فما راحوا حتى انفجرت السَّماء بمائها وسالت الأودية، وقريش تقول: هنيئاً لك يا أبا البطحاء، بك عاش النَّاس. وقال فيه شاعرهم:

بِشَيْبةِ الحَمْدِ أَسْقَى اللَّهُ بَلْدتَنَا وقد فَقَدْنا الحَيَا واجْلَوَّذَ المَطَرُ
مُبارَكُ الوجهِ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بِهِ مَا فـي الأَنـامِ لَـهُ عِـدْلٌ ولاَ خَـطَرُ

(١٣) وأمَّا عبد اللَّه، فكانت غرَّة رسول اللَّه (ص) ظاهرة بين عينيه؛ ورأته امرأة، فعرفت أنَّ لتلك الغرَّة شأناً، فراودته عن نفسه؛ فعصمه اللَّه، ودخل على آمنة بنت وهب امرأته، فواقعها؛ فحملت برسول اللَّه (ص)، وتحوَّلت تلك الغرَّة إلى وجهها. ثم لقيته المرأة بعد ذلك، فقال كالمجرِّب لها: هل لكِ فيما قلتِ لي؟ فقالت: قد كان ذلك مرَّة فاليوم لا. فصار ذلك مثلاً. وكانت له من اللَّه عصمة، وكان رسول اللَّه (ص) يقول: «نُقلتُ من طُهرٍ إلى طُهرٍ ما مسَّني سِفاح الجاهليّة».

(١٤) فهذه صفته (ص) وأخلاقه المشهورة، وخلقته الطَّاهرة، وفخره الباذخ؛ ولا يدفع ذلك إلاَّ مباهت؛ لأنَّ قريشاً والعرب وسائر الأُمم الذين شاهدوه، عرفوه بذلك، واعترفوا به؛ فهو (ص) جمع هذه الخصال كلَّها، وفاق النَّاس أجمعين فيها؛ وحقَّ له أن يكون كذلك، وقد اختاره اللَّه عزَّ وجلَّ من جميع ولد آدم من أوَّل الدهر إلى آخره، وفضَّله عليهم أجمعين، وأعطاه من القوَّة الشَّديدة والنُّصرة الظَّاهرة والغلبة القاهرة والمُلك العالي على جميع الممالك في الدُّنيا، ما لم يعطه أحداً من عباده؛ ومضى (ص) من الدُّنيا، وقوَّته باقية في العالم، تزداد على مرِّ الأيَّام؛ وما أعدَّ اللَّه في آخرته، فأكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

(١٥) فإن قال قائل: إنّه قد كان في الدُّنيا من كان أشدَّ قوَّةً في مُلكه وسلطانه، وأظْهَرَ غلبةً، مثل الإسكندر وغيره من ملوك الأرض، قلنا: هؤلاء ملكوا في عصرهم وغَلَبوا في دهرهم، فلمَّا ماتوا، زال ذلك عنهم؛ ورَسْمُ محمد

(ص) باق إلى الأبد، وعزُّه وشرفه متَّصلان بالقيامة. وكذلك كان سبيل موسى وعيسى (ع) وإن لم يبلغا منزلة محمَّدٍ (ص) فإنَّهما جمعا الخصال الجميلة، وكان كل واحد منهما أكمل أهل زمانه، وأجمعهم لكلِّ أمر يحتاج إليه الإمام في سياسة النَّاس ديناً ودنيا، كما ظهر في موسى من الأفعال العظيمة والآيات العجيبة. وإن كان الملحدون ينكرونها، فإنَّهم لا يقدرون على أن يطعنوا في عقله، واستحكام فَهمه، وحُسن تمييزه، وكمال تدبيره؛ لأنَّ أفعاله العظيمة، التي كانت منه، لا تتم إلاً لكامل عقل مؤيد حازم: فإنَّه خرج من مصر وأنقذ بني إسرائيل من عبوديَّة فرعون، وهم ستُّمائة ألف رجل بالغ سوى النّساء والذَّراري، بما أعطاه اللَّه من القوَّة ولطف له من التدبير، وعبر بهم البحر، فاتَّبعهم فرعون بجنوده، حتَّى كان من أمره ما كان. ثم ساسهم أربعين عاماً في المهامه والقفار تلك السيّاسةَ العجيبةَ، مع تلوّنهم والتياثهم عليه ومع ما امتُحن به من أمور عظيمة كانت منهم. فقدموه مع ذلك كله على أنفسهم، وملك ذلك الجمع العظيم، وأقام فيهم الأمر والنَّهي، وأقرُّوا له بالنُّبوَّة لما رأوا منه من الآيات. وكان هارون أخوه أكبر سنّاً منه، وكان وجيهاً فيهم مبجَّلاً عندهم عظيماً في صدورهم، فقدَّموا موسى (ع) عليه، لتقديم اللَّه عزَّ وجلَّ إيّاه بالنُّبوَّة.

(١٦) فإن أنكر الملحدون نبوَّته، وقالوا: إن ذلك بحيلته ودولته، قلنا: فإن أنكرتم نبوَّته، فهل تنكرون عقله؟ وهل يجوز أنَّ ذلك الجمع العظيم من بني إسرائيل قدَّموه وانقادوا له إلاً لفضلٍ كان فيه، وقوّة عظيمة، وكمال رأي، ووفور عقل؟ وأن من يجوّز حيله على ذلك الخلق الكثير حتى يملك رقابهم ويجعلهم تحت طاعته ويقرُّوا له بالنُّبوَّةِ، لا يجوز أن يكون مطعوناً عليه في عقله وكماله وفضله؟ ولا يجوز أن يقدِّموا على أنفسهم معتوهاً ناقصاً مجنوناً، من غير جدوى ينالونها منه من أعراض الدنيا. ولا يوجب المعقول أنَّهم قدَّموه إلاً لما ذكرنا من الآيات التي ظهرت منه، والأمور العظيمة التي شاهدوها منه وعاينوها. وإن جحد الملحدون تلك الآيات التي دلَّت على نبوته، فلكماله وحسن تدبيره ولطفه في السيّاسة.

(١٧) وهكذا كان أمر المسيح (ع) حين ظهر بالنبوة، وأظهر تلك الجرائح، وجال في كور فلسطين والأردن والشَّام، وظهرت منه تلك الأسباب العظيمة من إحياء الموتى، وإبراء ذوي العاهات والمؤوفين، والدلائل الكثيرة. فإن أنكر الملحدون وقالوا: إنَّ ذلك لم يكن، فلا يقدرون أن يدفعوا ما شرّعه لحوارييه الذين عُرفوا أيضاً بالكمال والفضل والقوَّة التي جمعوا بها النَّاس على قبول شرائعه وآثاره، فهل قدروا مع تفرُّقهم في بلدان شتَّى وكور متباينة على إقامة دعوته وبسط شرائعه وترسيم آثاره، إلاَّ بآيات كاملة؟ وهل تبعوا المسيح مع كمالهم، إلاَّ لمعرفتهم بفضله؟ فإن كانوا ينكرون أنَّهم اتَّبعوه لما رأوا منه الآيات، فلا يقدرون أن ينكروا عقولهم وأفهامهم وحُسن تمييزهم؛ فإنّه لا يقدر على إقامة مثل تلك الدَّعوة إلاَّ المجانين ومَن لا عقول لهم ولا أفهام.

فمن أنكر ما ذكرنا في شأن مُحمَّدٍ (ص) وموسى وعيسى (ع) من الكمال في عقولهم وأفهامهم وجمعهم الخصالَ الحميدة التي تكون في الأئمَّة والرُّؤساء، وما كانوا عليه من حُسن التَّدبير والسِّياسة، وإن كان منكراً لنبوَّتهم، فهو معاند مكابر دافع للعيان؛ فإنَّ هذه الأسباب لا تعزب عن أفهام النَّاس من المخالفين والمؤالفين؛ وهم يشاهدونها بعقولهم، وإن كانت أموراً قد انقضت.

(١٨) وإذا كان الإمام بالصِّفة التي وُصف بها هؤلاء الرُّسل (ع) من البراعة والعقول التَّامة، فلا يجوز أن لا يعقل أحدهم ما يتكلَّم به، وأن يخفى عليه من تناقض كلامه واستحالته، ما يعرفه غيره مثل الملحد وأشباهه. فهلاً تدبَّر الملحد هذا الشأن، وهلاً علم أنَّ أمثال هؤلاء (ع) لم يخْفَ عليهم ما ادّعاه الملحد من التَّناقض في كلامهم، والاختلاف في رسومهم، ومخالفة بعضهم لبعض في شرائعهم وفي كتبهم والأخبار التي رُويت عنهم؛ أفتراهم كانوا لا يميِّزون ما يقولون، ولا يعرفون منه مقدار ما عرفه الملحد حين قال: الآن ننظر في كلام القوم وتناقضه؟ فهلاً تدبَّر هذه الحال، وتأمَّل ما كانوا عليه من الكمال، وجمعهم لكل محمود من الخصال؛ وهلاً حكم في كلامهم حسب ما ادَّعوه من ضرب الأمثال؟!

وإنما ذكرنا هذه الصِّفات التي كانت فيهم، ليعرف العاقل المميِّز المُنصِف أنَّ أمثالهم في العقول التَّامة والأفهام الكاملة؛ ومع هذه الأسباب العظيمة التي كانت منهم والخصال الجميلة التي كانت فيهم، لا يجوز لأحد أن يحكم عليهم أنّهم تكلَّموا بكلام متناقض، ورسموا رسوماً متناقضةً، وهم لا يعقلون ما يقولون ويفعلون؛ بل يجب أن يتدبَّر أمرهم، ويطلب العلَّة الموجبة لعذرهم، فيعرف الهدى من الضَّلال؛ فليس من الدِّين عوض، ولا عن اللَّه مهرب، ولا بعد الموت مستعتب، ولا مأوى بعد هذه الدَّار إلاّ الجنَّة أو النَّار.

الفصل الثالث

في كلام الأنبياء ورسومهم

(١) الآن، نذكر صدراً من كلام الأنبياءِ (ع) ورسومهم، وما نطقت به كتبهم وادّعوه فيها، أنّهم يضربون الأمثال التي تختلف ألفاظها، وتتّفق معانيها؛ وما دلُّوا عليه، وأمروا به من البحث عن معاني كلامهم المرموز، ليتَّضح عدلُهم ويظهر صدقُهم؛ فيزول ما يدَّعيه الملحدون عليهم من اختلافهم وتناقض كلامهم إن شاء اللَّه تعالى:

رُوي عن النَّبيِّ (ص) أنَّه قال:

ضرب اللَّه مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتَي الصِّراط سور، وفي السُّور أبواب مفتَّحة، وعلى تلك الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصِّراط داعٍ يقول: ادخلوا الصِّراط ولا تعرجوا.

قال:

فالصِّراط هو الإسلام، والأبواب المفتَّحة محارم اللَّه، والسُّتور حدود اللَّه، والدَّاعي القرآن. فهكذا سبيل المثل والمعنى. وما جاء في القرآن العظيم أبلغ وأوجز:

(٢) قال اللَّه عزَّ وجلَّ:

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيلُ زَبَداً رابِياً ومِمَّا يُوقِدونَ عليهِ في النَّارِ ابْتغاءَ حِلَيةٍ أَو مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِك يَضْرِبُ

اللَّه الحَقَّ والبَاطِلَ فأَمَّا الزبَدُ فَيذْهَبُ جُفاءً وَأمَّا ما ينفَعُ الناسَ فَيمكثُ في الأرَضِ كَذِلك يضربُ اللَّه الأمثال.

قال أهل التَّفسير: شبّه علوم الأنبياء وما أنزل اللَّه من الوحي بماء ينزل من السَّماءِ؛ ومما يوقدون عليه في النَّار يعني: الذَّهب والفضَّة وغير ذلك من الجواهر، شبهه بالإيمان وأهله؛ والزَّبد الذي يذهب جفاء، شبّهه بالكفر وأهله؛ يعني: أنَّ أعمال المؤمنين تبقى وتحصل يوم القيامة، وأعمال الكفَّار تبطل ولا تنفع. وذكرنا من معنى هذا المثل مقدار ما ذكروه في تفسيره. وقال اللَّه عزَّ وجلَّ: «وَلَقَد صرَّفنا للنَّاسِ فِي هَذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ كَفُوراً»؛ وقال في آية أخرى: «وَلَقَد صَرَّفنا في هذا القرآنِ للنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثلٍ وَكَانَ الإنسانُ أكثَرَ شيءٍ جَدَلاً»؛ وقال اللَّه عزَّ وجلَّ: «إِنَّ اللَّه لا يستَحيي أن يَضْرِبَ مثلاً ما بَعُوضةً فما فَوقَها فَأَمَّا الذين آمَنُوا فيعلمون أَنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّهم وأَمَّا الَّذينَ كَفَروا فَيَقُولُون ماذا أراد اللَّه بِهذا مثلاً يُضِلُّ بِهِ كثيراً وَيَهْدِي بِه كثيراً وما يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقين».

وإِنَّما أَنزل اللَّه عزَّ وجلَّ هذه الآية لمَّا قال المشركون: ما هذه الأمثال التي يذكرها مُحمَّد ويضربها بالذُّباب والعنكبوت وغير ذلك، فعندها أنزل اللَّه عزَّ وجلَّ هذه الآية؛ وأعلمنا أنَّ الذين آمنوا يعلمون ما في الأمثال من الحق، والذين كفروا يجهلون ذلك، فيهتدي بها كثير من الناس الذين يعرفون حقائقها ويضلّ بها الفاسقون.

(٣) وقال عزَّ وجلَّ في صفة النَّار:

عَلَيها تِسْعَةَ عَشَرَ وما جَعَلنا أصحابَ النَّارِ إلاَّ مَلائِكَةً وما جَعَلنا عدَّتَهُمْ إلاَّ فتنةً لِلَّذِين كفَروا لِيَستيقن الَّذين أُوتُوا الكِتابَ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أُوتُوا الكِتاب والمؤمِنُونَ ولِيَقُولَ الَّذِينَ في قُلُوبهم مَرَضٌ والكافِرُونَ ماذا أراد اللَّه بِهذا مثلاً كَذَلك يضلُّ اللَّه مَنْ يَشاءُ ويهدي من يشاء.

وقال عزَّ وجلَّ: وتلكَ الأمثال نَضرِبُها للنَّاسِ ومَا يَعقلُها إلاَّ العَالمون».

وروينا عن بعض أئمتنا الصادقين (ع) أنَّه قال لبعض أصحابه: انظرْ أن لا تمرَّ بك آية من كتاب اللَّه إلاَّ وأنت تعرف معناها أو تحبّ أن تعلمه، لتكون عالماً أو متعلِّماً؛ فإن اللَّه يقول: «وَتِلْكَ الأمثال نضربها للنَّاس وما يعقلها إلاَّ العالمون». وقال عزَّ وجلَّ: «قُلْ هُو للَّذين آمنوا هُدىً وشفاءٌ والَّذين لا يُؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عَلَيْهِمْ عَمَىً أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مكانٍ بَعيدٍ»، يعني: أنَّ الذين آمنوا قد علموا أنَّها أمثال، وعرفوا منه ما عرفوا، وسلَّموا فيما لم يعرفوا؛ وأنَّ الذين لا يعرفون ذلك يعمون فيه، وينادون من مكان بعيد، لأنّهم لا يعرفون معانيه.

(٤) وأخبَرَنا عزَّ وجلَّ: أنَّ الأنبياء الذين مضوا ضربوا لقومهم الأمثال؛ فهلك من هلك، لأنهم جهلوا معانيها فكذَّبوا الرُّسُلَ؛ وكان سبيلهم في جهلهم بتلك المعاني سبيل الملحد حين جهل هذا الباب، وظنَّ بالأنبياء الكذبَ والاختلاف، فقدَّر في كلامهم الاختلاف والتَّناقض. قال اللَّه عزَّ وجلَّ: «وَعَاداً وَثَمُودَ وأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بينَ ذَلِكَ كَثيراً وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأمثالَ وَكُلاً تَبرَّنا تَتبيراً». فدلَّ ذلك على أنّهم هلكوا حين ضُربت لهم الأمثال فجهلوا معانيها وضلُّوا. فهذا ما في القرآن، وفيه أمثال كثيرة يطول الشَّرح بها.

(٥) ومثل ذلك في سائر كتب الأنبياء (ع): في الإنجيل، في بشرى متَّى: هذا كلام تكلم به يسوع بالأمثال، ولم يكن يكلمهم بغير الأمثال، ليتمَّ ما قيل على لسان النبي الذي قال: أفتح فمي بالأمثال، وأعلم السرائر التي كانت من قبل أنْ وُضع أساسُ الدُّنيا. وفيه أيضاً مَثَلٌ ضربه عيسى (ع) وقال بعد ذلك: فدنا منه تلاميذه وقالوا له: ما بالك تكلِّمهم بالأمثال؟ فقال لهم: أنتم أعطيتم سرَّ ملكوت السَّماء، فأمَّا أولئك فلم يعطوا. من كان له فإنه يعطى ويزاد، ومن لم يكن له، فإنَّه مهما كان له، يؤخذ منه أيضاً؛ لذلك أكلِّمهم بالأمثال، لأنَّهم يُبصرون الحقَّ، فيعمون أبصارهم، ويسمعون ثم لا يعقلون ولا يفقهون؛ فأمَّا أنتم فطوبى لأعينكم التي ترى وآذانكم التي تسمع. ومثل هذا في القرآن، قال اللَّه عزَّ وجلَّ:

«لاَ يفقَهُون بِها وَلَهُمْ أَعينٌ لا يُبْصِرُون بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أولئك كَالأَنْعام بَلْ هُمْ أَضلُّ أُولئكَ هُم الغَافِلُونَ»، يعني بهذا: أنَّ من سمع القرآن ولم يَعْقِل الأَمثال التي ضُربت فيه، فهو بهذه المنزلة.

(٦) وفي بشرى مارقوس: أنَّ المسيح ضرب للحواريِّين مثلاً، ثم قال لهم أنتم أُعطيتم أن تعلموا سرَّ ملكوت السَّماء، فأمّا الغرباء فإنَّهم يكلَّمون بالأمثال، لكيما إذا رأوا لم يروا، وإذا سمعوا لم يسمعوا ولم يفهموا، لعلهم يرجعون، فتُغفر لهم خطاياهم؛ أما يحسنون هذا المثل، فكيف إذا تعلَّموا جميع الأمثال. ويقول فيه أيضاً بعد مثل ضربه لهم، ثم قال: بمثل هذه الأمثال جعل يكلّمهم يسوع، ولم يكن يكلمهم بغير أمثال، وكان يفسر لتلاميذه جميع الأشياء بينه وبينهم. ومن الأمثال التي ضربها وفسَّرها لهم، قال:

إنَّ الزَّرَّاع خرج ليزرع، فلمَّا زرع، منه ما سقط في جادَّة الطَّريق، فجاءه الطير فلقطه؛ ومنه ما سقط على الصَّخر حيث لم يكن طين كثير، فنبت من ساعته، لأنَّه لم يكن له قعر في الأرض، فلما طلعت عليه الشمس ذوى لأنه لم يكن له أصل في الأرض، فيبس؛ ومنه ما سقط بين الشّوك، فارتفع الشّوك فخنقه؛ ومنه ما سقط في الأرض الصَّالحة وربا، فمنه ما خرج مائة ضعف، ومنه ستون، ومنه ثلاثون. من كان له أذنان سامعتان فليسمع.

ثم فسر لهم هذا المثل فقال:

الزّرع، مثل من سمع كلام الملكوت فلم يفهمه، يأتيه الشيطان فيختطف الكلمة التي زُرعت في قلبه، وهو الزَّرع على جادَّة الطَّريق؛ والزَّرع على الصّفا، هو الذي يسمع الكلمة فيقبلها من ساعته فرحاً، وليس له فيها أصل، بل إنَّما هي إلى حين قليل، فإذا كان ضُرٌّ أو مشقّة من أجل تلك الكلمة، كفر وشيكاً؛ والذي زرع بين الشَّوك، فهو الَّذي يسمع الكلمة، فتأتي هُموم الدُّنيا وفتنة الغنى، فتخنق الكلمة، فتصير لا

ثمرة لها؛ وأمَّا الزَّرع الذي في الأرض الصَّالحة، فهو الَّذي يسمع الكلمة فيعيها، ويثمّرها، منه مائة ضعف ومنه ستون ومنه ثلاثون.

(٧) وتمثَّل مثلاً آخر، فقال:

يشبه ملكوتُ السَّماء رجلاً زرع في قريته زرعاً صالحاً، فلمَّا رقد النَّاس جاء عدو له، فزرع زُواناً بين الحنطة وذهب، فلما نشأ الزَّرع وأثمر، طلع الزّوان بين الزَّرع؛ ثم إن عبيد صاحب القرية قالوا: يا سيدنا، أليس إنّما زرعتَ زرعاً صالحاً، فمن أين صار فيه هذا الزّوان؟ هو بحق قال لهم: دخل عدوّ وفعل هذا. قالوا له: أيسرُّك أن ننطلق ونلقطه؟ هو بحق قال لهم: لعلكم مع لقطكم الزّوان، تقلعون معه الحنطة، ولكن دعوهما حتى ينبتا جميعاً، حتى يبلغ الحصاد. فإذا كان الحصاد، قلتُ للحَصَدة: القطوا الزُّوان واحزموه حزماً ليُحرق بالنار، وأمَّا الحنطة فاجمعوها إلى أهرائي.

قالوا له: فسِّر لنا المثل، فأجابهم:

إن الذي زرع الزَّرع الصَّالح هو ابن البشر؛ والقرية هي العالم؛ والزَّرع الصَّالح بنو الملكوت؛ والزُّوان هم بنو طاعة الشَّيطان؛ والعدو الذي زرع الزُّوان هو الشَّيطان؛ والحصاد هو فناء العالم؛ والحَصَدة هم الملائكة. وكما أنَّ الزّوان يلقط ويُحرَق بالنَّار، كذلك يكون في منتهى العالم، يرسل اللَّهُ ملائكتَه، فيلقطون من ملكوته جميع الفتَّانين والأثمَة، فيلقونهم في أتون النَّار؛ ثم يكون البكاء وصرير الأسنان.

فعلى هذا الأمثال التي هي في الإنجيل؛ وهي كثيرة.

(٨) ونحو هذا في سائر كتب الأنبياء: في كتاب هوشع، ما هو مفسَّر من الأمثال:

اسمعوا قول الربَّ يا بني إسرائيل، إنَّ للرّبِّ حكومة مع سكّان الأرض لعدم البِر والقسط، وعدم المعرفة باللَّه في الأرض، ولما كثر من

اللّعن والكذب والقتل والسَّرق والسِّفاح في الأرض، ولأنّهم خلطوا الدَّم بالدَّم؛ لذلك تئنُّ الأرض وترثي، وينوح جميع سكانها وحيوان القفار وطير السَّماء، ويهلك سمك البحر.

وقال في تفسير هذا المثل:

يعني بالحيوان الملوكَ، والطير الكهنةَ، وبالسّمك سائرَ الشَّعب.

وظاهر هذا المثل لا يوجب أن يُهلك اللّهُ عزَّ وجلَّ، بذنوب بني آدم التي ذكرها، الحيوانَ والطير والسَّمك.

ولو أنّ ناظراً في هذا الكلام عمد إلى ظاهر ألفاظه لَعَابَهُ، وقال: كيف يُهلك اللّه عزَّ وجلَّ الحيوان والطير والسَّمك بذنوب البشر؟ أو كيف ذكر السَّمك والطَّير مع ذكره الحيوان، وهما من الحيوان؟ ولكان له في ذلك مقال، لو كان ظاهراً لا معنى تحته. فلمَّا فسره وردّه إلى المعنى، زال عنه عيب الجُهال.

(٩) وفي كتاب يوئيل النَّبيِّ (ع) يقول: ما أبقى الجندب أكَلَه الجراد الطَّائر، وما أبقى الجراد الطَّائر أكله الدُّبى، وما فضل عن الدُّبى أكله الصُّرصر. وقال في تفسيره: يعني بالجندب تغلث فلاسر ملك الموصل، وبالجراد شلمنأصرَّ ملك الموصل، وبالدّبى سنحاريب ابن ملك الموصل، والصرصر نبوخذ نصّر.

(١٠) وفي كتاب أشعياء أنَّ الرَّبَّ يتعزَّر على صنوبر لبنان المستعلية الشَّامخة وعلى جميع شجر البلّوط الذي بأرض باشان وعلى جميع الجبال الرّواسي، وعلى كلِّ هضبة منيعة، وعلى كل سور منيع، وعلى جميع سفن تارشيش، وعلى كل منظرة رائعة. وقال في تفسيره: يعني بالصنوبر وشجر البلُّوط الأكابر والأصاغر من الملوك؛ وكذلك بالجبال الرّواسي والهضبات المنيعة، يعني بها ملوكاً ثبت ملكهم وامتنعوا.

وفيه أيضاً قال الرَّبّ:

أطلق الرُّسل السِّراع إلى شعب مخوف ومستأصل الذي أخربت الأنهار أرضه، فيجفّ الماء من البحر وتخرب الأنهار ويقطع الزلُّ

بالمنجل ويجور القضيب فيها وينقضي، لأنَّ الشعب لم يقبل حتى عوقب وأهلك الربّ من بني إسرائيل الرأس والذنب في يوم واحد.

وقال في تفسيره:

عني بالشعب المنتجبة، وبالبحر فرعون، وبالأنهار قواده، وبالزُّل أغنياء الحبشة، وبالقضيب ملك بابل، وبالرأس الشيخ البهي الوجه، والذَّنب النبي الذي يعلِّم الزور.

(١١) وفي كتاب حبقُّوق:

إنما أضرب الأمثال وأقول الأوابد، والذي يعقل يعرف هذه المقالات، ويعلم أنَّ طرق الرب معتدلة، يسير الأبرار فيها سيراً صالحاً، والأثمة يعثرون فيها.

يعني:

أنَّ مَن عَلِم معاني الأمثال من كلام الأنبياء هو من الأبرار، فعرف مرادهم وجرى على سُننهم بالعدل والصدق وكان صالحاً. ومن جهل ذلك عثر، فلم يصدّق الأنبياء ونسبهم إلى الكذب، فكان بمنزلة من يعثر في طريقه، كفعل الملحدين الضالين.

(١٢) وفي كتاب صفينا، قال الرَّبّ: إني أزيل كلاً عن وجه الأرض، زوالاً أُزيل البهائم وطير السَّماء وسمك البحر. وقال في تفسيره: يعني بالبهائم وطير السَّماء الظالمين الذين كانوا يجتمعون على المساكين، وبالسمك سائر الشعب.

(١٣) وفي كتاب ناحوم النَّبيّ: يكون أثر عقاب اللّه كالغبار، وييبس البحر وتخرب الأنهار كلُّها. وقال في تفسيره: يعني بالبحر ملك الموصل، وبالأنهار قوّاده.

وفي كتاب بولس المقدَّم عند النَّصارى الذي يسمونه الرسول الصَّالح، في رسالته إلى تيموثاوس أنَّ البيت العظيم ليس تكون فيه أواني الخشب والفخّار أيضاً، منها للكرامة ومنها للهوان. وقال في تفسيره: يعني الدنيا وما فيها من سعيد وشقي.

الفصل الرابع

في باب المثل والمعنى

(١) قد ذكرنا صدراً من هذه الأمثال التي هي في القرآن العظيم وفي سائر كتب الأنبياء (ع) الذين سلفوا، وهي كثيرة جداً، ولو تتبَّعناها لطال بها الكتاب، قد ذكرنا منها رسماً ليُستدلَّ به على مذاهب الأنبياء وسُننهم في شرائعهم، ويعلم أنَّ الأمر فيه كما قلنا: إنَّ أكثر كلامهم ورسومهم هي أمثال تختلف ظواهرها، والمراد بها المعاني؛ ومن جهل مرادهم، ولم يعرف معاني كلامهم، حَكَم عليهم بالاختلاف والتَّناقض، كما فعله الملحد حين قضى في ذلك بالكذب، وأنزل الأنبياء الطَّاهرين منزلةَ الكذَّابين الفجّار، جهلاً منه بمعاني كلامهم، وجرأةً على اللَّه عزَّ وجلَّ، وكفراً وطغياناً. ولو نظر في دعاوى الأنبياءِ (ع) وحكم في ذلك حسب ما نطقت به كتبهم، ثم أنصف نفسه، لما ضلَّ عن طريق الهدى، لأنَّهم ادَّعوا أنَّهم يضربون الأمثال، وأنَّ لكلامهم معاني لطيفة، وحثُّوا على طلبها وتعليمها، وأنذروا ترك ذلك، واحتجُّوا على النَّاس؛ كما رُوي عن رسول اللَّه (ص) أنَّه قال: «مَا نَزلتْ عَليَّ آيةٌ إلاَّ وَلَها ظَهرٌ وبَطْنٌ، وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطلعٌ». وكما رُوي عن أمير المؤمنين عليّ كرَّم اللَّه وجهَه، حين وصف القرآن فقال: «ظَاهِرُهُ أنيقٌ وَبَاطِنُهُ عميقٌ، لاَ تنقَضي عَجائِبُهُ وَلاَ تَفْنَى غَرائِبُهُ».

وأذكر لك في باب المثل والمعنى مثالاً تستدلُّ به على رسوم الأنبياء (ع) في ذلك، وتعرف مذاهبهم فيه، وتتصور ذلك، وتعلم كيف كان خطابُهم لأممهم

بالأمثال، وكيف اختلفت ألفاظهم واتَّفقت معانيها، وتعتبر به، وتستدل بالقليل على الكثير، وتعلم أنَّ الملحد لمَّا لم يعرف هذا الباب، طعن على الأنبياء الصَّادقين (ع) وقضى عليهم بالكذب، وحكم في كلامهم بالتناقض، ولم يتأمَّل دعاويهم، أنَّهم يضربون الأمثال، فضلَّ وهلك:

اعلمْ أنَّ مثل من يسمع الأمثال من كلام الأنبياء (ع) ولا يعرف المعاني، مثل من يشاهد قوماً يُعرفون بالصِّدق والورع والعقل والتَّمييز اطَّلعوا في بيت، فسئلوا، فقيل لهم: ما رأيتم في هذا البيت؟ فقال أحدهم: ما رأيت فيه إلاَّ نعجةً. وقال الآخر: ما رأيت فيه إلاَّ قارورةً، وقال الآخر: ما رأيت فيه إلاَّ بيضةً. فقيل لهم: لمَ اختلفتم، وأنتم تُعرفون بالصِّدق، ولا تنكر عقولكم؟ فقالوا: ضربنا أمثالاً. ثم شهد كلُّ واحدٍ منهم لصاحبه أنَّه قد صدق.

(٢) فإذا حكم من يسمع كلامهم بظاهر اللَّفظ، ولم يلتفت إلى دعواهم حين قالوا ضربنا أمثالاً، ولم يسأل عن معنى كلامهم، وحكم عليهم بالاختلاف والتَّناقض، وقضى عليهم بالكذب، كان جاهلاً متعدياً ظالماً، ضالاً عن الحق، تاركاً للإنصاف. ومن تأمَّل كلامهم ودعواهم، وسأل عن معنى الأمثال التي ادَّعوها، وبحث عن ذلك، وجدهم صادقين وكان مصيباً منصفاً عادلاً هادياً؛ لأنَّهم رأوا في البيت امرأةً، فكنوا عن ذكرها: وضرب أحدهم المثل بالنَّعجة والآخر بالقارورة: لأنَّ المرأة يُكنى عن ذكرها بالنَّعجة، كما قال اللَّه عزَّ وجلَّ في قصة داود (ع) والملكين حين ضرب المثل، فقال أحدهما «هَذَا أخي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ»، وأشار إلى المعنى. فعرف داود (ع) معنى المثل وأنَّهما نبَّهاه لخطئه في أمر أوريا. ويُقال للمرأة قارورة إذا كني عنها، كما رُوِي عن النبي (ص) أنَّه قال في بعض أسفاره، ورجل من أصحابه يحدو بهم المطيّ، فقال له النبي (ص): «اتَّقِ القوارير» يعني به النِّساء، وكنى عن ذكرهن وأراد أن ينهاه أن يتكلَّم في حُداه بكلام رقيق تسمعه النِّساء، فتصبو قلوبهن، لأنَّهنَّ ضعاف العقول، وإذا لم يصنَّ، صبون، وفسدت قلوبهن، مثل القوارير إذا لم تُصَن، انكسرت. ويُقال للمرأة أيضاً بيضة، على التَّشبيه، كما قال الشاعر:

وَبَيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها   تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِها غَيْرَ مُعْجَلِ

فكني عن المرأة بالبيضة.

فعلى هذا المثال سبيل كلام الأنبياء والرُّسل في ضرب الأمثال واختلاف ألفاظهم بها واتِّفاق معانيها، وتقدير الجاهلين فيها إذا حكموا بظاهر الألفاظ؛ فنسبوهم إلى الاختلاف والكذب؛ وهم البررة الصَّادقون.

(٣) ومثل هذا موجود في رسوم الفلاسفة الحكماء القدماء. فإنَّهم ضربوا الأمثال في كثير من كلامهم، وذهبوا في ذلك مذهب الأنبياء (ع) وسلكوا سبيلهم؛ كما هو مكتوب في كتاب برقلس، أنَّه: كان يناطق النَّاس منطقين، أحدهما روحانيٌّ والآخر جسمانيٌّ؛ يعني بالجسماني الأمثال، والرُّوحانيّ المعاني. وفي كتاب ديمقراط الفيلسوف، أنّه: كان يتكلَّم بالطِّباع وكان لطيف المذاهب، غامض المعاني، وكان يكلِّم النَّاس بالعويص من الكلام. وكما ذكرت الفلاسفة أنَّ أفلاطن كان أكثر كلامه رمزاً. وفي كتاب «بليناس» ، أنَّه: كان يضرب الأمثال، وقال: أنا بليناس صاحب الطِّلسمات والعجائب، أنا الذي أُوتيتُ الحكمة من مدبِّر العالم. ثم ضرب لهم الأمثال، وقال: الآن أُخبركم أنِّي كنت يتيماً من أهل طوانة، لا مال لي. ثم ذكر المثل الذي في صدر كتابه من حديث السَّرب المظلم، والتِّمثال من الحجر الذي أُقيم على عمود من خشب، ودخوله السَّرب بالسِّراج تحت الإناء الصافي، ونظره إلى هرمس على السرير في السَّرب، وأخذه الكتاب من بين يديه الذي فيه سر الخليقة. والأمثال الكثيرة التي ضربها، والرؤيا التي ذكرها، يطول بشرحها الكتاب.

فهلاً تدبّر الملحد الجاهل كلام الأنبياء (ع) حين ادعوا أنهم يضربون الأمثال، فكان يحكم فيهم حسب دعاويهم؟ وهلاً طلب معانيها، ثم حكم فيها بالصدق والكذب والائتلاف والاختلاف، فيكون مصيباً منصفاً؟ أم، هلاً حكم برسوم الفلاسفة حين جحد النبوة؟ ولكن حَمَلَه على ترك الإنصاف جهلُه بمراد الأنبياء وإعجابه بوساوسه التي غرق فيها، وادَّعى أنَّها حكمة وفلسفة، وغرَّته الأماني؛

فضلَّ وأضلَّ، وأُهلِك وأهلَك، حباً منه للرياسة الخسيسة التي كان يدّعيها ويتشبّه بالفلاسفة القدماء كما تشبّه به أمثاله من الموسوسين الكذّابين، وكذّبوا الأنبياء الطّاهرين؛ وسيعلمون غداً مَن الكذّاب الأشر.

(٤) فشرائع الأنبياء، كلُها، أُسِّست على العلم والحكمة، وكتبهم ورسومهم هي، على ما ذكرنا، متّفقة المعاني، وإن اختلفت ظواهرها؛ لأنَّها أمثال مضروبة رمزوا لأُممهم بما رسموه من ذلك، وأمروهم بإقامة ظاهرها، ليقوم العباد في العالم، وتتَّصل السِّياسة، ويثبت الأمر والنّهي، وينتظم أمر العالم، ويكون فيه قوام أمرهم في دنياهم، وتكون هذه الرُسوم دالّة على ما تحتها من المعاني التي بها نجاتهم في أخراهم. فكلٌ من نسخ ظاهر ألفاظ من تقدمه وظاهر رسومه، أتى برسوم تدلُّ على المعاني التي دلَّ عليها صاحبه، وإن خالفه في ظاهر ألفاظه. كان أصحاب الشَّرائع من الأنبياء نفراً معدودين، وأمَّا سائر الأنبياء (ع) فإنَّهم كانوا يدعون إلى شرائعهم وأحكامهم؛ وكان قصد أصحاب الشَّرائع أجمعين، لإقامة الدِّين الحقيقيِّ الذي لا تفرُّق فيه ولا اختلاف؛ كما قال اللّه تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين ما وَصَّى بِهِ نوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنا بِهِ إبراهِيمَ ومُوسى وعيسى أن أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تتفرَّقُوا فِيهِ». فهذه الآية تدلُّ على أنَّ شرائعهم كلَّها كانت تدعو إلى دينٍ لا تفرُّق فيه. وقال في آية أخرى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شرعةً وَمِنْهاجاً». فهذه الآية تدلُّ أنَّ لكلِّ واحدٍ منهم شريعة غير شريعة صاحبه، ومنهاجاً غير منهاجه. فهذا في ظاهر الأمر مختلف كما نرى. فمن قدَّر أنَّ هذا تناقض، وأنَّ محمَّداً (ص)، مع ما وصفناه من الكمال والجمع للأخلاق الجميلة التي ذكرناها، كان لا يعقل ما يقول، حين تلا على النَّاس هذه الآية، وعرَّفهم أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ شرع لهم من الدِّين ما وصَّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وشهد لهم بالنُّبوَّة، ثم أمرهم بإقامة سُنن غير سُننهم وشرائع غير شرائعهم، وأنَّه كانت به من الغفلة ما لم يعرف معنى الآيتين، أنَّهما مختلفتان في ظاهر اللَّفظ، وأنَّ من حضره من أصحابه، وأخذوا عنه الدِّين، جهلوا ذلك، فمن ظنَّ هذا أو قدَّره، فقد جهل وعاند؛ ونعوذ باللّه أن نظنَّ به ذلك؛ بل كان أعلم بما يقول ويشرِّع من

الملحدين الظَّانين به ظنَّ السّوء ـ «عَلَيهم دَائرةُ السَّوْء» ـ وإنَّما عنى أنَّ لكلٍّ واحد منهم شريعة ومنهاجاً في الظَّاهر غير شريعة صاحبه ومنهاجه؛ ولكنَّهم كلَّهم أشاروا إلى معانٍ متَّفقة لا تناقض فيها ولا اختلاف. ألا تراه عزَّ وجلَّ يقول: «أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»، ثمَّ قال: «اللَّه يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب»، أي أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يهدي إلى معانيها، التي تدلُّ على الدِّين الحقيقيِّ الذي يدعو إلى وحدانيَّته وإلى معرفته ومعرفة أوليائه الذين لا تفرُّق فيهم ولا اختلاف بينهم، من ينيب إليه، ويرجع إلى أوليائه في طلب معاني كلام اللَّه وهدايته وخروجه من الاختلاف والضَّلال. فالاختلاف الذي بينهم كان في ظاهر شرائعهم. هكذا كان سبيله؛ لأنَّهم لم يقصدوا ظاهر الشَّرائع دون المعاني التي تحتها، بل كان قصدهم لها جميعاً؛ ثم حثُّوا الأنام على طلب معانيها المؤتلفة التي بها نجاتهم.

(٥) فلذلك جاز لهم نسخ ظاهر الشَّرائع، ومخالفة بعضهم لبعض فيها؛ لأنَّها كانت أمثالاً مضروبة في كتبهم وسُننهم. فألزموا النَّاس إقامتها، وجعلوها أصل العبادة، وافترضوا عليهم القيام بها، وأكرهوهم على قبول ظاهر ما أتوا به، وأجبروهم على إقامة ما شرعوه، لتثبت آثارهم ورسومهم في العالم، وتظهر الطَّاعة والمعصية، وتقوم الطَّاعة بالعبادة؛ ويساس بهذه الشَّرائع الخاصُّ والعامُّ، ويستقيم أمر العالم؛ لأنَّ صلاح أمر العالم في هذه الدُّنيا، لا يتمُّ إلاَّ بالإجبار والقهر والغلبة؛ لاختلاف طبائع النَّاس وهممهم في أديانهم وأُمور دنياهم. فلذلك أجبروا النَّاس على قبول ظاهر شرائعهم التي تدلُّ على المعاني اللَّطيفة، وأسَّسوا الدِّين على قبول الظَّاهر والباطن، ليكون في قبولهم ظاهر شرائعهم، وقبولهم الحدود التي سنُّوا فيها، قوام أمورهم في دنياهم، وحقن دمائهم، وتحصين أموالهم وذراريهم، ومنعهم الفتنة من التعدّي والفساد في الأرض والبغي والهرج، ويكون فيه صلاح أحوالهم. وإذْ كان فيهم العالِم والجاهل، والصالح والطَّالح، والوَرِع والمنتهِك، والعاقل والغبيُّ، على اختلاف طبائعهم وتفاوت طبقاتهم، فلذلك، أمرهم اللَّه، عزَّ وجلَّ، أن يُلزموا النَّاس قبول ظاهر رسومهم وحدودهم

بالقهر والإجبار؛ كما قال اللَّه عزَّ وجلَّ لنبيِّه مُحمَّدٍ (ص): «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ». فأمره بقتالهم حتَّى قبلوا ما جاء به. فلمّا أقام فيهم السُّنن والأحكام الظَّاهرة، أمره أن يفوِّض إليهم أمر دينهم، فقال: «لاَ إِكْرَاهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشدُ من الْغَيِّ فَمن يُكفُرْ بِالطَّاغوتِ ويُؤمِنْ بِاللَّهِ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى». وقال تعالى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَولِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلماتِ».

فأمره في آية أن يقاتلهم ويُكرههم على قبول ما أتى به، وأمره في آية أن لا يُكرههم وأن يخيِّرَهم في أمر دينهم ولا يُجبرهم عليه ليختاروا لأنفسهم، وأمرهم بطلب ما فيه نجاتُهم من المعاني التي تحت شرائعهم الظَّاهرة، وحثَّهم على ذلك على أحسن الوجوه بالإعذار والإنذار والموعظة الحسنة، كقوله: «اطْلبُوا الْعِلْمَ وَلو بِالصِّين»، وقوله: «طَلَبُ العلمِ فَريضةٌ على كلِّ مُسلم».

فهذا ما دلَّ عليه القرآن، وكذلك هو في سنَّة النَّبيِّ. قال (ص): «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إله إلاَّ اللَّه، فَإِذَا قَالوها عَصِمُوا مِنِّي دِماءَهُمْ وأموالَهُم إلاَّ بِحقِّها، وحِسابُهُمْ عَلَى اللَّه». أَلاَ تراه يقول: أُمرت أن أقاتل النَّاس حتّى يقولوا لا إله إلاَّ اللَّه؛ فقاتَلَهم حتى قالوها وقبلوا شرائعه ثم خيَّرهم بعد ذلك. كما رُوي أنَّه سُئِل، فقيل له: يا رسول اللَّه، من قال لا إله إلاَّ اللَّه دخل الجنَّة؟ فقال: «نعم، من عرف حدودها وأدَّى حقوقها». فدلَّ أن بعد هذه الشهادة وقبول شرائعها، الأمر هو مفوَّض إليهم في معرفة حدودها وأداء حقوقها، وحسابهم على اللَّه؛ لأنَّهم مخيَّرون في ذلك لا مُجبَرون. ومعرفة حدودها هي معرفة ما تحتها من المعاني، وتحت الشَّرائع المنوطة بها، وأداءُ حقوقها هو القيام بظاهر شرائعها.

(٦) فهكذا سبيل شرائع الأنبياء (ع)، وبهذا نطق القرآن العظيم وسائر الكتب، على حسب ما ذكرنا. ويجب أن يُحكم في ذلك بما ادَّعوه (ع) لأنفسهم

ونطقت به كتبُهم، ولا يُحكم في ظاهر ألفاظهم دون معانيها. فإنَّ من خالف ذلك جرى مجرى الملحدين الذين قضوا على الأنبياء البَرَرَة بالكذب والاختلاف والتناقض. فكلام الأنبياء مبنيٌّ على الحكمة؛ والحكمة هي العمل بالعلم. فإذا اجتمع العلم والعمل، سُمِّي ذلك حكمة. ومن عمل عملاً بمعرفة وعلم سُمِّي حكيماً. والذي يعمل عملاً بلا علم، فهو جاهل؛ والجهل يدعو إلى العدوان والبغي. والأنبياء (ع) خَصُّوا بعلم ما في شرائعهم المستحقين الخاضعين، ولم يبخلوا به عليهم؛ وصانوه عن الباغين المعتدين الذين ليسوا له بأهل؛ كما رُوِيَ أنّهم قالوا: لا تضعِ الحكمةَ في غير أهلها فتضيِّعها، فتكون كمن ينثر الدُّر بين أيدي الخنازير، ولا تمنعْها عن أهلها فتكون قد ظلمتها.

فتدبَّر رحمك اللَّه ما قد شرحته لك بعين النَّصفة، واجتنب العناد والبغي، وانظر في سُنن الأنبياء ورسومهم وشرائعهم لتعرف مرادهم ولتعلم لماذا قصدوا، وإلى ماذا دعوا، وليزول الشَّكُّ والشُّبهة عن قلبك؛ وتعلم أن الملحدين، حين عابوهم بالاختلاف في ظاهر شرائعهم، قد ضلُّوا عن سبيل الهدى، لمَّا جهلوا هذا الباب ولم يعلموا أنَّ تحت شرائعهم الظَّاهرة المختلفة ألفاظها معاني تؤلف بينها؛ فعند ذلك ادَّعوا عليهم التَّناقض؛ كما ادَّعى الملحد في كتابه أنَّ محمَّداً (ص) خالف موسى وعيسى (ع)، وأنَّ بعضهم خالفوا بعضاً، وقال: إنَّ كتاب محمَّد (ص) مملوء من التَّناقض، وذكر ما في التَّوراة من ظاهر ما رسمه موسى (ع) في ذكر البساط والخوان، ووضع الشَّحم والثرب على النار لسرور الرب وأنَّ عتيقَ الأيَّام في صورة شيخٍ أبيض الرَّأس واللِّحية، وما ذكر عن رواة الحديث وأعلام الأُمَّة ونسبهم إلى الجهل وذكرهم بالقبيح لروايتهم الأخبار التي ادَّعى عليها التَّناقض، والتي تدلُّ على التَّشبيه، مثل ما رُوي عن النَّبيِّ (ص) أنَّه قال: «رأَيْتُ رَبِّي في أَحسنِ صُورَةٍ وَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفيّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَنْدُوَتيّ»، وما في القرآن من الآيات التي ظاهر ألفاظها يدلُّ على التشبيه، مثل قوله عزَّ وجلَّ: «الرَّحمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى»، وقوله: «وَيَحْملُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوقَهُمْ يَومئذٍ ثَمانِيةٌ»، وقوله: «الَّذين يَحْمِلُونَ العَرشَ وَمَنْ حَوْلَه»، وقول

رسول اللّه (ص): «جَانِبُ العرش على مَنْكِبِ إِسْرافيل وإنَّهُ لَيئطُّ أطيط الرَّحْلِ الـجَديدِ». هذا إلى غير ذلك، ممَّا أورده الملحد في كتابه وشنَّع به وذكر أنَّه تناقض وخرافات.

(٧) ولعمري لو كان ما رسمه الأنبياء (ع) في شرائعهم، وما نطقت به كتبهم، من عند غير اللّه، وكان ظاهراً لا معاني له ولا تأويل، لكان الأمر على ما ادّعاه الملحد؛ فقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: «أفلا يَتَدبَّرون القُرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيه اختلافاً كَثيراً»، يعني: أنَّ من تدبَّره وجد فيه الأمثال المختلفة الألفاظ، ولو كان من عند غير اللّه ولم يكن مبنيّاً على الحكمة كما قلنا إنّ من تحتها معاني غامضة تؤلّف بينها، لوجدوا في ظاهره اختلافاً كثيراً. فلما كان من عند اللّه وكان سبيله ما قلنا، زال عنه طعن الملحدين ودعاويهم أنَّه متناقض، وبطلت ظنون الضَّالين وظهر صدق النَّبيِّين الطَّاهرين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

ومن سلك سبيل الملحدين، وقضى في رسوم الأنبياءِ (ع) بالظَّاهر دون المعاني والتأويل، وقع في الشَّكِّ والشُّبهة، وأدَّاه ذلك إلى العمى والحيرة، وخرج إلى التَّعطيل والإلحاد كما ظنَّ الملحدون. إلاَّ الضُّعفاء المقلِّدون الذين لا يُحسنون النَّظر ولا يستطيعون أن يميِّزوا، وليس ذلك في وسعهم، فأولئك قد وعدهم اللّه العفو والرَّحمة. وقد أمر اللّه عزَّ وجلَّ بردِّ ما اختلف لفظه والتبس معناه من آيات القرآن والأخبار التي رُويت، مما ظاهرها يدلُّ على التَّشبيه وأنَّ فيها تناقضاً واختلافاً، إلى العلماء. فقال جلّ ذكره: «وَلَوْ رَدُّوهُ إلَى الرَّسُولِ وإلى أُولي الأَمْرِ مِنهُم لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنبِطُونَهُ مِنهُمْ وَلوْلاَ فضلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه لاتَّبعتُمْ الشيطانَ إلاَّ قليلاً»، أي: لولا تفضُّله علينا ورحمته بنا حين أقام فينا من نردُّ إليه ما نختلف فيه، ليستنبطه بما أوتي من العلم لكي لا نضلَّ ولا نشكَّ، لشكَّ أكثرُ النّاس، وصاروا أتباعاً للشَّياطين الَّذين يطعنون على الأنبياء البَرَرة، وينسبونهم إلى ما هم منه بَراء. وقال في آية أخرى: «فإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ وَالرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤمِنونَ بِاللّه واليَوْم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تَأويلاً»، قالوا في تفسير ذلك:

رُدّوا إلى اللّه أي إلى الكتاب، وإلى الرَّسول أي إلى السُّنَّة. وفي كلٍّ زمان وأوان من يقوم بالكتاب والسُّنَّة ويستنبط تأويل ما يختلف لفظه. فسبيل ما في الكتب المنزَّلة وفي أخبار الأنبياء (ع) كما ذكرنا: أنَّ منها ما يقع فيه النَّسخ فيختلف الحكم فيه، ومنها ما يستغلق معناه، ومنها ما معناه واضح.

الفصل الخامس

فيما ذكره الملحد ممّا في التوراة

(١) والذي ذكره الملحد ممّا في التّوراة، قوله: ما لكم تقرِّبون إليَّ كلَّ عرجاء وعوراء؟ فإنَّ اللّه امتحن عباده بالأعمال التي سنَّها الأنبياء (ع) في كتبهم وسُننهم، مثل الصَّلوات والصِّيام والزَّكاة والقرابين وغير ذلك. ولما امتحنوا بالقرابين، كان فيهم من كان صادق النِّيَّة، ومن كان فاسد النِّيَّة، والأُمم كلُّها لا تخلو من ذلك. فمن صدقت نيَّته، قرَّب خير ما يملكه؛ ومن ضعفت نيَّته، قرَّب أردأ ما يملكه؛ فكان أصحاب النِّيَّة الفاسدة يقرِّبون إلى اللّه كلَّ عرجاء وعوراء، لو أهدوها إلى أمثالهم من النَّاس، لاستحقروها ولم يقبلوها. فوبَّخهم اللّهُ على ذلك ليرتدعوا ويُخلصوا نيَّاتهم. ومثل هذا في القرآن؛ فإنَّه لمَّا افترض اللّه الزَّكاة في هذه الأُمَّة في أموالهم، فمن ضعفت نيَّتهم كانوا يخرجون من زكوة تمورهم التَّعضوض والمعافار وهما جنسان من رديء التَّمر، فأنزل اللّه عزَّ وجلَّ: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِن الأَرْض وَلاَ تَيمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيه»، أي: لا تقصدوا إلى أخبث التمور وأردئها، فتخرجوه في زكاة أموالكم، وإنْ احتجتم أن يأخذه بعضكم من بعض لا تأخذوه حتى تغمضوا فيه، أي ترخصوا فيه «واعْلَمْوا أَنَّ اللّه غنيّ حَمِيدٌ» أي: غنيٌّ عن أموالكم يحمدكم على حسن أعمالكم. ثم قال: «الشَّيطان يَعِدُكُمْ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ» أي: يعدكم أنَّكم إذا أخرجتم زكاة أموالكم افتقرتم، «وَيَأمُركُمْ بِالفَحْشَاءِ» قالوا: الفحشاء هي البخل، «واللّهُ يَعِدُكُمْ

مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً» أي: يخلف عليكم أفضل ممَّا تنفقون وأكثر منه، وعرفهم أنَّه يمتحنهم ويمتحن نياتهم.

فهذا مثل ما في التَّوراة سواء؛ حين قال: ما لكم تقرِّبون إليَّ كلَّ عرجاء وعوراء؛ أي: إنَّ اللَّه امتحنكم بالقرابين، ليظهر من هو صادقُ النِّيَّة ممَّن هو فاسدُ النِّيَّة؛ وَوَبَّخَ من فسدت نِيَّته وأساء اختياره لنفسه في إيثار الدُّنيا على الدِّين لشحِّه، وقرَّب أردأ ما يملكه مثل العوراء والعرجاء، وبكَّتهم على ما ظهر من سوء نيَّاتهم، ليرجعوا عن ذلك ويصلحوا سرائرهم. فسبيل ما في التَّوراة من ذكر العوراء والعرجاء، وما في القرآن مِن قوله عزَّ وجلَّ: «وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ»، واحدٌ.

وهكذا السُّنَّة في الإسلام، في الهِدَى والبُدن التي تُنحَر بمنى للقربان وفي سائر الأمصار من الضَّحايا، ولا يجوز فيها العوراء والعرجاء، ولا ذات عيب، ولا يصلح إلاَّ صحيحة غير معيوبة. واللَّه عزَّ وجلَّ لا يصل إليه نفع ما يهديه النَّاس ويقربونه إليه ـ تعالى اللَّه عن ذلك ـ بل تصل إليه أعمال العباد وما يظهر من نيَّاتهم؛ كما قال جلَّ ذكره: «لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُها ولا دِمَاؤُها وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّروا اللَّهَ عَلَى ما هَدَاكُم وَبَشِّر المُحْسِنِينَ». فقد بَيَّنَ عزَّ وجلَّ أنَّه يمتحنهم بذلك ليُظهر تقواهم وشكرهم للَّه على ما هداهم، ويُظهر صدقَ نيَّاتهم. وكذلك سبيل الشَّحم والثَّرب الذي أُمروا أن يضعوه على النَّار لسرور الرَّبِّ. أتراه عزَّ وجلَّ أراد أن يصل إليه قتار ذلك الشَّحم والثَّرب؟! عزَّ اللَّه عن ذلك وتعالى عما يظنُّ به الملحدون علوّاً كبيراً.

(٢) وأمَّا ما ذُكر من أمر البساط الرَّقيق من أبريسم والخوان من الشَّمشار وغير ذلك ممَّا استفظعه الملحد وعابه، فإن ذلك كلَّه صحيح وسبيله ما قلنا: إنَّها أمثال وتحتها معان غامضة. وما لم يذكره الملحد، ممَّا هو في التَّوراة من هذا الباب، هو كثير جداً؛ ممَّا أمر به موسى (ع) بني إسرائيل في اتِّخاذ قبَّة الزَّمان وآلاتها؛ يقول في التَّوراة: كلَّم الرَّبُّ موسى وقال له، قل لبني إسرائيل ليجمعوا الذَّهب

والفضَّة والنُّحاس والرَّقم والأرجوان والقرمز ومسوك الكباش ومسوك الأُدم وخشب السَّنط وحجارة البلَّور والأحجار الجيِّدة لقواعد البيت، ليصنعوا لي مقدساً، لأحلَّ بينهم. ثم وصف لهم كيف يتَّخذون قبَّة الزَّمان، وكم ذراعاً يكون طولها وعرضها وسمكها وأساطينها، وكم أسطوانة تكون من فضَّة وكم أسطوانة تكون من نحاس، وأمرهم باتِّخاذ المذبح، واتِّخاذ تابوت الشَّهادة من خشب الشَّمشار، طوله ذراعان ونُصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، ويجعل له أربع حلقات ذهب في أربع زواياه فوق أربع قوائمه وعمداً من خشب الشَّمشار ليحمل بها التَّابوت، وتغشَّى بالذَّهب، واتخاذ حشاً من ذهب خالص طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف ويجعل له كروبَيْن من ذهب يجعلهما من كلا جانبي الحشا، كروب من جانبه من ها هنا وكروب من جانبه من ها هنا. ويجعل على أعلى الحشا كروبيْن على جانبيه، قد بسطا أجنحتهما من فوق يظلّان بأجنحتهما على الحشا، ووجهاهما متقابلان على الحشا. واتِّخاذ مائدة من خشب الشَّمشار، وتغشَّى بالذَّهب الخالص ويجعل لها إكليل من ذهب وصحاف ومشارب وبراطيل ومحاسٍ يغرف بها من ذهب خالص وسلاسل وخمسون كلبة من نحاس، ورفوف البيت من ذهب، وستوره رقم، وشقاقٌ من قياطين وبساط من أبريسم رقيق وبخور ودخنة ولبان وطِيب ودهن البنفسج المقدَّس، وقميص كتَّان لهارون، وهميان مضفور يشدُّ به ظهره؛ وأن يذبح الثَّور بين يدي الرَّبِّ ويرشَّ الدَّم على المذبح، ويجعل الثَّرب وزيادة الكبد والكليتين وشحمهما على المذبح قدَّام الرَّبِّ؛ ويُذبح كبش وينضح دمه على طرف أُذن هارون وولده، وعلى أباهيم أرجلهم، ويغسل الكبش وبطنه وأكارعه وأعضاؤه، ويقطَّع على أعضائه ورأسه، ويُصعد به على المذبح لقربان الرّبِّ. فقد ذُكر في التَّوراة نحو هذه الصِّفات في باب اتِّخاذ قبَّة الزَّمان وآلاتها والتَّابوت والمنارة وآلاتها وغير ذلك.

وذكرنا هذه على الاختصار، فإن لكلِّ شيءٍ ممَّا ذكرنا صفاتٍ طويلةً؛ ولعل هذه الصِّفات في التَّوراة تكون في طول سورة البقرة. فذكرنا هذا المقدار لأنَّ الملحد ذكر البساط من أبريسم والشَّحم والثَّرب واستفظعه، وعاب فعل موسى

جهلاً منه، ولم يعلم أن موسى حين اتَّخذ هذه الأسباب، ضرب بها الأمثال كما قلنا؛ فزعم أنَّها خرافات واتَّخذها هزواً ولعباً؛ واستظهر بدعوى المنّانيَّة: أنَّ موسى كان من رُسُل الشَّياطين، وقال: «من عُني بذلك فليقرأ «سِفر الأسفار» الذي للمنّانيَّة؛ فإنه يطَّلع على عجائب من قولهم في اليهوديَّة، من لدن إبراهيم إلى زمن عيسى» . . . وهل قالت المنانيَّة بجهلهم في ذلك إلاَّ مثل ما قال الملحد بقلَّة معرفته، حين عاب هذه الأسباب التي في التوراة، وزعم أنَّها خرافات، جهلاً منه بمراد موسى في ذلك وبما ضُرب فيها مِنَ الأمثال؛ فعدَّ الملحد ذلك سخفاً وخرافات؛ وإنَّما هي أمثال تحتها معان غامضة، يعلمها حكماء الدِّيانة الذين يعرفون معاني كلام الأنبياء (ع). ولم يكن موسى وسائر الأنبياء، مع براعتهم وكمالهم على حسب ما تقدَّم وصفهم، يجهلون من هذا ما عرفه الملحد. وموسى (ع) مع كماله، وما ظهر للأنام من استحكام رأيه، ووفور عقله، وأفعاله العظيمة التي كانت منه ولا يكون مثلها إلاَّ من أكمل النَّاس وممَّن يكون مؤيداً، كان يعلم أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ لا يحتاج إلى بساط من أبريسم يقعد عليه، أو خوان من خشب الشَّمشار يأكل عليه، أو قبَّة يجلس فيها مثل القبَّة التي أمر موسى باتِّخاذها على تلك الصِّفات المكتوبة في التَّوراة والتي سمَّاها قبَّة الزَّمان، وإلى هذه الأسباب والآلات التي ذكرناها، وأنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ هو مقدَّس عن هذه الأمور. وهذه إن لم تكن أمثالاً كما قلنا، فهي من فعل المجانين ومن لا يعقل قوله؛ ونعوذ باللَّه من قول من يظنُّ بموسى (ع) هذا الظنَّ؛ بل، كان أطهر وأزكى وأكمل من ذلك، ولكنَّه لما اصطفاه اللَّه عزَّ وجلَّ، وبعثه بالرِّسالة، ضرب للنَّاس هذه الأمثال العجيبة، وأشار إلى معانيها الجليلة، ليعتبر بها النَّاس.

(٣) ومثال تلك القبَّة في التِّيه الذي كانوا فيه، مثال الكعبة التي وضعها اللَّه للناس، وحجّها النَّبيُّون (ع) في الأُمم السَّالفة ثم جدَّدَ رسومها إبراهيم (ع) وحجَّها، وجعلها مُحمَّدٌ (ص) قبلةً لأُمَّته وأمر بحجِّها؛ وسمُّوها بيتَ اللَّه، وقد علموا أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ لا يحتاج إلى بيت يسكن فيه، وأنَّ البيوت كلَّها لِلَّه. ومثل تعظيمهم لبيت المقدس، واتِّخاذهم إيَّاه قبلة. وهكذا كان سبيل قبَّة الزَّمان التي

اتّخذها موسى (ع)، وكذلك سبيل البساط والخوان، والشَّحم والثَّرب الذي أُمر أن يجعل على النَّار لسرور الرَّبِّ، وسبيل سائر الفرائض والسُّنن التي استعبد اللَّه بها عباده على أَلْسِنَةِ الأنبياء (ع) الذين شرعوا الشَّرائع، وأمروا النَّاس بإقامتها؛ ولو أنَّ الأمر هكذا، لكانت هذه الأفعال التي عاب بها الملحدُ الأنبياءَ (ع) عبثاً وجنوناً، ولكانت من أمحل المحال؛ كما يقدِّره الجُهَّال والملحدون والضُّلَّال الذين اتَّخذوها هزواً، ودعاهم الجهل إلى الخروج عن الشَّرائع، وإيثار التعطيل والإلحاد.

(٤) أفترى الأنبياء الطَّاهرين حين شرعوا هذه الشَّرائع التي قد خلدت على الدَّهر، ورسموا هذه الرُّسوم الباقية إلى الأبد، لم يعرفوا معنى ما يعرفه الملحدون، وهم أكمل البشر، وكل واحد منهم كان قطباً للأنام في دهره؟! أوَترى المسيح (ع) حين قال في الإنجيل: «لا تظنّوا أني جئت لأُبطل التَّوراة والأنبياء، لم آتِ لأُبطلها، بلْ جئتُ لأُكملها. والحقّ أقول لكم: إنّ زوال السَّمٰوات والأرضِ أيسر مِن زوال حرف واحد من التَّوراة. فمن نقص وصيّة واحدة من هذه الوصايا الصِّغار وعلَّمها النَّاس منقوصة يدعى في ملكوت السماء ناقصاً، ومن علم وعمل يدعى في ملكوت السَّماء عظيماً». وقد قِيل في التَّوراة: «إنَّ من طلَّق امرأته فليعطها كتاب الطَّلاق»، فأمَّا أنا أقول لكم: كُلّ من طلّق امرأته من غير زنى وتزوَّج أخرى فقد زنى وألجأها إلى الزِّنى، ومن تزوَّج مطلَّقة في الزنى فقد زنى»، فتلا عليهم هذا الحُكم الذي هو في التَّوراة ثم عطَّله، وعطَّل أكثر أحكام التَّوراة، وغيَّر ظواهر رسومها، وعطَّل السَّبت وأقام بدله الأحد؛ وقد علم أنَّ موسى (ع) أمر أُمَّته بإقامته وكتب ذلك لهم في التَّوراة وشدَّد الأمر فيه وأخبرهم أنَّ ذلك عن أمر اللَّه عزَّ وجلَّ، فقال في التَّوراة: قال اللَّه لموسى: «قل لبني إسرائيل احفظوا السَّبوت لأنَّها آية بيني وبينكم ولتعلموا أنِّي أنا الرَّبُّ إلهكم فاحفظوا السبت فإنَّه قدس لكم ومن عمل فيه عملاً فلينبذوا ذلك الإنسان من شعبه. اعملوا الأعمال ستَّة أيَّام وفي اليوم السَّابع سبت الرَّاحة قدساً هو للرَّبِّ. كلُّ من عمل يوم السبت فلا يقبل وليحفظ بنو إسرائيل في اتِّخاذ السبت لأعقابهم

عهداً إلى الدَّهر ما بيني وبين إسرائيل أبداً إلى الدَّهر لأنَّ في ستَّة أيَّام خلق اللّه السَّماءَ والأرضَ وما فيهما وفرغ في يوم السَّابع». وفي موضع آخر في التَّوراة: «اعملوا الأعمال في ستّة أيَّام واصنعوا ما أردتم أن تصنعوا فيها فأمَّا يوم السبت فسبوت للّه ربِّكم لا تعملوا فيه عملاً أنتم وبنوكم وعبيدكم وإماؤكم ونسوانكم وحرمكم وكل بهائمكم والسُّكَّان الذين في قراكم ليستريح عبيدكم وإماؤكم معكم». وهو أشدّ ما أُلزموا من الفرائض في دينهم، فنسخه عيسى (ع) بالأحد مع شهادته بصَّحة التَّوراة ونبوَّة موسى، وتصديق جميع ما أتى به. فأتراه كان معتوهاً لا يعقل ما يقول وما يفعل؟ وما الذي منعه أن يقول إني جئت لأُبطل التَّوراة؛ فقد كان نابذ اليهود ونابذوه، ولا يرجو أن يتَّبعوه؟ فما الذي دعاه إلى أن يشهد بصَّحة التَّوراة ثم ينسخها وينسخ أحكامها؟ ولو لم يكن هذا بحكمة ولم يكن الأمر كما ذكرنا: أنَّ قولهم وفعلهم وما أُمروا به كله كان أمثالاً يختلف ظاهرها وتتّفق معانيها، لكان الأمر أفظع ممَّا ادَّعاه الملحد، ولكان يجب أن يحكم على من يفعل هذه الأفعال بالجهل وعدم العقل ـ ونعوذ باللّه من ذلك ـ بل كان أطهر وأزكى وأكمل من ذلك.

(٥) وهكذا كانت سبيل محمَّدٍ (ص) في شهادته لموسى وعيسى (ع) بالصِّدق والنُّبوَّة، وفي نسخه السبت والأحد وإقامته الجمعة بدل ذلك، وفي نسخه شرائعهم على ما تقدَّم القول به. ولكنَّ الملحد لم يعرف رسوم الأنبياء وسُننهم ومرادهم فيما فعلوا، وأسكرته وساوسه، فحكم عليهم بالتَّناقض والاختلاف؛ وترك أيضاً رسم الفلاسفة الحكماء المحقِّين؛ فإنَّهم رسموا أيضاً في كلامهم مثل ما رسمه أهل الشَّرائع من الأنبياء. كما ذكرنا أنَّ كثيراً من كلامهم كان عويصاً غامضاً، إلاَّ ما هو من كلام المبتدعين الذين نظروا في رسوم الفلاسفة الحكماء وابتدعوا الوساوس المتناقضة، مثل الملحد وأشباهه. فلو تدبَّر الملحد هذه الحال واستيقظ من سكره، وعرف مذاهب الأنبياء، لعلم أنَّ كلامهم وشرائعهم ليس فيها تناقض ولا اختلاف؛ أو لو تدبَّر تناقض كلام أئمَّته المبتدعين، إذْ لم يعرف رسوم الأنبياء، وغفل أيضاً عن رسوم الفلاسفة المحقِّين، ثم كان يشتغل بما جاء عن

أئمَّته من الاختلاف الكثير والتَّناقض القبيح وتكذيب بعضهم لبعض، لكان ذلك أَولى به وأَوجب عليه وأقرب من الإنصاف؛ فإنَّ ذلك واضح في كتبهم. وكلام هؤلاء الذين تشبّهوا بالفلاسفة الحكماء كان مجرَّداً بلا قشور، وليس هو على رسم كلام الأنبياء الذين ضربوا الأمثال، ولا على رسم كلام الفلاسفة الحكماء الذين تكلّموا بالعويص، على نحو ما حكينا أنَّه في كتاب برقلس الفيلسوف وفي كتاب ديمقراط وغيرهما.

(٦) فأمَّا المبتدعون الذين تشبّهوا بالفلاسفة فإنّهم أوردوا في وساوسهم وفيما ابتدعوه بآرائهم المدخولة من القول في الباري وفي كون العالم وفي أوائل الأشياء، من الاختلاف والتَّناقض ما فيه للملحدين خزي عظيمٌ وشناعةٌ قبيحةٌ وشغل شاغل لهم عن الطَّعن على الأنبياء الطَّاهرين؛ فإنهم لم يدعوا شيئاً تكلَّموا فيه من هذه الأسباب إلاَّ اختلفوا فيه ونقض بعضهم على بعض ونسبوا كثيراً من دعاويهم إلى الفلاسفة القدماء الحكماء، وقبَّحوا أمرهم عند النَّاس، حتَّى أجروهم مجرى الضَّلال؛ ونفرت قلوب النَّاس من النَّظر في أصولهم. فكيف لم يعجب الملحد من اختلاف أئمَّته وكلامهم المتناقض وبِدَعهم التي ابتدعوها؛ كما ابتدع هو مقالته السَّخيفة التي تدلُّ على ضعف عقله، من القول بقِدَم الخمسة، وخالف من تقدَّمه، وادَّعى أنَّه نظير سقراط وأرسطاطاليس، وتشبَّه بالفلاسفة الحكماء، كما تشبّه بهم من كان على مثل مذهبه من الضلاّل، وابتدعوا الوساوس؟! وكيف لم يكشف مستور أكاذيب هؤلاء ودفينها ولم يهتك ستور عيوبهم؟ فكان يسقط رياسته وتكبُّره!! ولكن طعن على أهل الشَّرائع وزعم أنَّهم ينهون عن النَّظر مخافة أن ينكشف دفين أكاذيبهم، ويهتك النَّظرُ ستورَهم؛ فتسقط رياستهم وتكبُّرهم. فإنّه لو تأمَّل حال نفسه من مخالفته لهم، وأحوالهم في اختلافهم، لوجد في أصولهم من تكذيب بعضهم بعضاً، ونقض بعضهم على بعض، ما كان يشغله عن عيب الأنبياء والطَّعن عليهم؛ ولكن نظر بعين العمى، وحكم بالهوى، وضلَّ عن طريق الهُدى في الأُولى حتى لحق بأُمّه الهاوية في الأُخرى، يعضُّ على يديه، ويقول: «يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً».

الباب الرابع

الفصل الأول

ذكر شيء من اختلاف المتفلسفة وتناقض كلامهم

(١) ونحن نذكر شيئاً من اختلافهم وتناقض كلامهم وأقاويلهم الشَّنيعة القبيحة، وأكشف عن المحالات والخرافات التي ابتدعوها في أُصولهم دون الفروع، واختصر القول فيه، فإن استقصينا في ذلك، طال القول به جداً. ومع ذلك فإنَّ هؤلاء المبتدعين قد خلطوا بِدَعَهم بكلام الفلاسفة المحقِّين، ونسبوا كثيراً من ذلك إلى الحكماء القدماء: كما نسبت المجوس قولهم بالاثنين، وكما نسبت النَّصارى قولهم إلى المسيح أنَّه ابن اللَّه، إلى الأنبياء. ويصعب علينا أن نميِّز المحقَّ منهم من المبطل، وأن نميِّز كلام المبتدعين منهم من كلام الحكماء القدماء المحقِّين؛ ولكنا نذكر مقالة كل أمرئٍ منهم وننسبها إلى من نسبوها إليه ونذكر رسماً من اختلافاتهم وتناقض كلامهم، لتستدل به على ما وراءه من ضلالهم وعمى قلوبهم، ولتعلم أنَّ الملحد لم يبصر السَّارية في عينه ورأى في عين غيره قذاة، وما بها من قذيّ، حين غفل عن اختلاف أئمَّته الَّذين هم قدوته وقدوة أشباهه من الملحدين الذين زعموا أنَّهم استدركوا بفطنهم وعقولهم معرفة كيفيَّة الخالق الباري، جلَّ وتعالى، وأنَّهم عرفوا المبادئ، وأحاطوا بالفلك وما وراءه، وأدركوا معرفة طبائع الأشياء كلِّها، ونشوء جميع الخلائق من الابتداء إلى الانتهاء، من غير توقيف من رسول مبعوث من اللَّه عزَّ وجلَّ خالق الخلق الذي لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

فزعموا أنّهم بلغوا بآرائهم المدخولة، وعقولهم التّائهة، وقلوبهم الموسوسة، اللّطائف من لدن تحت الأرض السّابعة إلى أعلى علّيّين، افتراءً على اللّه وكفراً به؛ فضلُّوا ضَلالاً بعيداً وخسروا خسراناً مبيناً، وقالوا على اللّه غير الحقّ، وما كانوا مهتدين؛ «وَسَيَعْلَمُ الَّذِين ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

الفصل الثاني

في اختلاف الفلاسفة في المبادئ

(١) قال سقراط وأفلاطن: إنَّ المبادئ ثلاثة، وهي اللَّه والعنصر والصُّورة. واللَّه هو العقل ـ تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً ـ وهو واحدٌ بسيطٌ، وهو غير مختلط بالعنصر ولا مشارك شيئاً مما يقبل التَّأثير. والعنصر هو الموضع الأوَّل للكون والفساد، والصُّورة جوهر لا جسم في التخييلات والأفكار المنسوبة إلى اللَّه. وقالا: اللَّه عقل هذا العالم ـ عزَّ اللَّه عن ذلك ـ. وقال أفلاطن: إنَّ اللَّه خلق هذا العالم على مثال صورته؛ ولو لم يكن كذلك، لما تَهَيَّأ أن يكون كونٌ على هذه الصورة الَّتي هو عليها.

(٢) وقال ثالس، وهو أحد السبعة الَّذين يُدعَون أساطين الحكمة: إنَّ اللَّه هو العقل للعالم ـ عزَّ اللَّه وتعالى ـ. قال: إنَّ المبدع إنَّما هو فقط. ومؤيِّس الأشياءِ لا يحتاج إلى أن تكون عنده صورة الشَّيء بأيسيَّته، وإلاَّ فقد لزمه إن كانت الصُّورة عنده أن لا يكون مقدار الصُّورة الَّتي عنده، وإذا كان كذلك فليس هو مبدعاً ـ وخالفه كسنوفانس وفلوطرخس في قِدَم الصُّورة ـ وقال في مبادئ الأشياء ما نذكره في موضعه إن شاء اللَّه تعالى.

(٣) وقال إبيقورس: إنَّ الإله في صورة النَّاس، وإنَّه متصوَّر بالعقل للطافة طبيعة جوهره. وقال بأربع طبائع أُخَر غير قابلة للفساد في جنسها، وهي: الأجزاء التي لا تتجزَّأ والخلاءُ وما لا نهاية له ـ ويسميها المتشابهات ـ والإسطقسات.

(٤) وقال إنكساغورس: إنَّ العقل هو الإله ـ عزَّ اللَّه وجلَّ عن ذلك ـ، وإنَّ

الأجسام كانت أوَّلاً في المبدأ واقفة، وإنَّ العقل الَّذي هو الإله رتّبها وجعل لها تولُّداً على مناسبات.

(٥) وقال بيروس: ليست أوائلُ بتَّةً، إنَّما الأشياء تخرج من ذاتها؛ ولا فعلٌ. فلا تزال تخرج إلى الفعل؛ فإذا خرج ما كان بالقوَّة إلى الفعل، فحينئذ تكون الأشياء من ذاتها لا من شيءٍ آخر. فلا تزال تخرج حتى تتمَّ؛ فإذا تمَّت، صارت كالَّتي تراها وتحس بها وتدركها بالحواسّ الخمس؛ وليس معقول بتَّةً إلاَّ ما كان من الحواسِّ وما أدركته الحواسُّ. وقال: إنَّ العالم دائمٌ لا يزول ولا يفتر ولا يضمحلُّ، ولا يجوز أن يكون أوَّل مُبدع يفعل فعلاً يدثر إلاَّ وهو يدثر مع فعله. وهذا العالم، وهو الكلُّ الممسك لهذه الأجزاء التي فيها. وهذا هو القول بالدَّهر الدَّاهر.

(٦) وقال برقلس أيضاً بدهر هذا العالم وأنَّه باقٍ لا يدثر، ووضع في ذلك كتاباً وقال: إنَّما اتَّصلت العوالم وصارت عالماً واحداً؛ فهو باق لا يدثر، وهو متَّصلٌ بالعالم الأعلى، والعالم الأعلى صافٍ، وهذا مصفًّى؛ فآخر هذا العالم هو بدء ذلك العالم، وليس هذا العالم بداثر لأنَّه متصلٌ بما ليس بداثر، بل تدثر قشوره لأنَّ ما كان من الباري بلا متوسط لا يضمحل ولا يدثر؛ والدُّثور يدخل على الشَّيء من نحو المتوسِّطات.

(٧) وقال إبيقورس مقالةً خالف فيها جميع الفلاسفة وتفرَّد بها، وكان يقول: إنَّ الأوائل اثنان، الخلاءُ والصُّورة؛ يعني بالخلاء، نفي المكان؛ وأمَّا الصُّورة، فكالهيولى الَّتي منها أُبدِع الخلق وكُوِّن كلُّ ما في العالم. وزعم أنَّها ليست مكوَّنَةً، بل كان منها كونٌ؛ لأنَّ المكان والخلاءَ المحض منها كُوِّنا. وهي فوق المكان وفوق الخلاء، فكل ما خُلِق منها أو كُوِّن أو أُبدِع بأنواع الإبداع والتكوين والخَلْق كلُّه ينحلُّ ويفسد ويدثر ويفنى حتى يرجع إلى الخلق الأوَّل الَّذي منه بُدئ. وليس بعد الدُّثور والفناء قصاصٌ ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، بل كلٌّ يضمحل ويفنى. فهذا جملة قوله.

(٨) قال إبيقورس: إنَّ المبادئ الموجودات هي أجسام مدرِكة عقلاً، لا خلاء فيها ولا كون لها؛ وهي سرمديَّة غير فاسدة، لا تحتمل أن تُكسَر أو تُهشَّم، ولا يعرض لها في الشَّيء من أجزائها اختلاف ولا استحالة، وهي مدركة عقلاً، فهي تتحرك في الخلاء بالخلاء، والخلاءُ لا نهاية له، وهذه الأجسام لا نهاية لها.

(٩) وقال بثاغورس، ويقال هو أوَّل من سمّى الفلسفة بهذا الاسم: إنَّ أوَّل المبادئ هو العلَّة الفاعلة، وهي اللّه والعقل؛ والآخر هو العنصر القابل للانفعال، وعنه كان العالم المدرِك بحس البصر. ثم قال: أوَّل الأعداد الواحد، وهو ذَكَر؛ والعدد الثّاني أنثى وهو اثنان وهو ثاني الأوَّل؛ والثَّلاثة ذَكَر، والأربعة أنثى وهو غاية العدد. والواحد الأوَّل هو النّار وهو ذَكَر، والثَّاني الهواء وهو أنثى، والثَّالث الماء وهو ذَكَر، والرَّابع الأرض وهو أنثى. وقال في هذا قولاً كثيراً على هذا التخليط.

(١٠) وقال إيراقليطس وأناسس: إنَّ مبدأ الأشياء كلّها هو النَّار، وذلك أنَّ كون الأشياء كلِّها من النَّار وانتهاءَها إلى النَّار؛ وأوَّل الغَلْظ منها إذا اجتمعت وتكاثفت بعضها إلى بعض صارت أرضاً وإذا تحلَّلت الأرض وتفرقت أجزاؤها، صار منها الماء طبعاً؛ ولأنَّ كلَّ الأجسام في العالم تتخلَّلها النَّار وتثيرها، فالنَّار هي المبدأ: لأنَّ منها يكون الكلّ وإليها ينحلُّ ويفسد.

(١١) وقال إنقسمانس الملطي: أول المبادئ هو الهواء، ومنه كان الكلُّ وإليه ينحلُّ، مثل النَّفْس التي فينا؛ فإنَّ الهواء يمسكها ويحفظها فينا. والهواءُ يمسك العالم وهو روحه وماسكه. ونقض عليه هذا القول كثير منهم بحجج.

(١٢) وقال كسنوفانس: إنَّ أوَّل الأشياء هو الأرض، وإنَّه لا نهاية لها، وإنَّها هي الأصل، وهي تجمع الأشياء كلَّها.

(١٣) وقال ثالس الملطي، وهو أحد السَّبعة الذين يُدعَون أساطين الحكمة: أوّل المبادئ هو الماء، وهو العنصر الأوَّل القابل كلَّ صورة، ومنه أُبدع سائر الجواهر من السَّماء وما دونها، وهو غاية كلِّ مبدَع. وقال: مِن جَمْد الماء كُوِّنت

الأرض، ومن انحلاله كُوِّن الهواء، ومن جمع الهواء تكوَّنت النَّار. وقال: هذا العنصر هو أوّلُ وآخرُ، إنَّما هو عنصر الجسمانيَّة والجرميَّة لأنَّه عنصر الرُّوحانيَّة البسيطة، وهذا العنصر له صفو وكدورة، فما كان من صفوه يكون جسماً، وما كان من ثقله يكون جرماً؛ فالجرم يدثر والجسم لا يدثر، وكل جرم من هذه الأجرام الظَّاهرة فإنَّه جسم غير ملموس ويظهر في النَّشأة الثَّانية ويكون كالجرم الظَّاهر يدرك بحسِّ البصر وبالحواس الخمس الباطنة. وقال أيضاً: إنَّ فوق السَّماء عوالم مبدعة لا يقدر المنطق أن يصفها، وهي من عنصر لا يُدرِك العقلُ غورَه، والمنطق والنَّفْس والطبيعة تحته، وهو المدهر المحق وإليه تشتاق العقول والأنفس وهو الذي يقال له الدَّيمومة والبقاء في النَّشأة الثَّانية.

وقال الذين يقال لهم الفلاسفة من أهل أقاديما: لا تخلو هذه الأشياء وهذا الخلق أن يكون لها أوّل، والأوّل هو النَّار؛ لأنَّه ضياءٌ، ولأنَّ النَّار في كلِّ عالَم من ذلك العالَم، وفي كلِّ عالم أوَّل مشاكل لهذه، ولهذه كلِّها أواخر هي أوَّل لهذه تجمعها كلَّها، وليس تجمع الأواخرَ الأوائلُ.

(١٤) وقال أرسطاطاليس: إنَّ المبادئ هي الصُّورة والعنصر والقِدَم والأسطقسات الأربعة، وجسم خامس وهو الأثير، وهو العنصر الأعظم، وإنَّ الإله الأعلى مفارق للصُّورة وهو كُرةٌ للكلِّ ـ تعالى اللّه وجلَّ ـ وإنَّ الصُّوَر متَّصلة متَّحدة، وهي مقسومة بالأُكر، وكل واحد منها مركَّب من نفس وجسم، فالجسم منها هو الأثير، والنَّفس نطق عقلّي غير متحرّك، والجسم متحرّك حركةً دوريةً، وهو علَّة الحركة بالفعل، وهو الأثير وهو غير مستحيل.

(١٥) وقال آنكسماندروس الملطي: إنَّ مبدأ الموجودات هو الَّذي لا نهاية له، وإنَّ منه الكلَّ وإليه ينتهي الكلُّ ولا نهاية له. وقال: إنَّ العوالم بلا نهاية، ولم يفسر المبدأ الَّذي لا نهاية له.

(١٦) وقال أنبذقليس: إنَّ الباري لم يزل هُوِّيته فقط، وهو العلم المحض والإرادة المحض، وهو الجود والعزُّ والقدرة والعدل والخير والحقُّ؛ وهناك قوىً

مسماة لهذه الأسامي وهي الهويَّة؛ وهذه كلُّها مُبدَع فقط، وقال: إنَّ الصُورة إنَّما أبدعها المُبدِع لا بنوع علم وإرادة، بل بنوع علَّة فقط. وقال: إنَّ العالم واحد، إلاَّ أنَّ الكل ليس هو العالم وحده فقط، لكن العالم جزءٌ يسيرٌ من الكلِّ، وباقي الكلِّ عنصر معطَّل. وقال: أول مبدع هو العنصر الذي منه أُبدع العقل بتوسُّطِ؛ وليس العنصر أول بسيط عقلي، بل أوَّل بسيط على ما ذكرنا نحو ذات العقل. فأما نحو ذات العنصر فهو مركَّب من المحبّة والغلبة. والمحبَّة والغلبة هما المبدآن، وعن المحبَّة والغلبة أُبدعت الجواهر البسيطة الرُّوحانيَّة والبسيطة الجسمانيَّة والمركبة الجرمانية. وقال إن الأنفس الدَّنِسة تبقى في الظُّلمة بعد دثور العالم متشبِّثة به، حتى تستغيث بالنَّفس الكلِّيَّة، وتتضرع النَّفسُ الكلِّيَّة إلى العقل، والعقل إلى الباري، فيمسح الباري نوره على العقل، والعقل على النفس، والنفس على هذا العالم مرّة أخرى حتى تعاين الأنفس الجزئيَّة النَّفس الكليَّة وتلحق بعالمها، وذلك بعد دهور كثيرة. فأورد نحو هذا من قول. ومن قوله وقول بثاغورس وديمقراط تشعبَّت الأقاويل الكثيرة والآراء المختلفة في المُبدِع والمُبدَع.

(١٧) وقال طولوس الفيومي وتمستيوس: لا شيء مبدعاً إلاَّ ما يُرى بالأعين، ويُسمع بالآذان من صوت يصدم أو جرم يحطّم؛ ودفعا أنَّ شيئاً وراء ذلك. وقال أفلاطن القبطي بهذا القول وقال أفلاطن أيضاً: لا فعل ولا حركة ولا تغيير ولا فناء ولا زوال، ولكنا نرى فاعلاً ومتحركاً، ولا نرى تغييراً ولا متغيراً ولا فناءَ ولا فانياً ولا زوالاً ولا زائلاً.

(١٨) وقال هرقل فليسوف أهل إفسوس: إنَّ الأوائل نور عقليٌّ، وهو اللَّه حقّاً ـ عزَّ اللَّه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ وهو اسم اللَّه باليونانيَّة، ويدلُّ على أنَّه مُبدِع الكلِّ وهو اسم شريف جداً. فأول شيء أُبدع، وأوَّل هذه العوالم، المحبَّة والغلبة والمنازعة. ومن المحبَّة كانت العوالم العلويَّة إلى أن ينتهي إلى السَّماء، ومن السَّماء إلى هذه الأرض.

(١٩) ووافق أنبذقليس في أمر المحبَّة والغلبة وخالفه في غير ذلك. وقال:

إنَّ السَّماء تصير في النَّشأة الثَّانية بغير كواكب؛ لأنَّ الكواكب تهبط سفلاً حتى تهبط إلى الأرض، وتلتهب فتصير متَّصلة بعضها ببعض حتى تكون كالدَّائرة حول الأرض، وكل الأنفس الدَّنِسة تبقى في الأرض وتلك النَّار محيطة بها، والأنفس الزَّكيَّة ترتفع إلى عالمها وتكون سماؤُهم سماءً نورانيّةً أشرف من هذه؛ ففيها آثار الباري بلا متوسِّطات، وهناك الحسن المحض، لأنَّه مبدعه بلا توسّط ولا تعب، وإنَّ الباري يمسح الأنفس في كلِّ دهر مسحةً ويتجلّى حتى تنظر إلى نوره المحض الخارج من جوهره الحقِّ، فيشتد عشقها وشوقها؛ ولا يزال كذلك أبد الآباد دائماً. وقال: إن أوَّل الأوائل من المبدعات هو الهيولى، ومنها كان جميع ما في هذا العالم، ومنها كان الهواء والنَّار والماء والأرض؛ وإنَّ كلَّ ما كُوِّن، من الهواء المحض، وإنَّه لطيف روحانيٌّ لا يدثر ولا يدخل عليه الفساد ولا يقبل الدَّنس؛ وكل ما بقي في هذا العالم الدَّنِس الكثير الأوساخ، يتشبَّث به هذا العالم؛ لأنَّ هذا العالم دنِسٌ، ويمنعه أن يرتفع علوّاً. وكلُّ ما لم يقبل هذا الدَّنَس وهذه الأوساخ، وألقاها عن نفسه واتّصل بكليَّته الطَّاهرة النَّقيَّة، تخلَّص ولحق بكليَّته. وهذا العالم يدثر ويدخله الفساد، من أجل أنّه ثقل تلك العوامل الرُّوحانيَّة الشَّريفة، وهو قشر؛ ولولا ما فيه من نوريَّة تلك الأوائل، لما ثبت طرفة عين، وإنَّما ثباته بقدر ما يصفِّي العقل جزأه والنَّفس جزأها؛ فإذا صفت هذه الأجزاءُ النَّيِّرة الشَّريفة، دثر وفسد وبقي مظلماً؛ وهو الدُّثور الذي ذكروه أجمعين. والأنفس الدَّنِسة تبقى في هذه الظُّلمة، لا تعاين النُّورانيَّة.

(٢٠) وقال ديمقراط وبرقونس وبرقلس: إنَّ العقل أوَّل مُبدَع، وقالوا برأي أنبذقليس في النَّشأة الثَّانية، وخالفوه في المبدع الأوَّل؛ لأنَّ أنبذقليس قال: إنَّ العنصر أوَّل مُبدَع. وخالفوه في المحبَّة والغلبة وقالوا: إنَّ المُبدَع الأوَّل ليس هو العنصر فقط، بل الأخلاط الأربعة، وهي الأُسطقسّات، منها أُبدعت الأشياء البسيطة كلُّها دفعةً واحدةً؛ فأمّا المركَّبة، فإنَّها كُوِّنت دائمةً داثرةً، إلاَّ أنَّ ديمومتها بنوعٍ، ودثورها بنوعٍ؛ لأنَّ منها ما أُبدع باقياً دائماً لا يجوز عليه الدُّثور، ومنها داثرٌ غير باقٍ لا يجوز عليه البقاء.

(٢١) وقال فلوطرخس: إنَّ الباري لم يزل بالأزليَّة، وهو مُبدِع فقط، وكل مُبدِع ظهرت صورته في حدِّ الإبداع؛ وكانت صورته في علمه الأوَّل. والصّورة عنده بلا نهاية، ولو لم تكن الصُّورة مع أزليَّته، لم يكن ليبقى. وأورد كلاماً خلط فيه تخليطاً كثيراً، وخالف ثالس في قِدَم الصُّورة؛ وقد ذكرنا قول ثالس في نفي الصُّورة مع ذكر مقالته.

(٢٢) وقال كسنوفانس: إنَّ المُبدَع الأوَّل هو أنِّية الأزليَّته الَّتي هي بنوع الدَّيمومة والقِدمة، لا يدرك بنوع صفة منطقيَّة ولا عقليَّة. ونفى أزليَّة الصُّورة والهيولى، وقارب قول أهل التَّوحيد؛ ولكنّه أورد بعد ذلك كلاماً خلط فيه.

(٢٣) وقال زَينون الَّذي يُقال له الأكبر: إنَّ المبادئ هي اللَّه والعنصر. واللَّه هو العلَّة الفاعلة ـ تعالى اللَّه عن ذلك ـ وإنَّه المُبدِع الأوَّل، كان في علمه صورة إبداع كلِّ جوهر، وإنَّ علمه غير متناهٍ، والصُّورة الَّتي فيه من حدِّ الابتداع غير متناهية، وكذلك صورة الدُّثور غير متناهية. وقال: إنَّ هذا العالم يبقى بقاءً دائماً، ولا يفنى فناءً داثراً. وقال: إنَّ صورة هذه العوالم وما فيها من العلم الأزليِّ باقية داثرة، وهي باقية بنوع تجديد، وداثرة بنوع دثور، الصُّورة الأولى عند تجديد الأخرى؛ والدُّثور يلزم الصُّورة والهيولى معاً. وقال أيضاً مثل قول خرسبوس: إنَّ الباري محض هو «أنَّ» فقط، أبدع العقل والنَّفس دفعةً واحدةً، ثم أبدع جميع ما تحتهما بتوسُّطهما. وقال: إنَّ للنَّفس جرمين، جرماً من النَّار والهواء، وجرماً من الماء والأرض؛ والنَّفس متَّحدة بالجرم الذي من النَّار والهواء، والجرم الَّذي هو من النَّار والهواء هو متّحد بالجرم الَّذي من الماءِ والأرض. والنَّفس مستطيعة ما خلاَّها الباري، فإذا ربطها فليست بمستطيعة؛ كالحيوان الَّذي إذا خلاَّه مدبِّره الَّذي هو الإنسان المالك له، كان مستطيعاً؛ وإذا ربطه، كان غير مستطيع.

(٢٤) وقال أنكساغورس وكسناغورس بقول فلوطرخس في المُبدَع وخالفاه في المُبدِع الأوَّل وفي أشياء غير ذلك. وقال فيلوخوس: إنَّ المُبدِع الأوَّل كان مُبدِع الصُّورة فقط، فأمَّا الهيولى فلم تزل معه.

(٢٥) وقال أنكسمانس الَّذي يُعَدُّ أيضاً من السَّبعة الذين كانوا يُدعَون أساطين الحكمة: إن الباري أزليٌّ لا أوَّل له ولا آخر، وهو بدءُ الأشياءِ كلِّها، وهو «أنَّه» فقط ولا هويَّة تشبهه، وكلُّ هويَّة مُبدَعة، وهو أحد لا يتكثَّر، أبدع صورة العنصر وصورة العقل. وصورة العنصر واحدة أيضاً إلاَّ أنَّها تتكثَّر، ومنها انبعثت صورة العقل؛ فترتبت ألوان الصُّوَر على قدر ما فيها من طبقات الأنوار، فصارت تلك الطَّبقات، العوالم؛ حتَّى قَلَّ نورُ الصورة في الهيولى، وقلَّت الهيولى حتى لم يبقَ إلاَّ ثقلُها، فصارت منها هذه الصُّورة الرَّديئة؛ وترتَّبت هذه القوى بقدر سكون النَّفس في هذه الأجرام، فمدبِّر هذا كلِّه ساكنٌ، لا تجوز عليه الحركة، لأنَّ الحركة مُحدَثة؛ إلاَّ أنْ نقول إنَّ تلك الحركة فوق هذه الحركة، كما أنَّ ذلك السُّكون فوق هذا السُّكون. فأورد كلاماً يقرب من قول أهل التَّوحيد، ثم خلط بعد ذلك.

(٢٦) وقال أنبذقليس أيضاً: هو يتحرك بنوع السُّكون. وبهذا القول قال أنكساغورس وكثير منهم. واختلفوا وخلطوا ونقض بعضهم على بعض. وقال أرسطاطاليس في هذا الباب: الإله لا يتحرَّكُ لأنَّ الحركة لا تخلو من أن تكون، إمَّا مكانيَّة وإمَّا زمانيَّة وإمَّا فكريَّة؛ ثم قال: إنَّ الإله حركته بنوع سكون، وسكونه بنوع حركة، إلاَّ أنَّ تلك الحركة وذلك السكون ليسا هما وهميَّين ولا عقليَّين.

(٢٧) وقال أنكسمانس في الحق والحكمة: إنَّ الحقَّ حقّانِ، حقٌّ نوريٌّ وحقٌّ مظلمٌ، والحكمة واحدة. وقال في ذلك سقراطيس: الحق متعلق بالحكمة من نحو العقل. وقال فلسنيون: إنَّ الحقَّ متعلِّق بالحكمة لا من نحو العقل. واختلفوا في هذا الباب أيضاً اختلافاً كثيراً؛ فمنهم من قال: إنَّ الحكمة قبل الحقِّ، وإنَّ الحقَّ لا يقوم إلاَّ بالحكمة، ومنهم من قال إنَّ الحقَّ قبل الحكمة، وإنّما صارت الحكمةُ حكمةً بالحقِّ الذي أقامها.

(٢٨) وقال بثاغورس الأنطاكي: الباري جلَّ ذكرُه واحدٌ لا يُدرَك من جهة العقل والنَّفْس؛ وإنَّ هذا العالم أُلِّف وصُنِع من اللُّحون البسيطة الروحانيَّة وأعداد

الرُّوحانيَّة، وهي غير منقطعة، وهي متحدة تتجزأُ من نحو العقل ولا تتجزَّأُ من نحو الحواسِّ؛ وإنَّ هذا العالم هو سرور فقط في أصل الإبداع مثل العوالم الأُوَل، إلاَّ أنَّ تلك أبسط من هذا؛ ومنطق العوالم هو باللُّحون الرُّوحانيَّة البسيطة، فمن أجل ذلك صار سروراً دائماً غير منقطع. وقال. إنَّ أوَّل ما أُبدعت السَّماء، أظهرت النَّفسُ النُّجومَ السَّبعةَ التي هي دلالات اللَّهو والسُّرور والحُسْن والعدل والعزِّ والعشق وما أشبه ذلك. ولو عرف أصحابُ القضاء كيف حركاتُها وانتقالُها ومزاجُها ومقابلاتُها، لقدروا على معرفة تأليف العالم؛ ولكن لمّا لم يقدروا عليها، لم ينالوا علمَ تأليف هذا العالم.

(٢٩) وقال موزنوش وكان تلميذاً لبثاغورس: إنَّ ثبات العالم وقوامه من اثنين مُبدَعين، من ذكر وأنثى، من ضوءٍ وظلمةٍ، والضوء ذَكَر، والظلمة أنثى، ومنهما تكوَّنت الأشياء كلُّها. وأخذت عنه المجوس هذا القول، لأنَّه كان دخل مملكة الفرس، فأخذ ذلك عنه وارطوس الَّذي قام في المجوس بعد زرهشت وخلطه بالرَّسم الَّذي كان عليه المجوس من رسوم الأنبياء (ع)، وأفسد عليهم دينهم، وأزالهم عن التَّوحيد، ودعاهم إلى القول بالاثنين، وخلط الباطل بالحقّ، فضلَّ وأضلَّ، وبنى مقالته على أنَّ الضَّوء والظلمة مُبدَعان، وأنَّ الضَّوء سماويٌّ والظلمة أرضية، فلا يتمُّ للسماويِّ أمرٌ إلاَّ بالأرضيِّ، إلاَّ أنَّ الأرض في سلطان الظُّلمة، ولمَّا اتَّفق النُّور والظُّلمة، وَلد النُّورُ النَّارَ ووَلدت الظلمةُ الأرضَ، وهي أرضيّة، ثم تولَّدت من النَّار الحرارة واليبوسة، ومن الماء البرودة والرُّطوبة؛ ثمَّ ازدوجت، فتولّد منها هذا العالم كلُّه. فأصل مقالة المجوس في اعتقادهم القول بالاثنين من هذه الجهة.

(٣٠) وقال ملّيسس وأصحابه: إنَّ المُبدِع واحد، ولا يجوز أن يخلق اثنين، لأنَّ الاثنين يدلان على التَّنازع والتَّضاد. فلمَّا رأينا هذا العالم لا ضدَّ له ولا موافق، استدللنا أنَّه واحد لا يدخله الفساد والفناء من غيره أو من خاصَّته في الجزء والكلِّ؛ وإنَّما الحقُّ واحد، لا تغيير فيه ولا تبديل ولا زوال، وإنَّما هو منتقل كالمكان والزَّمان، وكالرّجل يكون في الظِّل حسن اللون وفي الشمس قبيح

اللَّون، والرَّجل واحد لم يتغيَّر ولم يتبدّل ولم يفنَ ولم يزل؛ وكذلك سائر ما يُرى وما لا يُرى من الألوان والطُّعوم والأصوات والحسّ والشَّم، لا تغيير ولا تبديل ولا انفعال ولا حركة؛ فهذا أصل قولهم.

(٣١) وقال فلانوس وكان أيضاً من تلاميذ بثاغورس وصار إلى الهند وادّعى أنَّ بثاغورس ارتقى إلى الهواء وعاين عالم الطَّبيعة وعالم النَّفس وعالم العقل، وقال: إنَّ كلَّ ما في العالم من الحسِّ هو معلولُ الطَّبيعة، وما عند النَّفس أكرمُ ممَّا عند الطَّبيعة وأخسُّ ممَّا عند العقل، إلى أن ينتهي إلى العلة الَّتي لا علَّة فوقها. وأخذ عنه هذا الرأي برخمس الهندي؛ فدعا إليه النّاس، وخلط بدعه برسوم الأنبياء الَّتي كانت في أيديهم كما فعل وارطوس بأصحاب زرهشت، وأبدع بِدَعاً كثرةً، منها تفرَّقت أديان الهند. وعنه أخذ برهما فسنَّ لهم الإحراق وأمر بالتَّعرِّي والسِّياحة في البراري والجبال حيارى، ورغَّب الناس في تلطيف الأبدان وتهذيب الأنفس والإسراع في الخروج عن هذا العالم والاتَّصال بذلك العالم، لتكون الأنفس مسرورة متلذَّة، لا تملُّ ولا تكلُّ بزعمه. فأخذ عنه أهل الهند، وتفرَّقوا بعده فرقاً كثيرةً؛ إلاَّ أنَّ أصل البدع في مقالاتهم من فلانوس الَّذي كان من تلاميذ بثاغورس. وقال قوم منهم إنَّ التناسُل في هذا العالم خطأٌ، وأفضل الأعمال عندهم أن يلقوا أنفسهم في النَّار، يزعمون أنَّهم يطهِّرون أبدانهم؛ ولهم أديان كثيرة مختلفة عجيبة جداً ابتدعوها ويطول التّفسير بذكرها.

الفصل الثالث

جملة الخلاف فيما قال الفلاسفة

(١) فتأمَّل رحمك اللَّه ما قد ذكرته من أصول هؤلاء الضُّلاَّل وشدَّة اختلافهم وضلالهم، وكيف خالف بعضهم بعضاً في القول في الباري جلَّ وتعالى وفي مبادئ الأشياء وفي انتهائها، وكيف ضلُّوا حتى قال بعضهم: إنَّ اللَّه هو العقل وهو عقل هذا العالم، والعنصر والصُّورة قديمان معه ـ تعالى اللَّه عن ذلك علوّاً كبيراً ـ. وقال بعضهم: اللَّه هو عقل العالم ـ عزَّ اللَّه عن ذلك ـ وهو أبدع الصُّورة والعنصر. وقال غيره: العقل هو الإله ـ سبحانه عن ذلك ـ وإنَّ الأجسام كانت واقفة فزينها وجعل لها مناسبات وتولُّداً. وقال آخر: اللَّه علَّة هذا العالم ـ عزَّ اللَّه وجلَّ ـ. وقال آخر: الباري هو العلم والإرادة والجُود والعزُّ والعدل والخير وقوى غيرها. وقال غيره: اللَّه هو نور عقليّ، وعقولنا أبدعت من ذلك النور ـ عزَّ اللَّه وتعالى ـ. وقال آخر: الباري هو متحرِّك. وقال غيره: هو ساكن. وقال غيره: هو متحرِّك بنوع الحركة؛ ساكن بنوع السكون. وقال آخر: اللَّه خلق هذا العالَم على مثال صورته. وقال آخر: اللَّه هو في صورة إنسان ـ تعالى اللَّه عن ذلك ـ. وقال آخر: هو اللَّه والعنصر قديم معه، واللَّه هو العلَّة الفاعلة ـ عزَّ اللَّه وجلَّ ـ.

(٢) وقال آخر: إن الصُّورة كانت قديمةً عند اللَّه. ونفى غيره ذلك. وقال آخر: إنَّ اللَّه أبدع الصُّورة، والهيولى لم تزل مَعهُ. وقال آخر: إنَّ اللَّه أبدع العقل والنَّفْس، وبتوسُّطهما أبدع العالَم. وقال آخر: إن اللَّه أبدع العالم من المحبَّة

والغَلَبة. وقال آخر: أبدعه من اللُّحون البسيطة، وقال آخر: العالم دائم لا يزول ولا يفتر ولا يضحملُّ. وقال كثير منهم بدهر العالم. وقال آخر: الأشياء تخرج من ذاتها بلا حَدَث. وقال آخر: المبادئ هي أجسام لا خلاء فيها ولا كون، وهي سرمديَّة غير فاسدة. وقال آخر: مبدأُ الأشياء كلُّها النَّار. وقال آخر: هو الهواء. وقال آخر: هو الماء. وقال آخر: هو الأرض.

(٣) وقال آخر: لا شيء مُبدَعاً إلاَّ ما يُرى ويُسمع، وأنكر ما غاب. وقال آخر: لا فعل ولا حركة ولا تغيير ولا فناءَ. وقال آخر: الأوائل اثنان، الخلاءُ والصُّورة. وقال آخر: إنَّ جميع ما يُرى ويُحَس لا حقيقة له، إنَّما هو على طريق الخيلولة والحسبان، وإنما نرى هذه الأشياء ونشاهدها كما نراها في المنام ولا حقيقة لها، ولا حقيقة لأنفسنا، ولا لشيءٍ مما يُرى ويُحَس، ولا لشيءٍ من هذا العالَم كمذهب السوفسطائيَّة.

(٤) وقال غيره: إنَّ العالَم يدثر ويفنى، ولا ثواب ولا عقاب. وقال آخر: العالم غير داثر ولا مستحيل. وقال آخر: إنَّ الأنفس تلحق بالعالم العلوي وتبقى هناك وتلتذُّ. وقال آخر: بل تدثر وترجع إلى هيولاها الأُولى. وقال آخر: الباري ـ جلَّ وعزَّ ـ يمسحها حتى ترى نوره. وقال آخر: بل يمسح العقل، والعقل يمسح النفْس، والنفْس تمسح العالم؛ فتستضيء، وتعاين الأنفسُ الجزئيَّة النَّفسَ الكليَّة. وقال آخر: بل الباري يمسحها في كل دهر، ويتجلَّى حتَّى يُنظَرَ إلى نوره. وقال آخر: إن بثاغورس ارتقى إلى الهواء وعاين عالَم الطَّبيعة وعالَم النَّفْس وعالَم العقل.

الفصل الرابع

أيُّ الفريقين أكْذَب؟!

(١) أعدت القول بذكر جمل هذه النُّكت، ليكون أقرب إلى الفهم بعد ذكر أصولهم وأقاويلهم الَّتي حكيتها على الاختصار دون الشَّرح ودون ذكر اختلافاتهم في الفروع وتناقض كلامهم فيها وتكذيب بعضهم لبعض؛ فإنَّهم لم يتركوا شيئاً نظروا فيه إلاَّ اختلفوا فيه، ورد بعضهم على بعض؛ ومن تتبّع ذلك وقع في شغلٍ شاغل وعناء طويل، لا يحصل منه إلاَّ على العمى والضَّلال والخروج إلى الحيرة والغرق في الوساوس المهلِكة الَّتي زعموا أنّهم أدركوا بها وبعقولهم وفطونهم وآرائهم معرفةَ كيفيّة الباري جلَّ وتعالى، وكيفيّة بدء كون العالم وانتهائه، وما كان قبل حَدَث العالم وبعد فنائه. وسمّوا بعضهم الشُّعراء، يزعمون أنّهم شعروا بهذه الأمور الغائبة بنظرهم، وسمّوا كلامهم شِعراً، واسترقوا هذا الاسم من العرب حين سمّوا به شعراءهم، يعنون أنَّهم شعراء بالأشياء التي ذكروها في شعرهم من التشبيهات في التّشبيب وذكر الدِّيار وفي المدح والهجاء والافتخار وغير ذلك من صفات؛ فصار لهم هذا رسماً، وحسن به ذكرهم، وخلَّدهم على الدَّهر، فتشبَّه هؤلاء الجُهال بهم، وسمّوا أئمَّتهم بهذا الاسم، وزعموا أنَّهم شعراء بهذه الأمور العظيمة العسر تناولها، البعيد مأخذها، وأنَّ عقولهم أحاطت بالعالم كلِّه، وأنّهم ارتقوا إلى الإحاطة بمُحدِث العالم؛ فأوردوا هذا الكفر العظيم واختلفوا فيه هذا الاختلافَ الشَّديد.

(٢) وحقَّ لهم أنْ يتيهوا ويكفروا. فإنَّ من لا يحيط علمه بما فوق سطح

بيته، وبما غاب عن عينه في بيته، حتى يعاينه، ثم يزعم أنّه يرقى إلى السَّماء، ويدرك ما وراء الفَلَك؛ ومن لا يقدر أن يعرف كيفيّة نفسِه اللّطيفة الّتي تدبِّر أمرَ جسده، حتَّى يقع في هذه الاختلافات والوساوس؛ ثم يزعم أنّه يحيط علمه بخالق الخلائق أجمعين ومدبِّرهم، ويزعم أنَّه يدرك علم ما كان قبل أنْ كان وما يريد أنْ يكون قبل أنْ يكون، من غير توقيف من نبيٍّ مؤيَّد بوحي من اللَّه؛ حُقَّ له أنْ يتيه ويوسوس، وأنْ يُدْعى مجنوناً معتوهاً، وأن يكفر باللَّه عزَّ وجلَّ، ويطعن على أنبيائه (ع)، وينسبهم إلى الخلاف؛ ولا يرى خلاف هؤلاء التَّائهين، ولا يذكر تناقض كلامهم؛ وأن يدَّعي أنَّ اللَّه أغناهم عن إمام مرشدٍ مؤيَّدٍ من اللَّه الَّذي خلقهم بحكمته وتعطَّف عليهم برحمته، ويزعم أنَّه وَكَلهم إلى آرائهم حتَّى يستغنوا عن اختلافات الأنبياء المؤسَّسة على الحكمة باختلافات هؤلاء الموسوسين المحيِّرة المهلِكة، ثم يقول: قد واللَّهِ تعجَّبنا من قولكم: إنَّ القرآن هو مُعجِز وهو مملوء من التَّناقض وهو أساطير الأوَّلين وهو خرافات!

(٣) فكم بين هذه الاختلافات الَّتي بين هؤلاء الذين ابتدعوها بآرائهم، والتي إن نظر فيها ناظر غير مُستبصِر بهذه الأُمور مُستحكِم في أمر الدِّيانة قادته إلى العمى وأوقعته في الحيرة، وبين الاختلافات الَّتي ذكرها الملحد وعاب بها الأنبياء (ع) الَّذين وضعوها على الحكمة، وهي أمثال مضروبة إذا كُشف عن معانيها اعتدل منها النِّظام، وقامت بها الحدود والأحكام، وظهر صدق الأنبياء عليهم السَّلام؟ وأيُّ الفريقين أكْذَبُ، الَّذين يمزِّقون حلوقهم بما زعم الملحد أنَّه الزُّور والبهتان، يحدِّثنا فلانٌ عن فلانٍ عن محمدٍ (ص) عن جبرائيلَ (ع) عن اللَّه عزَّ وجلَّ، أنَّه قال: «إنَّني أَنَا اللَّه لاَ إِله إلاَّ أَنا فَاعبدني وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكرِي إنَّ السَّاعة آتيَةٌ أَكادُ أُخفِيها لتُجْزى كُلُّ نَفس بِمَا تَسْعى»، فأخبر بأنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ واحد لا إلهَ غيرهُ وأمر بعبادته، وحثَّ على طاعته، وحذَّر مجيء القيامة وما يكون من المجازاة بالأعمال، ووعد وأوعد بالثَّواب والعِقاب؟ أم الذي يقول: حدَّثني طبعي عن نفسي عن عقلي أنَّه عاين ما كان قبل حَدَث العالم، فرأى النَّفس والهيولى والمكان والزَّمان قديمةً مع الباري ـ جلَّ اللَّه وعزَّ ـ وأنَّ النَّفس اشتهت

أن تتجبَّل في هذا العالم، فأعانها الباري حتَّى خلقت العالمَ وأنَّه لولا ذلك لما كان هذا العالم، وأنَّه لا بعثَ ولا ثوابَ ولا عقابَ، وأنَّ النَّاسَ مُهمَلونَ كبهائم الأنعام، وأنَّه لا فضل للبشر على سائر الحيوان، ولا أمرَ ولا نَهْيَ؛ وأنَّ عقلي حدَّثني: أنَّه يبلغ علمَ ما كان قبل حدث العالم وما يكون بعد فنائه، ويبلغ علمَ سرائر الخليقة كلِّه من أوَّل الدَّهر إلى آخره، وأنَّه لا حاجة به إلى معلِّم يعلِّمه، فإنَّه قد استوى مع اللَّه في العلم بجميع الخلائق وكيف خُلقت وكيف طُبعت، وما فيها من الصَّلاح والفساد والضَّر والنَّفع؛ وأنَّ عقله يدرك علم ذلك إذا شاء ونظر فيه وبحث عنه؟ فأيُّ الفريقين أَولى بأن يُسمَّى كذَّاباً، وأنَّه يدَّعي الزُّور والبهتان؟

(٤) من أنصف ولم يغرَّ نفسه، ونظر في اختلافات هؤلاء الَّذين نظروا في هذه الأمور العظيمة، وأوردوا هذه الآراء المتناقضة من ذات أنفسهم وبعقولهم، وفي اختلافات الأنبياء (ع) وما رسموه في شرائعهم بالحكمة، وضربوا الأمثال بوحي من اللَّه عزَّ وجلَّ، وميَّز بينهما، عرف الصواب من الخطأ، والحقَّ من الباطل، والصِّدق من الكذب. فإنَّ الأنبياء (ع) وإن اختلفت ألفاظهم بضرب الأمثال، فإنَّ معانيها متفِقة. ولم يختلفوا في أصل الدِّين وفي توحيد اللَّه عزَّ وجلَّ، واتَّفقوا أنَّ اللَّه جلَّ ذكره إلهٌ واحدٌ لا إله غيره، وأنَّه قديم لا قديم معه، وأنَّه لم يزل ولا يزال، وهو خالق جميع الخلائق لا من شيء، ولا خالق غيره؛ ووصفوه جلَّ ذكره بأحسن الصِّفات كما هو أهله؛ واتَّفقوا أنَّه بعث النَّبيِّين مبشِّرين ومنذرين، واختارهم من خلقه واصطفاهم لتبليغ رسالاته، وأنَّه خلق دارين، داراً للسعي والعلم وداراً للثَّواب والعِقاب، وأنَّ العباد مأمورون منهيُّون مبعوثون بعد الموت محاسَبون مدانون بأعمالهم، وأنَّ اللَّه «يجزي الَّذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى»، وأنَّ الجنَّة والنَّار هما العُقبى. وسلكوا في هذا سبيلاً واحدةً، لم يختلفوا في شيءٍ منه، ودعوا كلهم إلى عبادة اللَّه بالأعمال الَّتي اتَّفقوا على أصولها مثل الصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والمناسك والقرابين وسائر الفرائض والسُّنن التي في أُصول الدِّين، لم يختلفوا في شيءٍ منها، ودعوا كلّهم إلى ذلك وشهد بعضهم لبعض بالصِّدق والنُّبوَّة، ودعوا إلى منهاج واحد في باب

الاستعباد. وإنَّما اختلفوا في وضع الشَّرائع، مثل أوقات الصَّلاة وعدد ركعاتها، وحدود الزَّكوات، ومواقيت الصِّيام وغير ذلك من الفروع امتحاناً من اللَّه عزَّ وجلَّ لخلقه واختباراً لهم، كما أمر موسى (ع) بالصَّلاة التي هي أصل الدِّين في جميع الشَّرائع، ولكنَّه أمره أنْ يتَّخذ بيت المقدس قبلةً. وكذلك أمر عيسى (ع) بالصَّلاة، وأمره أنْ يتَّخذ المشرق قبله؛ وشهد عيسى لموسى بالصِّدق والنُّبوَّة.

وإنَّما فعلوا ذلك، ليظهر المطيع من العاصي والضَّال من المهتدي والخاضع المنقاد من المتكبِّر الباغي، وليكون الثَّواب والعِقاب على حسب الطَّاعة والمعصية، كما قال اللَّه عزَّ وجلَّ: «وَمَا جَعَلْنا القِبْلَةَ الَّتي كُنْتَ عَلَيْها إلاَّ لِنَعْلَم من يَتَّبعُ الرَّسولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيه»، فقد دلَّ ذلك على أنَّه امتحنهم، ليعرف من يتَّبع الرَّسول ممَّن ينقلب على عَقِبَيه. ثم قال: «وإنْ كَانَتْ لكبيرةً إلاَّ على الَّذين هدى اللَّه»، أيْ أنَّ مخالفته (ص) لمن تقدَّمه في تغيير القبلة هي كبيرة مُنكَرة عند من لا يعرف مراده، «إلاَّ على الَّذين هَدَى اللَّه» فعرفوا مغزاه في ذلك، وعلموا أنَّه بحكمه. وقال جلَّ ذكره: «وَلَو شاءَ اللَّه لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدةً وَلَكنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إلى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون»، ألا تراه يقول: «لِيَبلُوَكُمْ فيما آتاكُم» أي يمتحنكم؛ وحَثَّهم على عمل الخيرات، فقال: «فاستَبِقوا الخيرات» فإنَّ مرجعكم إلى الَّذي يجازيكم باختلافكم وائتلافكم؟ وقال: «وَلَو شَاءَ ربُكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمةً واحِدةً وَلا يَزالُونَ مُختلفينَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّك ولذلكَ خَلَقهُمْ»، يعني خلقهم وامتحنهم بالاختلاف والائتلاف ليظهر المطيع من العاصي كما ذكرنا، وليكون مرجعهم إلى الأنبياء، وليرضوا بحكمهم ويقيموا طاعتهم، كما قال عزَّ وجلَّ: «كان النَّاس أُمَّةً واحدةً فبعث اللَّه النَّبيِّين مُبَشِّرينَ ومُنْذِرين وَأَنْزَلَ مَعَهُم الكِتابَ بِالحقِّ لِيَحْكُم بَيْنَ النَّاس فِيما اخْتَلَفُوا فيه»، ثمَّ عرَّفنا أنَّ الباغين في كلّ أمَّة امتحنهم اللَّه بطاعة الأنبياء، فخالفوهم بعد أنْ رأوا البيِّنات، فقال: «وَمَا اخْتَلفَ فِيهِ إلاَّ الَّذين أُوتُوه مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُم البيِّنات بَغْياً بَيْنَهُمْ».

(٥) فهكذا كان سبيل الأنبياء، وسبب اختلافهم في وضع الشَّرائع. فأمَّا في

الأصول فلم يختلفوا: ولو اتَّفقوا كلهم في وجوه الاستعباد، لما ظهرت منزلة الأنبياء، ولا كانت درجةٌ لمن جاء بعد من تقدَّمه؛ فكان لا يقدر على تغيير البِدَع الَّتي أبدعها الضَّالون في كل شريعة، ولسقط الامتحان من اللَّه عزَّ وجلَّ لخلقه، ولبطل الأمر والنَّهي، فلم تكن طاعة ولا معصية ولا ثواب ولا عقاب. فهذه علَّة اختلافهم في وضع الرُّسوم، وأسَّسوا شرائعهم على العلم والحكمة بوحي من اللَّه عزَّ وجلَّ، ولم يختلفوا في أصول الدِّين والتَّوحيد، كما اختلف هؤلاء الضُّلَّال الذين وضعوا هذه الوساوس بآرائهم واختلفوا في الباري عزَّ وجلَّ، وفي جميع الأُصول والفروع، وأبطلوا كلّهم العبادة والثَّواب والعِقاب، وجعلوا النَّاس مُهمَلين كالبهائم، وأوجبوا أنْ لا يكون لهم سائس ومؤدِّب في الدنيا ومُرشِد في الدِّين.

الفصل الخامس

لا اختلاف بين الأنبياء في الأصول

(١) وأمّا ما ذكره الملحد عن المجوس وغيرهم من القول بالاثنين، وعن النَّصارى وقولهم في المسيح (ع)، فإنَّ ذلك ليس من الأنبياء؛ بل هو من المبتدعين في كلِّ أُمَّةٍ على حسب ما ذكرنا. فأمّا المجوس فقلنا إنَّ سبب قولهم بالاثنين وتركهم رسوم الأنبياء، أصل بدعهم هو من موزنوش تلميذ بثاغورس الذي دخل مملكة الفرس، وأخذ عنه وارطوس هذا القول ودعا إلى المجوس، فأجابوه. ثم تكثَّرت فيهم البِدَع بعد ذلك.

(٢) وأمّا النَّصارى وقولهم في المسيح أنَّه ابن اللَّه، فإنَّهم ضلُّوا بالتَّأويل؛ لأنَّ المسيح (ع) قال في الإنجيل إنَّه ابن اللَّه؛ ولم يعن به أنَّه ابنه من جهة الولادة ـ عزَّ اللَّه أن يتَّخذ صاحبة وولداً ـ ولكنَّه أراد أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ رفعه وأعلى منزلتَه وقرَّبه واختاره واصطفاه وأحبَّه، وضرب في هذا مثلاً، كما يحب الإنسان ولده ويصطفيه ويقرِّبه ويودُّه ويشفق عليه ويختصُّه من بين جميع النَّاس؛ فأعلمهم أنَّ قربه من اللَّه عزَّ وجلَّ واختصاصه به كاختصاص الولد بوالده، وأنَّ اللَّه يحبُّه ويودُّه ويشفق عليه، كمحبَّة الوالد لولده وإشفاقه عليه وودِّه له؛ وأنَّه وليُّ اللَّه كما قال في مواضع كثيرة من الإنجيل ما يدلُّ على ما قلنا. وقال لحوارِيّيه أنتم أبناء اللَّه، على هذا المعنى، أي أنَّ اللَّه اختصَّهم واختارهم وأنَّه يودُّهم ويشفق عليهم.

(٣) وقال لليهود إنَّهم أبناء الشَّيطان، كما هو مكتوب في الإنجيل أنَّ اليهود

قالت له: أنت تشهد لنفسك وما شهادتُك عندنا بصادقة. فأجابهم وقال: كالَّذي علَّمني أبي، كذلك أنطق وأقول، وإنما أسعى بمرضاته في كلِّ حين؛ فأما أنتم فإنَّما تعملون أعمال أبيكم. قالوا له: لسنا لغير اللّه وإنَّما أبونا اللَّهُ الواحد القهَّار. قال لهم: لو كان اللَّه أباكم، لأجبتموني وأطعتموني لأنّي جئت من عند اللّه؛ وإنَّما أنتم من أبٍ باغٍ أشرّ، وإنَّما تريدون العمل بشهوة أبيكم الَّذي لم يزل من بدءِ أمره للنَّاس قاتلاً، ولا يقوى على الحق لأنّه ليس فيه شيء من الحقِّ لأنَّه كذوبٌ وأبو الكذب ومُنْشِئُه ومبتدعه؛ ومن كان من اللّه فإنَّه يسمع كلام اللَّه ويطيع أمرَه؛ وأنتم لا تسمعون ولا تصدِّقون لأنكم لستُم من أولياء اللَّه.

فانظرْ في هذا الكلام واستدلَّ به على ما قلنا: إنَّه إنَّما أراد أنَّه ابن اللَّه على ما وصفنا. ألا تراه يقول لليهود: كالذي علَّمني أبي كذلك أنطق، وأنتم فإنَّما تعملون أعمال أبيكم؛ وهم يقولون له: لسنا لغير اللَّه، وإنَّما أبونا اللَّه الواحد القهَّار؛ ولم يعنوا أنَّه أبوهم من جهة الولادة، ولكن أرادوا أنَّهم أولياؤه كما وصفنا؟ ألا تراه يقول: وأنتم من أبٍ باغٍ أشرّ، وإنَّما تريدون العمل بشهوة أبيكم، يعني به أنَّهم أبناء الشَّيطان، لا أنَّهم وُلِدوا منه، ولكنهم أولياؤه؟ ألاَّ تراه يقول: لستُم من أولياء اللَّه، ويقول لأنَّه كذوب وأبو الكذب؛ فجعل الشَّيطان أبا الكذب: وقال: لو كان اللَّه أباكم لأجبتموني؛ وقال: لستم من أولياء اللَّه. فهذا كلُّه يدلُّ على أنَّه لمَّا قال لهم أبناءُ اللَّه، عني به أولياءَ اللَّه. وكذلك حين قال إنَّه ابن اللَّه، أي أنَّه وليُّ اللَّه.

قال لحوارِيِّيه في الإنجيل: آمنوا بالنُّور لتكونوا لِلَّه أبناء. وأيضاً في الإنجيل أنَّه ظهر لمريم المجدلانيَّة بعد أن خرج من القبر، وقال لها: لا تقربيني فإنِّي لم أصعد إلى عند أبي، ولكن انطلقي وقولي لإخوتي إنِّي صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم. ويقول أيضاً: استعلن ابن اللَّه لأن يبطل أعمال الشَّيطان، كلُّ من وُلد من اللَّه لا يكون خاطئاً لأنّ زرعه فيه ثابت، وبهذا يستبين أبناء اللَّه من أبناء الشَّيطان. وفي موضع آخر: اعلموا أنَّ كلَّ من يعمل البرَّ فإنَّه مولود من اللَّه، وانظروا فما أكثر الودّ الذي أعطاناه الآب أن نُدْعى أبناء اللَّه بأعمالنا، أيُّها الأحبَّاء

نحن الآن أبناء اللَّه. وفي موضع آخر: إذا تصدَّقتَ فلا تعرِّفَنَّ شمالَك ما صنعت يمينُك لتكون صَدَقتُك سرّاً، وأبوك الَّذي يعلم سرَّك يُجزيك علانية، وإذا صلَّيت فادخلْ مخدعك وأغلقْ بابك وصلِّ لأبيك الخفيّ، وأبوك المطَّلع على سريرتك يُجزيك علانية. وفي موضع آخر: أيُّها البنون لا يكون ودُّنا بالكلام ولا باللِّسان بل بأعمال البِرِّ، والحقّ أقول إنما نحن أبناء اللَّه إذا نحن وددنا اللَّه وعملنا بوصاياه، وهذا هو الحقُّ من ودِّ اللَّه كنتم قبل لستم بشعب اللَّه فأمّا الآن فشعب اللَّه. وفي موضع آخر: ستأتي ساعة لا أكلِّمكم بالأمثال فأشرح لكم مجدَ الآب جهاراً. وفي موضع آخر: طوبى لعاملي السِّلم بأنَّهم يُدعون أبناء اللَّه. وفي موضع آخر: قدِّموا الخير إلى من يبغضكم وصلُّوا على الَّذين يطردونكم غضباً لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السَّماء. وفيه أيضاً: إن أنتم غفرتم للنَّاس خطاياهم، فإنَّ أباكم الَّذي في السَّماء يغفر لكم، وإن أنتم لم تغفروا للنَّاس فإنَّ أباكم لا يغفر جهلكم. وفيه أيضاً: يشرق الصدِّيقون كالشَّمس في ملكوت أبيهم، من كانت له أُذنان سامعتان فليسمع. وفيه أيضاً: لا تقطعوا رجاء من سألكم ولا تخيِّبوه ليَكثُر ثوابُكم وأجرُكم وتكونوا للعليِّ أبناء. وفيه أيضاً: لا تدعوا آباءكم في الأرض لأنَّ أباكم واحد في السَّماء. وفيه أيضاً: إن كنتم أيُّها الأشرار تعلمون أن تُعطوا أبناءكم مواهب صالحة، فبكم أحرى أبوكم الَّذي في السَّماء يُعطي القدس الَّذي تسألونه.

هذا كله مكتوب في الإنجيل. ومن تدبَّره وميّز قوله عرف مراده حين يقول مرَّة: جئت من عند أبي وأنطلق إلى عند أبي. ومرّة يقول لحوارييه: وصلُّوا على الَّذين يطردونكم غضباً لتكونوا أبناء أبيكم في السَّماء. ومرَّة يقول: لا تدعوا أباً لكم في الأرض لأن أباكم واحد في السَّماء. ويقول: تكونوا للعليِّ أبناءً. ويقول: فبكم أحرى أبوكم الَّذي في السَّماء يعطي القدس الَّذي تسألونه؛ فسمّاه أيضاً أباً للأشرار إذا صلحوا وسألوه القدس. ويقول للحواريِّين: أنتم شعب اللَّه. ويقول: يستبين أبناء اللَّه أبناء الشَّيطان. وإنَّما يعني بهذا كلِّه أولياء اللَّه وأهل خالصته والمطيعين له؛ كما سمَّى المطيعين للشَّيطان أبناء الشَّيطان. وعلى هذا المعنى، قال: جئتُ من عند أبي وإبيكم وأنطلق إلى عند أبي وأبيكم الَّذي في

السَّماء. ويدعوهم أيضاً لنفسه حيث يقول: يا بني أنا معكم زُمَيْنٌ يسير، وستطلبونني من بعده. إنَّما يعني بقوله يا بني، يا أوليائي وخلصائي، ويعني أنَّه يودُّهم ويشفق عليهم كما يشفق الوالد على ولده ويودُّه.

فمن تدبّر هذا الكلام علم أنَّ هذه المعاني كما ذكرنا. وهذا في الإنجيل كثير، أنَّه سمَّى نفسه ابن اللَّه، وسمَّى الحواريِّين أبناء اللَّه، وكان مراده من ذلك ما ذكرناه، وجعل هذا اللَّفظ مثلاً. ألا تراه يقول: ستأتي ساعة لا أكلِّمكم بالأمثال وأشرح لكم مجد الآب جهاراً؟

(٤) وقد قال في مواضع كثيرة في الإنجيل إنَّه ابن البشر وابن الإنسان. قال في موضع: بحقّ أقول لكم ما جاء ابن البشر إلاَّ ليُحيي ما كان هالكاً. وفي موضع آخر: إنَّا نصعد إلى وادي شلم وابن البشر يسلَّم إلى عظماء الكهنة فيسحبونه للموت. وفي موضع آخر: إنَّكم لا تكلمون بني إسرائيل حتى يأتيكم ابن الإنسان. وفي موضع آخر: الآن ظهر مجد ابن الإنسان، ومدحه وحمد اللَّه به وعلى يديه. فهذه الألفاظ كلُّها تدلُّ على ما قلنا حين سمَّى نفسه ابن اللَّه، والحواريِّين أبناء اللَّه، وأراد بهذا كلِّه أنَّهم أولياء اللَّه وخلصاؤه؛ ولو لم يكن الأمر كما قلنا، لوجب على النَّصارى أن يدعوا الحواريِّين كلَّهم أبناءَ اللَّه، كما قالت في المسيح إنَّه ابن اللَّه. وقد بيَّن المسيح (ع) في الإنجيل أنَّ الأمر كما ذكرنا؛ لأنَّه قال في مواضع كثيرة إنَّه ابن البشر وابن الإنسان، وعرَّفهم أنَّه لا يريد بقوله ابن اللَّه أنَّه من جهة الولادة ابن اللَّه ـ تعالى اللَّه عن ذلك ـ؛ ولكنَّ النَّصارى غلطت في التَّأويل وغلطت في القول، فضلَّت وقالت هو آبٌ وابن.

(٥) وقد قالت غلاة هذه الأمَّة في النَّبيِّ (ص) وعن عليٍّ كرَّم اللَّه وجهه والأئمَّة من بعدهما أعظمَ من هذا. فإنَّهم قالوا إنَّهم آلهة ـ لا إله إلاَّ اللَّه سبحانه ـ بل كثير منهم ادَّعوا لسلمان وغيره مثل ذلك. وهذا باب يطول القول به، ومقالات الغلاة مشهورة في هذه الأمَّة وفي جميع الأُمَم في قولهم بإلهيَّة البشر ـ وليس للملحد حجَّة في طعنه على الأنبياء (ع) وفي عيبه المسلمين بضلالة

النَّصارى، وما ابتدعه من جهل معاني كلام الأنبياء في كلامه ـ فضلّوا في القول وافتروا على اللَّه. ولو أنَّ الأُمم كلَّها اهتدت قاطبة ولم يقم في كلِّ شريعة هؤلاء المبتدعون الَّذين اختلفوا في الأهواء واعتقدوا الرِّياسات وضلُّوا عن طريق الهدى وسواء السَّبيل وتأوَّلوا كلامَ الأنبياء بآرائهم ولم يرجعوا إلى العلماء استنكافاً واستكباراً وأضلُّوا أتباعهم، لسقط الاختلافُ وصفا الأمرُ وارتفعت المحنةُ؛ ولكنَّ اللَّه امتحن الخلق بالاختلافات، ليطلبوا الائتلاف، ويَدَعوا التنازع والتفرُّق، ويعرفوا معاني كلام الرُّسل؛ فيقتدوا بأوليائه الهادين، ويجتنبوا سبيل أعدائه الضالين؛ لأنَّ الدُّنيا دار المحنة ومحلُّ فتنة، ميَّز اللَّه فيها بين العباد وابتلاهم بما أراد، «لِيَجْزِيَ الَّذينَ أَساؤوا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذين أَحْسَنُوا بالحُسْنى».

(٦) فسبيل النَّصارى في القول بأنَّ المسيح ابن اللَّه، وسبيل المجوس في القول بالاثنين، وسبيل سائر الضُّلاَّل في كلِّ أمَّة، هو على ما شرحناه؛ وليس ضلالُهم وبِدَعُهم بحجَّة للملحد. فإنَّ الأنبياء لم يختلفوا في أصل الدِّين، واتَّفقوا كلّهم على أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ واحد لا إله غيره، ولا ضدَّ له ولا ندَّ، ولم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يُشرك في ملكه وسلطانه وحكمه من بريَّته أحداً؛ ودعوا إلى عبادته على حسب ما قدمنا القول به. وقد نزَّههم اللَّه أن يقولوا في اللَّه سبحانه ما لا يليق بعظمته وكبريائه ـ تعالى اللَّه عما يقول الظَّالمون علواً كبيراً ـ ونزَّه أنبياءَه (ع) والهادين من أُمَمِهم عن الافتراءِ على اللَّه، فلم يختلفوا في أصول العبادة. كما شرحنا أنَّهم أمروا بها ودعوا إليها ووعدوا وأوعدوا وحثُّوا الأنام على الاجتهاد وعلى طلب ما عليه المعوّل، وله القصد، وعنه يجب البحث والنَّظر، رجاءً للثَّواب وخشية من العقاب في يوم المداينة والجزاء.

(٧) وإنْ لم يكن الأمر على ما دعوا إليه، ولم يكن نشور ولا بعث ولا جنَّة ولا نار على ما ادّعاه الملحدون والمعطِّلون، فإنَّ النظر في هذه الأمور والبحث عنها، لا معنى ولا محصول له، والجاهل والعالم والبرّ والفاجر والظَّالم والعادل فيها سواء؛ وإذاً، ليس لإتعاب النفس والمشقَّة في البحث عن ذلك وطلبه معنى، إذ لم يكن في ذلك نفع ولا جدوى. ونعوذ باللَّه أن يكون كذلك؛ بل الأمر كما

قال الصَّادق جعفر بن محمد (ع) لبعض الملحدين: إنْ كان الأمر كما تقولون ـ وليس كما تقولون ـ فقد نجونا ونجوتم؛ وإنْ كان الأمر كما نقول ـ وهو كما نقول ـ فقد نجونا وهلكتم. ونقول إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ لم ينشئ هذا الخلق لعباً، ولا خلق السَّمٰوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا بعث النَّبيِّين عبثاً، ولا ترك النَّاس سدىً؛ «وَذَلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار».

(٨) وأمَّا قول الملحد إنَّ القرآن يخالف ما عليه اليهود والنَّصارى من قتل المسيح (ع)، لأنَّ اليهود والنَّصارى يقولون إنَّ المسيح قُتِلَ وصُلِبَ، والقرآن ينطق بأنَّه لم يُقْتَل ولم يُصْلَب، وأنَّ اللَّه رفعه إليه، فإنَّا نقول: إنَّ الذي في القرآن هو حقٌّ وصدقٌ، وهو مَثَل ضربه اللَّه، يعرف تأويلَه أهلُ العلم من الأمَّة. ومع ذلك فقد قال بعض العلماء قولاً، ذكروا: «أنَّ معنى قوله عزَّ وجلَّ: «وَمَا قَتَلُوهُ يَقيناً: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْه» إنَّما عنى أنَّهم وإن كانوا ادَّعوا أنَّهم قتلوه فإنَّه حيٌّ، رفعه اللَّه إليه، وهو عند اللَّه محبور مكرَّم مسرور، لأنَّه شهيد؛ والشُّهداء هم أحياء عند اللَّه، كما وصفهم اللَّه به، فقال جلّ ذكره: «وَلاَ تَقُولُوا لِمنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّه أَمْواتٌ بَلْ أحياء وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ»، وقال في آية أخرى: «وَلاَ تَحْسبنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُم اللَّه مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ»، قال: فكذلك سبيل المسيح (ع) لم يقتلوه يقيناً أي لم يقتلوه، على الحقيقة، لأنَّه شهيد رفعه اللَّه إليه، وهو حيٌّ عنده، محبورٌ مسرورٌ.

(٩) ومثل ذلك في الإنجيل في بشرى يوحنَّا: أنَّ المسيح مات بالجسد وهو حيٌّ بالروح، فتفكَّروا بأنَّ الَّذي مات بالجسد استراح من الخطايا. وفي بشرى لوقا: أقول لكم يا أوليائي لا تخافوا الَّذين يَقتلون الجسد ولا يقدرون على غير ذلك. أخبركم ممَّن تخافون من الذي يقتل الجسد وهو مسلَّط أن يقذفه في نار جهنَّم، أقول لكم يقيناً إنِّي أصير إلى ملكوت السَّماء، وهذا جسدي يُبذل للموت في سبيلكم، فلذلك فاصنعوا كل ما اجتمعتم لذكري. وفي بشرى متى: ما سمعتم بآذانكم فنادوا به فوق الطَّوايا ولا تخشوا الَّذين يقتلون الجسد ولا يقدرون

على قتل النَّفس واخشوا من يقدر أن يهلك النَّفْس ويطرح الجسد في النَّار.

(١٠) فهذا ما في الإنجيل؛ وهو موافق لما في القرآن في هذا المعنى. وقد قال المسيح (ع) إنَّه يبذل جسده للموت ويصير إلى ملكوت اللّه. وقال: يقتلون الجسد ولا يقدرون على قتل النَّفس. وقد وافق هذا القول ما قال اللّه عزَّ وجلَّ في القرآن: «وَمَا قَتَلُوهُ يَقيناً بَلْ رَفَعَهُ اللّه إِلَيْهِ». وقال جلَّ ذكره في آية أخرى مخاطَبة للمسيح (ع): «إِنِّي مُتوفِّيكَ وَرَافِعُكَ إليَّ». وقال في آية أخرى حكاية عن المسيح (ع): «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيب عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ شهيدٌ». فقال: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. ثم قال: فلمَّا توفَّيتني كنت أنت الرَّقيب عليهم وأنت على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، فدلَّ أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ توفَّاه لمَّا غاب عنهم. فالقرآن قد وافق الإنجيل أنَّ اللّه توفَّاه ورفعه إليه وأنَّه حيٌّ عند اللّه، وصحَّ هذا المعنى من القرآن والأنجيل وبَطُلَت دعوى الملحد أنَّ القرآن يخالف الإنجيل في هذا الباب.

الفصل السادس

الشرائعُ كلُّها حق ولكن خلط به الباطل

(١) قال الملحد: رأينا اعتماد المقلِّدين في اعتقادهم صحَّةَ مذاهبهم على تصديق أسلافهم وتعظيم أئمَّتهم وكثرة مساعدتهم؛ يعني بذلك أهل الإسلام. ثمَّ قال: إن كان ذلك حقاً لهذه العلَّة، فكذلك سبيل اليهود والنَّصارى والمجوس وغيرهم من أهل المِلَل، لأنَّ سبيلَهم في ذلك سبيلُ أهل الإسلام. وإن كان من جهة القهر والغلبة، فكذلك لهذه الملل مثل ذلك، كغلبة النَّصارى بروميَّة، واليهود بخزر، والمجوس في بعض الجبال، والمنَّانيَّة بالصِّين والتُّرك، والبراهمة بالهند، كغلبة المسلمين بالعراق والحجاز والشَّام وخُراسان وسائر البلدان. فإذا النَّصرانيَّة حقٌّ بروميَّة وباطلٌ في سائر البلدان، وكذلك اليهوديَّة حقٌّ بالخزر وباطل في سائر البلدان، والمجوسيَّة حقٌّ أيَّام الأكاسرة وباطل في دولة الإسلام، وإن وجب ذلك، وجب أن يكون الشيء حقّاً باطلاً وهذا خلف؛ هذا قول الملحد.

نقول في جوابه:

(٢) لا يجوز أنْ يكون الشَّيءُ حقّاً باطلاً. ولكنَّا نقول: إنَّ أصل هذه المِلَل كلِّها حقٌّ لا مرية فيه لأنَّها من رسوم الأنبياء (ع)، رسموها لأُممهم وأمروهم بالاقتداءِ بما فيها، وكلُّ نبيٍّ دلَّ على النَّبيِّ الَّذي يجيءُ بعده، وشهد بصدق من تقدَّمه، وأمروا أممهم بالإيمان بمن مضى والتَّصديق لمن يجيءُ بعدهم؛ فاختلفت أهواؤهم، وابتدعوا البِدَع،

وبغى بعضهم على بعض، وخلطوا بدعهم بسُنن الأنبياء (ع)؛ وبعث اللّه عزَّ وجلَّ النَّبيِّين في دهور شتَّى وأزمنة مختلفة ليعظوهم ويعرِّفوهم وجهَ الحقِّ من الباطل وسبيلَ الهدى من الضَّلال ويخلِّصوا السُّنن من البدع؛ وامتحن عزَّ وجلَّ عباده بطاعتهم. فكلُّ نبيٍّ جاء وافق من تقدَّمه في أصل التَّوحيد، ودعوا كلّهم إلى عبادة الواحد الباري سبحانه، ووضعوا للنَّاس كتباً بوحي من اللّه عزَّ وجلَّ ومن كلامه: فبقيت قوَّة ذلك الوحي وصار طلسماً للأُمم الَّذين تمسَّكوا بتلك الشَّرائع ورسخ ذلك في قلوبهم لأنَّه زَرْعُ الأنبياءِ، ولكن قد خُلطت فيه البدع كما يختلط العشب بالزَّرع؛ مثل ما قال المسيح في المثل الَّذي ضربه فقال: يشبه ملكوت السَّماء رجلاً زرع في قريته زرعاً صالحاً، فلما رقد الناس جاء عدوٌّ له فزرع زُؤاناً بين الحنطة. وقد ذكرنا هذا المثل وتفسيره. فهكذا كانوا يخلطون البدع بالسُّنن، وكان ذلك بمنزلة الزُّؤان الذي زرعه الشَّيطان بين الحنطة.

(٣) فكذلك كان سبيل المبتدعين في كلِّ شريعة حبّاً منهم للرِّياسة وتنافساً على أعراض الدُّنيا. فدعاهم ذلك إلى تكذيب من جاءهم من الأنبياء بعد الأنبياء الَّذين تقدَّموهم، وتعلَّقوا بالرُّسوم الَّتي كانت في أيديهم، واستغووا ضعفاءهم الَّذين لم يعرفوا حقائق ما في الكتب، لأنَّ أكثر كلام الأنبياء كان مرموزاً كما ذكرنا، وعرف حقائقَها العلماءُ الأتقياء من بعد الأنبياء في كلِّ أمَّة. فخالفهم الرُّؤساء المبتدعون، وبغوا عليهم، وتعلَّقوا بتلك الرُّسوم التي خلطوها ببدعهم وزادوا فيها ونقصوا؛ كما ذكر اللّه عزَّ وجلَّ ذلك في القرآن، فقال: «وإنَّ مِنهُمْ لَفَريقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِن الكِتابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ». وظواهر رسوم الأنبياء، الَّتي هي في أيدي الأُمم، هي حقٌّ، والبدع التي خلطها بها المبتدعون هي باطلٌ. والمتمسّكون بتلك الرُّسوم معهم حقٌّ قد خُلط بباطل. فعلى هذا، النَّصرانيَّة بروميّة واليهوديَّة بالخزر والمجوسيّة في بعض الجبال ـ وسبيلها كما قلنا في كل بلد وفي كل دهر وزمان ـ معهم حقٌّ قد خُلط بباطل.

ومثال ذلك، مثال إنسان معه صرّةُ مسك قد خلط به أضعافه مما يشاكل جرمه جرم المسك مثل الزّعفران ولبِّ الفستق المحرّق وغير ذلك ممَّا يُغَشُّ به المسك، ويُنفق كلُّه بريح المسك؛ ومثل الذَّهب والفضَّة وما يختلط بهما من الأجسام المذابة، فينفق مع الذهب والفضَّة النَّقيَّة.

(٤) والبِدَع التي خُلطت بتلك الرُّسوم مثال ما ذكرنا من الغشوش. وقد ذكر حزقيال النَّبيّ في كتابه مثل ذلك وقال: «أوحى الرَّبُّ إليَّ وقال: يا أيُّها الإنسانُ قد صار بنو إسرائيل كلُّهم عندي مرذَّلين كالنُّحاس والرَّصاص ومثال الحديد والأُسربِّ المختلطة بالفضَّة في الكوز، هآنذا جامعكم إلى أورشليم كما تُجمع الفضَّةُ والحديد والنُّحاس والرَّصاص والأسربُّ في الكوز، كذلك تذوبون وتعلمون أنّي أنا الرَّبُّ الَّذي أنزلت بكم غضبي».

(٥) فهكذا سبيل الشَّرائع كلِّها، هي حقٌّ قد خُلط بباطل. وبقي أهل تلك الشَّرائع المستولية على تلك الرُّسوم، وضلُّوا عن سبيل الهدى، ولا يحسنون أن يميِّزوا الحقَّ من الباطل. ولولا ما في تلك الرُّسوم من قوَّة الوحي الَّذي هو كلام اللَّه كالتَّوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزَّلة، لنفقت البدع ولما بقي رسم الشَّرائع في العالم؛ ولكنَّ تلك القوَّةَ قد أمسكت عليهم الرُّسوم، وجذبت قلوب البشر إلى تلك الشَّرائع؛ وبتلك القوَّة صارت لهم الغلبة والقهر في هذه الممالك؛ ولكنَّه حقٌّ ممتزج بباطل. وبهذا شهدت الأُمم المتأخرة للأمم المتقدِّمة، كشهادة النَّصارى: أنَّ التَّوراة حقٌّ، وما أبدعه اليهود باطلٌ؛ وكشهادة أهل الإسلام: أن التَّوراة والإنجيل حقٌّ، وما أبدعه اليهود والنَّصارى باطل؛ والمتمسِّكون بذلك جاهلون ضالُّون، لتركهم أمرَ الأنبياء الَّذين جاءوا بعد من تقدَّمهم، ودعوا الأُمم إلى أن يميِّزوا لهم الحقَّ من الباطل، ويعرِّفوهم سبيلَ الهدى؛ كما هو مكتوب في الإنجيل، أنَّ يوحنَّا الصابغ قال: أنا أصبغكم بالماءِ، فأمَّا الذي يجيء بعدي فيصبغكم بروح القدس وبالنَّار، الذي بيده المدرى، ينقِّي بيادره ويحرز الحنطة في أهرائه.

(٦) ولولا أنَّ أصل هذه الكتب حقٌّ، وهي منزَّلة من اللَّه عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه (ع)، لما أقرَّ محمد (ص) أحداً من أهل الذِّمة عليها، بل كان يستنّ فيهم بسنَّة العرب الَّذين كانوا عبدة الأصنام. فإنَّه حملهم على خطبين: إمَّا قبول ما أتى به، وإمَّا القتل؛ ولم يقبل منهم الجزية كما قبلها من أهل الذِّمة، لأنَّه وجدهم عاكفين على الأصنام الَّتي ابتدعوها وادَّعوا أنَّهم على ملَّة إبراهيم (ع)؛ وبعث اللَّه محمداً بإحياءِ ملَّة إبراهيم، فقطع رسوم المبتدعين في تلك الملَّة، إذْ كان اللَّه عزَّ وجلَّ أرسله بتجديدها، فقال: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُم الْمُسلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا». ونقَّى الملَّة من البدع، وجدَّد ما كان من رسوم إبراهيم (ع) مثل حجِّ البيت والختان وسائر ذلك ممَّا كانت عليه العرب من بقايا سُنن إبراهيم، وأقرَّ اليهود والنَّصارى على مِلَلِهم، لتبقى رسوم الأنبياء، وتكون عبرةً للحكماء والعلماء في هذه الملَّة، وحجَّةً للَّه على النَّاس أجمعين؛ وألزمهم الجزية والذِّلة لمَّا امتنعوا من قبول ما جاء به، ومن إجابتهم في إقامة طاعته فيما دعاهم إليه من أن يخلِّص لهم الحقَّ الَّذي معهم من الباطل الَّذي خلطوه به. ولولا أنَّه (ص) أراد أن يعرِّف النَّاس أنَّ الَّذي معهم من الكتب المنزَّلة هو حق لما أقرَّهم على ذلك؛ فإنَّ شوكتهم كانت أهون من شوكة العرب، ولو شاء لأبادهم وقطع رسومهم كما فعل بالعرب؛ فكان لا يبقى في دار الإسلام شيء من رسوم أهل الذِّمَّة، إذ كان الإسلام قد غلب جميع الأمم.

(٧) ولما فُتحت بلاد العجم، أراد عمر بن الخطاب أن يقتل المجوس وأن لا يقبل منهم الجزية. فقال عليٌّ (ع) إنَّه كان لهم نبيٌّ وكتاب، فيجب أن تستنَّ فيهم بسنَّة أهل الكتاب: فأقرَّهم حينئذ على ملَّتهم. ولولا أنَّ معهم رسماً من رسوم الأنبياء (ع)، وإن كانوا قد خلطوه بالبدع، لما كان يوجد في مملكة الإسلام مجوسيّ.

(٨) فالمِلل كلُّها سبيلها على ما ذكرنا، هي حقٌّ، وهي رسوم الأنبياء، لكن قد خُلط بها الباطل؛ ومثالها ما قد ذكرناه في باب المسك والذَّهب والفضَّة؛ فهي في جميع المواضع، وفي كل دهر وزمان، حقٌّ قد خُلط به الباطل؛ وليس الأمر

كما ذكر الملحد: أنَّه كان الأمر بالغلبة والقهر، فاليهوديَّة حقٌّ بالخزر، والنَّصرانيَّة حقٌّ بروميَّة، وهما باطل في غيرهما من المواضع، وكذلك المجوسية حقٌّ أيَّام الأكاسرة وباطل في دولة الإسلام، وأنّه إن وجب ذلك، وجب أن يكون الشَّيء حقاً باطلاً، وهذا خلف. هكذا قال الملحد. وليست له في هذا حجَّة، لأنَّ سبيل الملل كما ذكرنا أنَّها حقٌّ قد خُلط بها الباطل في كلِّ بلد وفي كلِّ وقت وزمان، وليست بحقٍّ في بلد وفي وقت وباطل في بلد وفي وقت، فيكون الحقُّ باطلاً ويكون خلفاً. ونذكر ما يجب في باب الغلبة والقهر بعد هذا في موضعه، ولنُشبع القول فيه إن شاء اللّٰه تعالى.

الباب الخامس

الفصل الأول

ومما قال الملحد أيضاً

(١) قال الملحد: أخبرونا، من وجد إلى أمر طريقين، فسلك الأطول منهما والأوعر؛ وهل يكون مريداً للأفضل والأصلح من يجد إلى تعريف شيءٍ من وجهين سبيلاً، فيعرفه من أعسرهما وأبعدهما وأكثرهما ريباً وشكوكاً وجلباً لسوء العواقب، ويدع ما خالف هذه الوجوه؟ فإن قلتم: لا ، قلنا: فهلاً ألهم اللّٰه عباده معرفة منافعهم ومضارِّهم في عاجلهم وآجلهم وترك الاحتجاج ببعضهم على بعض، فإنَّا نرى ذلك قد أهلك كثيراً من النَّاس وأدخل عليهم أعظم البلاء في عاجلهم بالعيان وفي آجلهم؛ أمَّا في عاجلهم فلتصديق كلِّ أمَّة إمامَها، وضرب بعضهم وجوه بعض بالسَّيف واجتهادهم في ذلك. وقال: لولا ما انعقد بين النَّاس بأسباب الدِّيانات، لسقطت المجاذبات والمحاربات والبلايا؛ لأنَّ المنازعات تقع إمَّا لعاجل وإمَّا لآجل. وأورد كلاماً طويلاً في هذا الباب، ولكن هذه جملته.

(٢) وقال أيضاً: إن قلتم إنَّ المجاذبات والمحاربات، من أجل إيثارهم أعراض الدُّنيا، قلنا لكم: هل رأيتم أحداً آثر القليل على الكثير إلاَّ لشكٍّ منه في نيل الكثير. فإن قلتم: نعم، كابرتم: وإن قلتم: لا، فكذلك المُؤْثِر لأعراض الدُّنيا وشهواتها على الأمور الجليلة والثَّواب العظيم الَّذي عجز الواصفون عنه، ليس ذلك إلاَّ لشكٍّ منه في نيل ذلك الكثير العظيم الدَّائم الذي يعجز الواصفون عنه؛ كما نرى الرَّجل يُؤْثِر المائة دينار على الألف إذا خاف فوت المائة والألف؛ فإذا كان مستيقناً أنَّه يصل إلى الألف، مع ترك المائة، فإنَّه لا يرى أخذ المائة.

قال: وكذلك لو أنَّ النَّاس أخلصوا اليقين بقول أئمَّتهم فيما وعدوهم من الثَّواب الجزيل، لما آثروا القليل من عاجلهم على الكثير من آجلهم. قال: وفِيمَ جُعل بعض الخلق أئمَّة لبعض؟ هو إشلاءُ بعضهم على بعض وكثرة الهرج والفساد والتَّهالك؛ وليس يجوز هذا في حكمة الحكيم، بل الأفضل والأعمُّ للنَّفع أن يلهم النَّاس معرفة منافعهم ومضارِّهم، ويركِّب ذلك في طباعهم كما ركَّبه في طباع البهائم؛ فإنَّا نرى البهائم بطباعها وبضروب من الرَّوائح تعرف كثيراً من الأشياء التي لا توافقها. فهلاَّ جعل النَّاس كذلك، إذ كان ذلك في طباعهم ممكناً؟ فإنَّ ذلك أعمُّ نفعاً وأحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمَّة لبعض.

هذا قول الملحد، وحذفنا الكثير منه تركاً للتَّطويل، وذكرت النُّكت منه. وإنَّما أراد بقوله: جعل بعضهم أئمَّة لبعض، أنّه اختار منهم أنبياء ورسلاً، فجعلهم أئمَّة لهم. وقد تقدَّم القول منَّا فيما ذكرنا أنَّه جرى بيننا وبينه؛ وفيما أجبناه مَقْنَع لمن أنصف إن شاء اللَّه ولكنَّا نعيده، ونشبع القول به، إذ كان رسمه في كتابه.

فنقول في جوابه:

(٣) إنَّ الأفضلَ والأصلحَ والأشبهَ بحكمة الحكيم أن يقصد لأيسر الأمرين ويأتي من أقرب الطَّريقين ويترك الأوعر والأبعد. وقد وجدنا ما اختاره اللَّه عزَّ وجلَّ لخلقه بأن بعث فيهم أنبياء ورُسُلاً وجعل بعضهم أئمَّة لبعض، هو أشبه بحكمته ورحمته وأحوط لعباده وأعمُّ نفعاً، وهو أيسرُ الأمرين وأقرب الطَّريقين من أن يكلفهم النَّظر في أمور دنياهم، وأن يهملهم في أمور أخراهم، فيكونوا كالسَّوائم المهملة التي قد طُبعت على منافعها ومضارها، فعرفت ذلك بضروب من الرَّوائح وبطباعها، وميَّزت ذلك، وأهملت في أمر معادها، فلا ثواب عليها ولا عقاب، على حسب ما اختاره الملحد لنفسه وأشباهه؛ وأنه لو جُعل مثل البهيمة على هذه الشَّريطة لكان خيراً له. ولَعمري إنَّهم لو كانوا كالبهائم في صورها وطباعها لسقط عنهم الثواب والعقاب، ولكان ذلك خيراً لهم من أن كانوا

في دنياهم في صور البشر وفي معرفة البهائم: فألحدوا في دين اللّٰه، وهم يُرَدُّون في أخراهم إلى العذاب الأليم.

(٤) فأمَّا أهل الدِّيانة، فما اختاره اللّٰه لهم من طاعة الأنبياءِ والرُّسل التي قامت بها سياستهم في أولاهم، ثم جازاهم على ذلك بالثَّواب الجزيل في أُخراهم، هو خير لهم وأعمُّ نفعاً من أن يكون سبيلهم سبيل البهائم. وبعد، فلو اختار اللّٰه لهم ما ذكره الملحد لقلنا: إنَّ الذي اختاره اللّٰه لهم هو خير لهم. ولكنَّا نجدهم محتاجين إلى الأئمَّة والمعلمين في جميع أسباب الدِّين والدُّنيا، ولا نجدهم قد ألهموا ذلك طبعاً، ولا يستغنون عن معلِّمين في كلّ صناعة. ولو أنَّ أحدهم تكلَّف شيئاً من الصِّناعات من غير تعليم من معلِّم قد راضه وعلَّمه حتى مهر به، ثم خاض فيه بتكلُّفه، لأفسد علمه، ولا يلتئم له شيء ممَّا يحاوله. هذا في الأمور الدُّنيويَّة، فكيف من ينظر في أمور الدِّين وما يحتاج إليه من دقيق العلم وجليله؟ وكذلك في سائر العلوم الدُّنيويَّة الدَّقيقة مثل النُّجوم والهندسة ومعرفة الطَّبائع وغير ذلك، لا يستغني النَّاظر فيها عن معلِّم يوقفه على تلك الأصول.

(٥) فترى الصَّانع الحكيم، الرَّحيم بخلقه، قد اختار لهم أن يبعث فيهم أنبياء، فعلَّموهم هذه الأسباب بوحي من اللّٰه عزَّ وجلَّ؛ ثمَّ أخذها الآخر عن الأوَّل بتعليم. ولم يكلَّفوا أن ينظروا في ذلك بطباعهم؛ وهذا ما نشاهده ونعاينه. ولو كُلِّفوا ذلك كذلك، لكُلِّفوا عسيراً، لتفاوت طبقات النَّاس في العقول والأفهام والتَّمييز والمعرفة؛ لأنَّ النَّاس لم يُخلقوا متساوين في الطَّبائع، كما خُلقت البهائم الَّتي لا تتفاضل في معرفة ما تحتاج إليه، ولأنَّ كلَّ طبقة من الحيوان قد استوت في طباعها من معرفة ما كُلِّفت من طلب الغذاء والتَّناسل، فلا تفاوت فيها، كما ذكرنا من تفاوت طبقات النَّاس في العقول والأفهام. وهكذا نرى التَّفاوت في جبلَّة البشر وفي جبلَّة الحيوان. ولو خلقهم الحكيم جلَّ ذكره متساوين على خلقة البهائم، لقلنا ما اختاره اللّٰه لهم، وهو خير لهم. ولكنَّه عزَّ وجلَّ أعدل وأحكم وأرحم من أن يسوّي بين البشر والبهائم، وهو سبحانه أحسن الخالقين.

الفصل الثاني

في القهر والغَلَبة

(١) وأمَّا قوله: لولا ما انعقد بين النَّاس بأسباب الدِّيانات لسقطت المجاذبات والمحاربات، من أجل إيثارهم أعراض الدُّنيا؛ وأنَّهم إنَّما آثروا القليل من عرض الدُّنيا على الثَّواب الجزيل في الأخرى، لأنَّهم شكُّوا في نيل الكثير والجزاء العظيم؛ وضرب المثل بالألف دينار والمائة كما حكينا.

نقول في جوابه:

(٢) إنَّا قد نجد أكثر المجاذبات والمحاربات في أمور الدُّنيا، لا في أمور الدِّين؛ لأنَّا نرى الحروب بين أهل الملل بعضهم في إثر بعض أكثر من محاربتهم لمخالفيهم، تنازعاً في الدُّنيا وتنافساً عليها؛ كما نشاهده في دار الإسلام من المنازعات على الممالك والأمصار. وهكذا سبيل سائر أهل الملل في بلادهم؛ وليس ذلك من جهة أنَّ أهل الإسلام شكُّوا في الإسلام، وأنكروا ما جاء به مُحَمَّد (ص)، بل اتَّفقوا على الإقرار به والتَّمسك بشرائعه وإقامتها. وكذلك سائر أهل الملل والمتنازعين بينهم لم يشكُّوا في مللهم ولم يتنازعوا فيها، ولكنهم آثروا الدُّنيا على الدِّين، وهم موقنون بالثواب والعقاب اللَّذين وُعدوا وأُوعدوا بهما؛ فاختاروا عَرَض الدُّنيا على الآخرة، إلاَّ القليل من النَّاس. ونرى كثيراً منهم يقتلون الأنفس ويأخذون الأموال ويرتكبون المحارم ويأتون الحدود، وقد عرفوا ما يحرم عليهم من ذلك، وآمنوا بالعقاب على ما يرتكبونه في أُخراهم، ولا يرتابون فيما

أُوعدوا من العذاب الأليم، ولا يشكُّون فيما وُعدوا من الثواب العظيم على اجتناب هذه الحدود والقصد لأعمال الخير، وقد أيقنوا بذلك ويعتقدونه في دينهم؛ ولكن الشَّهوة الغريزيَّة تحملهم على ذلك وتغلب عقولهم، حتى يختاروا الأخسَّ على الأفضل، وذلك على يقين وبصيرة. وهذا أشهر من أن يحتاج فيه إلى شاهد ودليل. ومن دفع هذا فقد ردَّ العيان وكابر.

(٣) فإن شغب مشغب وعاند ودفع العيان، قلنا: فهل تشكُّ فيما يُلحق أهل العبث والفساد في هذه الدُّنيا من القتل والصلب وقطع الأيدي والأرجل والحبس والضَّرب وغير ذلك ممَّا يلحقهم على ما يرتكبونه، وهم يشاهدون ذلك ويعاينونه ولا يرتدعون؟ فهل يقدر على دفع هذا أحد وهل يردّه إلاَّ مجنون؟ ولولا ما سنّه الأنبياء (ع) في كلّ أمَّة، بأن أقاموا فيهم أئمَّة يأخذون على أيدي سفهائهم، يعلِّمون جاهلهم ويحامون عن ضعفائهم ويقمعون أهل العبث والفساد ويقيمون فيهم الحدود من القصاص والقود وغير ذلك، كما سنَّه محمَّد (ص)، لتهارج النَّاس، وفسد أمر العالم، ولما كان يسالم بعضهم بعضاً كما يجري عليه أمر أصناف الحيوان من المسالمة؛ فإنَّها لا يعدو بعضها عى بعض في أجناسها؛ إلاَّ ما يعدو بعض الأجناس على بعض ويصيدها للغذاء وطلب الرزق. ولكنَّ النَّاس قد طُبعوا على الحرص والتّنافس على أعراض الدُّنيا والجمع والادِّخار وما رُكِّب فيهم من حبِّ الشَّهوات من النِّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذَّهب والفضَّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث وسائر ذلك من متاع الدُّنيا؛ وليس سبيل أصناف الحيوان هكذا. كما نرى أنّ إنساناً لو جمع ما يعلم أنّه يكفيه ألف سنةٍ وزيادة، لما انتهى عن الجمع والزِّيادة فيه والحرص عليه؛ وكل أصناف الحيوان تطلب غذاءها مقدار ما يشبعها، وليس سبيلها سبيل البشر.

(٤) فلذلك اختار اللّه عزَّ وجلَّ للنَّاس أئمَّة يسوسونهم ويقوّمونهم، ليستقيم أمر العالم، ويكون فيه صلاح النَّاس ديناً ودنيا، فيحيا الأنام ولا يهلكوا، كما قال اللّه تعالى: «وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّه النَّاسَ بَعْضَهُم بِبِعْض. . .» بما شرعه الأنبياء للنَّاس وسنُّوه وحملوهم عليه وأقاموا فيهم الحدود والأحكام.

والنَّاس وإن كانوا يتنافسون في أمور الدُّنيا، فإنَّ كلَّ متغلِّب لا يقدر على التَّغلُّب حتَّى يكون مرجعه إلى الدِّين ويقهر النَّاس على ذلك الأصل وبتلك الرِّيح؛ كما نرى لو أنَّ يهودياً أو نصرانيّاً أو مَن كان من أيِّ ملَّة غير ملَّة الإسلام، إن أراد أن يتغلَّب في دار الإسلام، لما أطاق ذلك ولا قدر عليه. وهم مع إيثارهم أعراض الدُّنيا على الآخرة، غير شاكِّين في أمر الملَّة حسب ما قد شرحناه. وكذلك السَّبيل في سائر الملل، لا يقدر أحد أن يرأسهم حتَّى يكون من أهل ملَّتهم في البلدان التي تغلَّبوا عليها.

(٥) وما قال الملحد: إنَّهم آثروا الدُّنيا على الدِّين، لأنهم شكُّوا في أمر الدِّين، فهو من أمحل المحال، وهو ردٌّ للعيان: لأنَّ المتجاذبين في أمر الدُّنيا والمتنافسين فيها، مرجعهم إلى الدُّنيا؛ ويجتمعون على كل متغلِّب بريح الدِّيانة في كلِّ ملَّة على ما ذكرنا؛ كما نرى من اقتداءِ هذه الأمَّة بمن هو أَولى بالخلافة، وتفويضهم أمر الخلافة إليه. وكذلك من يرى الخلافة في قريش، يجعلونها فيمن هو مقدَّم عندهم في الدِّين. وهكذا سبيل اليهود في اقتدائهم بآل داود؛ وكذلك سبيل كل أمَّة، وإن كان الأمر مختلطاً عليهم من غَلَبة الأهواء، فأصلهم على ما قلنا. وكذلك الملوك في كلِّ أمّة، ملكوا النَّاس بريح الدِّيانة، ثم قويت أسبابهم بالتَّغلُّب، ومع ذلك فإنَّهم حملوا النَّاس على أحكام الدِّين في كلِّ أمّة حتى انتظم أمرهم، واستتبَّ أمر العالم بريح الدِّين في الوقت المعلوم.

(٦) وكذلك قول الملحد: إنَّه لولا ما انعقد بين النَّاس بأسباب الدِّيانات، لسقطت المجاذبات والمحاربات، هو أمحل من الأوَّل؛ لأنَّ المجاذبات والمحاربات، كما قلنا، هي في أمور الدُّنيا أكثر وأعمَّ، ولولا الدِّين وشرائع الأنبياء الَّتي قام بها أمرُ العالم وانتظم لتفانى النَّاسُ، ولما قامت في الأرض سياسة. فبأحكام الأنبياء (ع) قد استقام العالم؛ وهذا واضح لا خفاء به، والحمد للَّه.

الفصل الثالث

الفرق بين المعجزات والدلائل

(١) قال الملحد في باب المعجزات قولاً كثيراً، وجعله سؤالاً وجواباً، وضعّف فيه حجج من ادَّعى المعجزات للأنبياء (ع) واحتجَّ بكلام واهٍ: نتركه، ونختصر النُّكت التي ادَّعاها، ونذكر بعض دلائل مُحمَّدٍ (ص) ومعجزاته التي ليس في وسع البشر أن يأتوا بمثلها إلاَّ بتأييد من اللَّه عزَّ وجلَّ؛ وهي على وجوه كثيرة، فنذكر من كلِّ وجه شيئاً بالاختصار دون ذكر الجميع؛ لأنَّنا إنْ ذكرناها بأسرها، ذهب الكتاب بقنِّها، وطال القول بها، لأنَّها كثيرة جداً. وقد اتَّفقت عليها الأمَّة، وشاهدها المؤمن والكافر، وأخذها الخَلَف عن السَّلَف. وليس قول الملحد بحجَّة حين زعم أن أعلام مُحَمَّدٍ (ص) نقلها واحد واثنان وثلاثة، ويجوز عليهم التَّواطؤ؛ لأنَّ أكثرها ما قد شاهدها عدد كثير من المسلمين والكافرين ولا يجوز عليهم التَّواطؤ؛ وأكثرها برهانها واضح، وشاهدها عدل قائم، لا مدفع له. ولكنا لا نحتجُّ عليه بما يقدر الملحدون على دفعه وإنكاره، وإنما نذكرها ليكون لها في الكتاب رسم، فإنَّ النَّاظر في كتابنا هذا لا يخلو من أن يكون موافقاً أو مخالفاً؛ فأمَّا الموافق، فإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يزيده بذلك إيماناً وتصديقاً؛ ولعلَّ بعض المخالفين يوفِّقه اللَّه للرُّشد والهداية. ثم نكشف بعد ذكرها عمَّا في القرآن العظيم من المعجزة الكبيرة الَّتي هي حجَّة أكيدة على الملحدين، وبرهان واضح منير لا يقدر على دفعه إلاَّ مُباهِت مُكابِر؛ لأنَّه عَلم قائم في العالم، وليست سبيله سبيل الدَّلائل والمعجزات الَّتي قد سلفت، ويقدر الملحدون أن ينكروها، ويدَّعون أنه يجوز عليها التَّواطؤ، وأنهم لم يشاهدوها، ولا يقبلون دعاوينا فيها إلاَّ

ببراهين حاضرة؛ كما قال الملحد في كتابه، وكما ادَّعى أنَّ مثل هذه الأسباب قد كانت ممَّن لم يدَّع النُبوَّة؛ ثم ذكر عمل أصحاب الخفَّة والشَّعبذة كالرَّقص على الأرسان، والدَّوران على الأسنَّة فوق الرِّماح، وكلام القافية والكهَّان وسحر السَّحَرة، وغير ذلك ممَّا ادَّعاه وعارض به من يدَّعي المعجزات للأنبياء (ع).

(٢) ثم قال: إنّكم تدّعون أنَّ المعجزة قائمة موجودة وهي القرآن، وتقولون من أنكر ذلك فليأتِ بمثله. وقال: نحن نأتيكم بألف مثله. وسوف نشرح ما في القرآن من المُعجِز العظيم حتَّى يعلم الملحدون أنَّه لا يقدر أهل الأرض أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وباللَّه الحول والقوَّة.

نقول:

(٣) إن دلائل محمَّدٍ (ص) ومعجزاته كثيرة، وهي على وجوه: فمنها ما يقال لها دلائل ومنها ما يقال لها معجزات. فأمَّا المعجزات فإنَّها تسمَّى معجزات، وتسمَّى دلائل؛ لأنَّها أسباب يأتي بها الأنبياء (ع) ويعجز غيرهم أن يأتوا بمثلها؛ فلذلك يقال إنَّها معجزات. وتكون دالَّة على صدق دعواهم في نبوُّاتهم؛ فلذلك يقال لها دلائل. ومنها أسباب يقال لها دلالات، ولا يقال لها معجزات؛ لأنَّها أسباب لا يأتي بها النَّبيُّ بنفسه، بل تكون من غيره، وتدلُّ على نبوّته؛ كقول نبيٍّ يشهد لمن يجيء بعده ويدلُّ عليه، مثل الَّذي هو في التَّوراة والإنجيل وسائر الكتب من الدَّلائل على نبوَّة محمَّدٍ (ص)، ومثل أشياء حدثت في العالم كما حدث أيَّام كسرى من ارتجاس الإيوان وغير ذلك؛ فسأل عنه الكهنة، فتكلَّموا فيه بما يكون من بعد، ودلُّوا على ظهور محمَّد (ص) بالنُّبوَّة. وكذلك ما جاء عن سائر الكهَّان من سَجَعهم بنبوَّته، مثل كلام البهائم والسِّباع وغير ذلك ونطقهم بنبوَّته، وآيات كانت في العالم نحو ذلك. فهذه يقال لها دلائل ولا يقال لها معجزات، لأنَّها كانت من غيره فيه، لم يأتِ هو بها بنفسه. فكلُّ هذه يقال لها أعلام ويقال لها آيات؛ لأنَّها علامات وشواهد تدلُّ عليه؛ وهذه الوجوه كلُّها من الآيات والأعلام الَّتي قد كانت لمحمَّدٍ (ص). ونحن نذكر من كلِّ نوع شيئاً على الاختصار كما شرطنا، ونترك الطَّويل بذكر الجميع، وباللَّه التَّوفيق.

الفصل الرابع

ذكر دلائل محمد في الكتب المنزَّلة

(١) في التَّوراة أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ قال لبني إسرائيل: إنِّي أقيم نبيّاً من إخوتكم أجعل كلامي على فمه. فإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، والنَّبيُّ الذي قام في بني إسماعيل هو محمَّد (ص). وفي التَّوراة أيضاً: جاء اللَّه من سيناء وأشرف من ساعير وأضاء من جبال فاران. فمجيءُ اللَّه من سيناءَ هو مجيءُ موسى (ع)، لأن اللَّه أعطاه الألواح بطور سيناء؛ وإشراقه من ساعير هو خروج المسيح (ع)، لأنَّه كان من ساعير، من أرض الجليل من قرية يقال لها ناصرة؛ وإضاءته من جبال فاران هي ظهور محمَّدٍ (ص) من مكَّة، لأنَّ فاران هو مكَّة؛ وفي التَّوراة أنَّ إسماعيل كان يتعلَّم الرَّمي في برِّية فاران، وهذا ما لا مرية فيه أن إسماعيل نشأ بمكَّة وفيها تعلَّم الرَّمي.

(٢) وفي الإنجيل، قال المسيح: إنِّي ذاهب وسيأتيكم «البارقليط» روح الحق الذي لا يتكلَّم من قبل نفسه، ويعلِّمكم كلَّ شيءٍ، وهو يشهد لي كما شهدت له، وهو يُرْسَل باسمي. قوله يُرسَل باسمي أي يكون صاحب شريعة مثله. ولم يخرج بعده صاحب شريعة مثله إلاَّ محمَّد، وهو شهد له كما شهد محمَّد له. وفي الزَّبور في صفة مُحمَّدٍ (ص): أنَّه ينقذ الضَّعيف الَّذي لا ناصر له، ويرأف بالمساكين، ويصلَّى عليه في كلِّ وقت ويُبارَك عليه في كلِّ يوم ويدوم ذكره إلى الأبد ويحوز ملكه من البحر إلى البحر. فهذا ما لا مرية فيه أنَّه صفة محمَّدٍ (ص)، لأن شريعته متَّصلة بالقيامة لا تنسخ، ولا نبيَّ بعده، فهو الذي ذكره يدوم

إلى الأبد، وهو الَّذي يُصلَّى عليه ويُبارَك في كلِّ يوم وفي كلِّ وقت. وفي كتاب إشعياء: قال لي الرَّب أقم نظَّاراً ليخبر بما يرى، فكان الَّذي رأى صاحب المنظرة، قال: قد أقبل راكبان أحدهما على حمار والآخر على جمل، فبينا أنا كذلك إذ أقبل أحد الرَّاكبين وهو يقول: هوت هوت بابل، ونكست جميع آلهتها النَّخرة على الأرض. فهذا الَّذي سمعت من الرَّبِّ إله إسرائيل العزيز، قد نبأتكم به. يعني براكب الحمار المسيح (ع) لأنّه دخل أورشليم وهو راكب حماراً؛ ويعني براكب الجمل محمّداً (ص)، لأنَّه دخل المدينة وهو راكب الجمل، وعلى يديه فُتحت بابل وكُسِّرت أصنامها. وفي كتاب إشعياء أيضاً: عبدي الذي سرَّت به نفسي أحمد المحمود بحمد اللَّه حمداً حديثاً تفرح به البرِّيَّة وسكَّانها؛ فهذا إفصاح باسمه، والبرِّيَّة يعني البادية، لأنَّها مسكن العرب وبها أرض الحجاز ومنها خرج مُحمَّد (ص). وفي كتاب إشعياء أيضاً: لتفرح الأرض البادية، ولتبتهج البراري والفلوات، وليخرج نور كنور الشَّنبليد وتستنير وتزهو مثل الوعا، لأنها ستعطي بأحمد محاسن الشأن. وفي كتاب إشعياء أيضاً: وُلِد لنا مولود ووهب لنا ابن على كتفيه علامة النُّبوَّة. ولم يكن أحد من الأنبياء على كتفيه علامة النُّبوَّة غير محمَّدٍ (ص). وفي كتاب حبقُّوق: لقد انكشفت السَّماء من بهاء محمَّدٍ وامتلأت الأرض من حمده. هذا، مع كلام كثير مثله يذكره في كتابه.

(٣) وفي كتاب دانيال رؤياه الَّتي رآها وعبَّرها، وذكر تفسيرها، وقال فيها: رأيت عتيق الأيَّام قد جلس وبين يديه ألف ألف خَدَّام يخدمونه وكُتَّاب لا تحصى، وذكر أشياء كثيرة قد جرى ذكرها في صدر كتابنا هذا وقال فيها: رأيت على سحاب السَّماء كهيئة إنسان فانتهى إلى عتيق الأيام وقدَّموه بين يديه فخوَّلوه المُلك والسُّلطان والكرامة، وأن تتعبَّد له جميع الشُّعوب والأُمم واللُّغات، سلطانه دائم إلى الأبد، وملكه لا يتغيَّر إلى الأبد. وقد ذكرنا رؤياه هذه وتفسيرها، ويُغني ذلك عن إعادة ذكره. وفي كتابه أيضاً في تعبير الرُّؤيا التي رآها المَلِك، في آخر كلامه: فيفتح إله السَّماء في تلك الأيَّام مُلكاً دائماً لا يتغيَّر ولا يزول، ولا يذر لغيره من الأمم مملكة ولا سلطاناً، بل يدقُّ ويبيد الممالك كلَّها، ويقول هو إلى

دهر الدّاهرين. هذا في تعبير الحجر الذي دق ذلك الصَّنم من الحديد والنُّحاس والخزف الذي رآه الملك في رؤياه؛ وهو مشهور في كتاب دانيال وفي حديثه الَّذي في أيدي العامَّة. وفي كتاب إرميا: جعلتك نبيّاً للأمم لتنسف وتهدم وتبيد وتسحق وتبني وتغرس. وفي كتاب هوشع: أنا الرَّبُّ الإله الَّذي أرعاك في البدو في أرض خراب قفر. فليس نبيٌّ خرج في أرض قفر إلاَّ محمَّدٌ (ص)، لأنَّه خرج في البادية.

فهذه دلائله، صلَّى اللَّه عليه وآله، في كتب الأنبياء (ع)؛ وأهل الكتاب يقرأونها، ولا ينكرون ما قد ذكرنا منها؛ لأنَّها مكتوبة في هذه الكتب؛ ولكن قد غلب عليهم الهوى ورموا بالخذلان والعمى، ليقضي اللَّه أمراً كان مفعولاً. وفيها من هذا النَّحو دلائل كثيرة، تركنا الأكثر منها لشرط الاختصار الذي قدَّمنا، أنّا نذكر من كلّ فنٍّ شيئاً دون الجميع. وهذا ما لا يجوز عليه التَّواطؤ، وليس هو ممّا نقله رجل أو رجلان أو ثلاثة، كما ادَّعاه الملحد؛ لأنَّها نبوّات من الأنبياءِ، وكانوا في دهور متباينة قبل مُحمَّدٍ (ص) بزمن طويل.

الفصل الخامس

أعلام محمد (ص) في الإسلام

(١) ووجه آخر من دلالاته وأعلامه، أمور حدثت في العالم، دلَّت على نبوّته، مثل: حديث كسرى وإيوانه، وسطيح الكاهن. فإنَّه لمّا كان في اللَّيلة التي وُلِد فيها رسول اللَّه (ص) ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، فاهتمّ لذلك كسرى، وجمع وزراءه وموابذته، وسألهم عن الحال فيه. فقال له الموبذان الأكبر: أنا رأيت في هذه اللَّيلة في منامي إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة، دخلت من بلاد العرب، فَرَعت في بلاد العجم. وما لبث إلاَّ قليلاً حتّى أتاه كتاب من عامله بفارس: أن نار فارس طُفئت في تلك اللَّيلة ولم تُطفَأ قبل ذلك بألف عام. فهمّه ذلك، واستقصى في البحث عنه. فقالوا: حادثة تكون في بلاد العرب! فكتب إلى النَّعمان بن المنذر ليبعث إليه رجلاً عالِماً يسأله عن أشياء. فبعث إليه عبد المسيح بن عمرو بن نُفيلة العبادي. فلما قدم عليه سأله عن ذلك، فقال: عِلمُ هذا عند خالٍ لي بالشَّام، اسمه سطيح. فجهّزه وأخرجه إليه ليسأله. فخرج حتّى قَدِم عليه وهو بآخر رمقٍ، فوقف عليه، وقال: «أصمّ أم يسمع غطريف اليمن»، في سجع له. فلما سمعها سطيح، رفع رأسه، وقال: عبد المسيح جاء إلى سطيح وقد أوفى على الضّريح. بعثك ملك ساسان لارتجاس الإيوان ورؤيا الموبذان وخمود النِّيران. قال: نعم، فما تقول في ذلك. قال: إذا كثرت التِّلاوة وفاض وادي السَّماوة وغارت بحيرة ساوة، بُعث صاحب الهراوة، فليست الشَّام لسطيح شاماً. قال: متى يكون هذا؟ قال: يملك منهم

ملوك وملكات على عدد الشُّرفات، وكل ما هو آتٍ آت. فانصرف عبد المسيح إلى كسرى، وأخبره بقول سطيح. فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً، قد كانت أمور. فملك منهم أربعة عشر ملكاً في مدة يسيرة؛ وهذا حديث طويل اختصرناه.

ومثل هذا حديث كاهن كان بعسفان. فسافر إليه هاشم بن عبد مناف وأُميَّة بن عبد شمس؛ وقيل له: احكم بينهما أيُّهما أشرف. فقال: والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجوّ من طائر وما اهتدى بعلم مسافر، لقد سبق هاشم إلى مآثر، أوّلاً منه وآخر، وسيكون له ولد فاخر على كل بادٍ وحاضر، نبيّ مؤيَّد طاهر واللَّه لدينه ناصر، وهو على الأديان كلّها ظاهر إلى انقضاء الدُّهور الغوابر.

ومثل هذا حديث عبد المطَّلب، حين وُلِد رسول اللَّه (ص) أخذه عبد المطَّلب فأدخله على هبل كما كانت قريش تفعل بمن يولد لهم. فولّى رسول اللَّه (ص) وجهه عن هبل. فارتاع عبد المطَّلب لذلك، وسمع صوتاً من جوف الصَّنم ـ ويقال من جدار الكعبة ـ يقول: ما لهذا وللصَّنم، إنَّ ذا سيّد الأمم، من فصيح ومن عجم، ورسول لذي النِّعم، يبطل الشِّرك والصَّنم، ثمَّ يجلو دجى الظُّلَم. فارتعدت فرائص عبد المطّلب وفزع فزعاً شديداً؛ وهو حديث طويل اختصرناه.

ومثله أيضاً، حديث العبّاس بن مرداس السّلميّ: أنَّه كان عند صنم لبني سُلَيم يقال له «ضِمار». فسمع صوتاً من جوف الصَّنم في بعض اللَّيالي يقول:

قل للقبائل من سُلَيم كلِّها ... هلك الضِّمار وعاش أهلُ المسجدِ
أودى ضِمار وكان يعبد مرّة ... قبل الكتاب إلى النّبيّ محمّدِ

في أبيات كثيرة؛ فخرج فزعاً وتلقاه رجل على نعامة وهو يقول: بشِّر الجنَّ وأبلاسَها، ألا قد كفيت السَّماء أحراسها ووضعت الحربُ أحلاسَها وتجرّعت أنفاسَها للنور الذي نزل يوم الاثنين وليلة الثلاثاء على صاحب الناقة العضباء في وادي العنقاء. فرجع العباس بن مرداس إلى ضمار فأحرقه، ثم توجه إلى النبي (ص) وآمن به، وقال في ذلك شعراً:

لعمرك أنّي يوم أجعل جاهلاً ضماراً لِربّ العالمين مشاركا
فآمنت باللّه الذي أنا عبده وخالفت من أمسى يريد المهالكا

وهذه قصيدة طويلة. فهذه من جهة الكهّان وسدنة الأصنام؛ ومثلها أخبار كثيرة تركنا ذكرها وهذا وجه من الدّلالات.

(٢) ووجه آخر من أعلامه، كلام أصناف الحيوان من البهائم والسِّباع وغير ذلك ونطقهم بنبوّته (ص). من ذلك: حديث أهبان بن أوس الأسلمي مكلِّم الذئب، كان في غنم له فرأى ذئباً قد شدَّ على ظَبْي فصاده، فحمل عليه أهبان فانتزعه منه، فأقعى الذِّئب بعيداً منه على ذَنَبه، ثم قال: ما لي ولك تسلب منّي رزقاً رزقنيه اللّه ليس من مالك؟ فتحيّر أهبان لذلك وقال: يا عجبي ذئب يتكلّم! فقال الذئب: أعجبُ من كلامي رسول اللّه بين هذه النَّخلات يحدّث النَّاس بأخبار ما سبق وأنباءِ ما يكون، يدعو إلى عبادة الرَّحمن وتأبون إلاَّ عبادة الأوثان. فأتى أهبان رسولَ اللّه (ص) وآمن به؛ وله حديث. ووُلده يسمّون إلى يومنا هذا بنو مكلِّم الذئب. وله في ذلك شعر يقول فيه:

رعيت الضأن أحميها بكلبي من اللصِّ الخفيِّ وكلِّ ذيبِ
فلمّا أن سمعت الذِّئبَ نادى يبشّرني بأحمدَ من قريبِ
سعيتُ إليه قد شمَّرْتُ ثوبي عن السَّاقين في الوفد الرّكيبِ
فألفيت النبيَّ يقول قولاً صَدُوقاً ليس بالهزل الكذوبِ

وهي قصيدة. ومنه أنَّ بعيراً للوليد بن مغيرة المخزوميّ تكلَّم في اليوم الذي وُلِد فيه رسول اللّه (ص) وقال: هذا أحمد قد وُلِد، أفلح منكم من تبعه وخسر من ولَّى عنه. فأقبل الوليد وهو يقول: يا آل قريش أدركوا، فإنَّ بعيري قد سُحِر. فاجتمعت قريش والبعير يقول ذلك، والوليد يقول: سُحِر بعيري وربِّ الكعبة. فقال في ذلك بعض قريش:

ألا يا لقوم هل رأيتم بهيمة تكلَّم في النادي بأنباء ما مضى
وتخبر عن عملٍ بما هو كائنٌ فهذا بعيرٌ للوليد قد انبرى

ينادي بأعلى الصّوت والنّاس حوله ألا ضلّت الأصنام واللاّت والعزى
وهـذا أوان الـهـاشـمـيّ مـحـمّـدٍ يـديـن بـديـن الـلّه والـحـقُّ قد بَـدا

ومنها حديث هشام بن سعيد: كان خرج إلى الشام، فاقتنص في طريقه ظبيةً في اليوم الذي وُلِد فيه رسول اللّه (ص) فلمّا صارت في يديه وقبض عليها، تكلّمتْ وقالت: وُلِدَ أحمد بن عبد اللّه سيد المرسلين. ففزع هشام وارتعشت يداه وذهبت الظّبية. فلما قدم الشام دخل على قصير وأخبره بذلك؛ فبعث إلى الرّهبان وجمعهم وأخبرهم بذلك، فقالوا: رأينا الصّوامع في هذه اللّيلة قد أضاءت نوراً ومالت حتى ظنّنا أنّها سقطت، ورأينا قناديل الكنائس كلّها منكوسةً. فحفظوا ذلك اليوم، فإذا هو اليوم الذي وُلِد فيه رسول اللّه (ص).

ومثل هذا من كلام البهائم والطير وغير ذلك أخبار كثيرة تركنا التّطويل بها، مثل البعير الذي جاء إلى رسول اللّه (ص) فاستناخ ورغا، فدعا رسول اللّه (ص) أصحابه وعرّفهم ما شكاه منهم.

ومثله حديث العجل الذي لبني غفار، أرادوا أن يذبحوه فنطق وقال: يا بني غفار أمن نجيح ينجح، صائح بمكة يصيح أن لا إله إلاّ اللّه. فوفد بنو غفار على رسول اللّه (ص) وآمنوا به.

ومثله حديث الجمل الذي نُحر بمكّة فتكلّم بعدما نُحر؛ فأقبل الجزار إلى نادي قريش فقال: هلّموا فاسمعوا العجب! نحرت جزوراً لي وهو يتكلّم! فأقبلوا إليه فإذا هو يقول: وُلِد أحمد، نُحرَتْ قريش كما نُحرتُ. فانصرفوا فإذا عبد المطلّب يحمل محمداً إلى هبل وقد ذكرنا حديثه.

ومثله حديث أتان حليمة، ظئر رسول اللّه (ص). كانت تسبق الرّكْب وكانت قبل ذلك لا تنبعث هزلاً وضراً. وقالوا لها إن لأتانك شأناً. فنطقت وقالت: أعظمُ شأنٍ، حَمَلَتْ سيدَ الأولين والآخرين.

ومثله حديث الطّير الذي أُخذت فراخه فجاء يرفرف على رسول اللّه (ص) فقال: إنَّ هذا الطّير يزعم أنَّ فراخه أُخذت فاطلبوها! فوجدت عند رجل

فسيبّوها. ومثلها أخبار كثيرة، ولكل خبر من هذه وغيرها حديث طويل، تركنا تطويل الخطاب بها؛ وهذا وجه من أعلامه.

(٣) ووجه آخر من أعلامه وهي أمور كانت منه (ص): من ذلك أنَّه لمَّا خرج مهاجراً إلى المدينة مستخفياً من قريش ومضى إلى الغار، جعلت قريش لمن يدلُّ عليه مائةَ ناقةٍ. فخرج سراقة بن جعشم المدلجي على فَرَس له في طلبه، رغبة فيما بذلته قريش. فلحق رسولَ اللّه (ص) في طريقه، فلما رآه (ص) قال: اللّهم امنعه عنّا، فعثر به فرسه وساخت قوائمه في الأرض، فناداه سراقة وقال: يا محمَّد دَعْني وخلِّ عنّي فواللّهِ لا يأتيك عنّي ما تكره! فقال (ص): «اللَّهُم إن كان صادقاً فأنجه». فخرجت قوائم فرسه وانصرف إلى مكَّة وأخبرهم بشأنه. فخاف أبو جهل أن يكون قد أسلم سراقة، فقال:

بني مُدلجٍ إنّي أخال سفيهَكم سراقةَ متسغوٍ لأمر محمَّد

وهي قصيدة مشهورةلأبي جهل فأجابه سراقة:

أبا حكمٍ واللاَّت لو كنت شاهداً لأمر جوادي إذْ تسوخ قوائمُه
شهدتَ ولم تشكك بأنَّ محمَّداً نبيٌّ ببرهان فمن ذا يكاتمه

وهي قصيدة له. وقيل في ذلك شِعر كثير. من ذلك قول أبي بكر:

إن تخسف الأرض بالأحوى وفارسه فانظر إلى أربع في الأرض غوارِ
فهيل لمّا رأى أرساغ معرفة قد سخن في الأرض لم تُحفَر بمحفارِ

ومن ذلك حديث الشجرة التي دعاها فأقبلت إليه تخدّ الأرض؛ وحديثها: أنَّ رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكان من أشدّ الناس بطشاً وأقواهم قوة، قد اعترفت له بذلك قريش كلّها، تلقّاه رسول اللّه (ص) في بعض شعاب مكّة، فقال له: «ألست تزعم أنّك أشدُّ العرب بطشاً وأقواهم قوّة، قد اعتُرف لك بذلك؟».

قال: نعم!

قال: «أرأيتك إنْ صارعتُك فصرعتُك، تؤمن بي، وأنَّ ما أتيتُ به حقّ؟»

قال: نعم!

فصارعه فصرعه رسول اللّه (ص) وأضجعه حتى لا يملك من نفسه شيئاً، فعاد أيضاً فصرعه وفعل به مثل ذلك، حتى فعل به ذلك ثلاث مرّات، فقال: إنَّ هذا واللّهِ لَعجبٌ يا محمّد أن تصرعني وأنا أشدُّ قريش بطشاً!

فقال له رسول اللّه (ص): «إن شئتَ أريتُك ما هو أعجب من هذا إن اتّبعت أمري!»

قال: وما هو؟

قال: «أدعو هذه الشّجرة فتأتيني».

قال: فافعل! فدعاها، فأقبلت تخدّ الأرض حتى وقعتْ بين يديه، ثم قال لها: «ارجعي إلى مكانك!» فرجعت إلى مكانها. فجاء رُكانة إلى نادي قريش وقال: يا آل قريش! ساحِروا بصاحبكم أهل الأرض! فما في الأرض أسحرُ منه! ثم أخبرهم بالذي رأى منه وانتشر ذلك في قريش ولم يزالوا يتحدّثون به، وأخذه الخَلَف من كفّار قريش.

فهذا وجه من أعلامه، ومن هذا النوع أخباره كثيرة، مثل خروجه على قريش لمَّا اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في أمره، فاتّفقوا على أن يجتمع عليه من كل قبيلة قوم فيقتلوه ويطلّ دمه، فلا يقدر بنو هاشم على قريش كلِّها في الطلب بدمه؛ فاجتمعوا على باب داره ليدخلوا عليه، فخرج عليهم ووضع التُّراب على رؤوسهم ومضى وهم لا يرونه.

ومن ذلك حين رماهم يوم بدر بكفٍّ من حصىً وقال: شاهت الوجوه، فهزمهم اللّه، فأنزل اللّه عزَّ وجلَّ في ذلك: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّه رَمَى»، وممَّا يشاكل هذه، أعلام كثيرة.

(٤) ووجه آخر منها: أمور غائبة عنه كان يُخبر بها فيظهر صدقه فيها، من ذلك حديث النَّجاشي حين مات بأرض الحبشة، وقد كان أجاب إلى الإسلام، فقال (ص) لأصحابه: «إنَّ أخاكم النَّجاشيّ قد مات بأرض الحبشة فاخرجوا نصلِّي عليه». فخرج بأصحابه إلى البقيع، فصفَّهم خلفه وصلّى عليه. فحفظوا

ذلك اليوم، ثم ورد الخبر أنَّه مات في ذلك اليوم.

ومثله خبر كسرى لمّا كتب إلى باذانَ وهو عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرَّجل الذي خرج بالحجاز رجلين من عندك يأتياني به، فبعث باذان قهرمانةَ ورجلاً آخرَ معه في ذلك؛ فلمَّا قدما عليه (ص) قال لهما: «إنَّ اللَّه قد أوحى إليَّ أنَّ شيرويه وثب على أبيه كسرى فقتله في شهر كذا من ليلة كذا». فانصرفا إلى باذان فأخبراه بذلك. فقال باذان: ننتظر به، فإن صحَّ ما قال فهو نبيّ، وإن يكُ غير ذلك رأَينا رأْينا فيه. فلم يلبث باذان أن ورد عليه كتاب شيرويه بقتله أباه. فأسلم باذان وأسلم من كان معه من أصحابه.

ومثله حديث خالد بن الوليد لمّا وجهه النبيّ (ص) إلى أُكَيْدَرِ دومة الجندل، وكان ملكاً عليها وكان نصرانيّاً؛ فقال لخالد: «إنك تجده يصيد البقر، ويظفرك اللَّه به». فمضى خالد، فلما قرب من قصره وهو مع حرمه في قصره، وجاءت بقرٌ وحكّت بقرونها باب قصره، فخرج مع نفر من أصحابه يتبع البقر ليصيدها؛ فأوقع به خالد وأخذه وقتل أخاه حسَّان. فقال في ذلك بجير بن بُجَرَة الطَّائي:

تبارك سائقُ البقرات إني رأيت اللَّه يهدي كلَّ هادِ

وهي قصيدة.

ومثله حديث صرد بن عبد اللَّه الأزَدي بعثه رسول اللَّه (ص) وأمره أن يجاهد بمن معه من قبائل اليمن. فمضى ونزل بجرَش وهي يومئذ مدينة مغلقة. فخرجوا إليه والتقوا بجبل يقال له كَشْر. وكان قد أُحضر عند رسول اللَّه (ص) رجلان من جرش وَفَدا لهم، فبينا هما عنده عشيّةً بعد العصر، قال (ص): «أيُّ بلادكم شَكْر؟» فقالا: يا رسول اللَّه! ببلادنا جبل يقال له كشر. فقال: «ليس بكَشْر ولكنه شَكْر، وإن البدن تُنحر فيه الآن». فقال أبو بكر للرجلين: ويَحْكما! إنَّ رسول اللَّه (ص) ينعى إليكما قومكما، فاسألاه أن يدعو اللَّه ليرفع عن قومكما. فسألاه، فقال: «اللَّهُمَّ ارفع عنهم». فرجعا إلى قومهما وقد أصيبوا في ذلك اليوم وفي تلك السَّاعة.

(٥) ووجه آخر وهو قريب من هذا الباب، حديث العباس بن عبد المطّلب حين أُسر، فقال النبي (ص) له: افدِ نفسك وابنَي أخيك عقيلاً ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم فإنك ذو مال». فقال: يا رسول اللّه، ليس لي مال. قال: «فأين المال الذي دفعته إلى أمّ الفضل وقلت لها إن أُصبتُ في سفري هذا فللفضل كذا ولعبد اللّه كذا ولقثم كذا ولعبيد اللّه كذا؟». وذكر له مقدار ما سمّاه لكلّ واحد منهم. فقال له العباس: وربِّ الكعبة ما علم هذا أحد غيري وغيرها، وإنّي لأعلم أنك رسول اللّه. ففدى نفسه وابنَي أخيه وحليفه.

ومثل ذلك حديث ناقته التي ضلّت فخرج قوم في طلبها، وكان زيد بن اللُّصَيْت منافقاً، وكان في رحل عمارة بن حزم، وكان عمارة عقبيّاً بدريّاً، وكان عمارة جالساً عند رسول اللّه (ص)، فقال (ص): إنَّ رجلاً من المنافقين قد قال إنَّ محمَّداً يزعم أنّه نبيّ وأنَّه يُخبر بأخبار السَّماء، وهو لا يدري ناقته أنّى... فقال (ص): «واللّه ما أعلم إلاَّ ما علَّمني اللّه، وقد دلّني عليها، هي في وادي كذا من شعب كذا، قد حبستها شجرة بزمامها». فانطلقوا فوجدوها هناك. فرجع عمارة إلى أهله فحدَّثهم بذلك، فقال أهله: زيد بن اللُّصَيت هو واللّه قال هذا القول. فأقبل عمارة يُجافي عنقه وقال: واللّه إنَّ في رحلي منافقاً داهيةً، واللّه لا يصحبني أبداً. فأخرجه من رحله.

(٦) ومن هذا الوجه أخبار كثيرة، منها أمور كان يخبر أن تكون بعده فكانت كما قال. من ذلك: قوله (ص) في كسرى وقيصر لما بعث حِذّافة بن قيس السَّهمي بكتابه إلى كسرى فلمّا وصل إليه وقرأ كتابه، شقّه وقال: يكتب إليَّ بمثل هذا وهو لي عبد؟ وأمر أن يعطي حذّافة بن قيس كفّاً من تراب. فقال رسول اللّه (ص): «مزّق ملكه وملّكني من أرضه!»، فكان كما قال. وكتب إلى قيصر مع دحية بن خليفة الكلبي فأخذ كتابه ووضعه بين فخذه وخاصرته، فقال رسول اللّه (ص): «ثبّت ملكه!»، فكان كما قال.

ومنها قوله لعليٍّ ـ كرَّم اللَّه وجهه ـ: «إنَّك تقاتل النَّاكثين والمارقين والفاسقين»، فقاتل بعده هذه الفرق الثَّلاث. وقوله في غزوة العشيرة، حين نظر إليه وهو نائم مع عمّار، وقد أصابه من دقعاء التراب، فوقف عليهما وأيقظهما برجله وجعل ينفض التّراب عن رأس عليٍّ كرَّم اللَّه وجهه، ويقول له: «يا أبا تراب! ألا أُخبرك بأشقى النَّاس؟».

قال: بلى يا رسول اللَّه!

قال: «رجلان، أحيمر ثمود عاقر النَّاقة، والآخر الذي يضربك على هذه ـ ووضع يده على هامته ـ حتى تبتلَّ منها هذه، وأخذ بلحيته». فكان علي كرَّم اللَّه وجهه يقول في أوقات ملاله أشياء كان يراها من أصحابه، فيضيق صدره، منها: ما يمنع أشقاها أن يُخضِّب هذه من هذه. ومرض مرضاً شديداً، فقال له أهله: إنّا نخاف عليك. فقال: أنا واللَّه ما أخاف على نفسي من مرضي هذا؛ فقد أعلمني رسول اللَّه (ص) أنّه يقتلني أشقى هذه الأمّة.

ومثل هذا حديث عمّار عند حفر الخندق ونظره إليه وقد أثقلوه بحمل التّراب. فقال: يا رسول اللَّه يقتلونني يحملون عليَّ ما لا أُطيق. فنفض التَّرابَ عن رأسه ووفرته بيده وقال: «ويح ابن سميّة! ليسوا بالذين يقتلونك، إنّما تقتلك الفئة الباغية»، فاستشهد بصفّين وهو مع علي كرَّم اللَّه وجهه. وقالوا لعمرو: ألست حدّثتنا أن رسول اللَّه (ص) قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية؟ فلام معاوية عمرو على ذلك. فقال عمرو: حدّثتُ النَّاس بهذا قبل أن يكون صفين، وأنا لا أعلم بأنَّ صفين يكون.

ومن ذلك حديث أبي ذرٍّ فإنَّه لمّا خرج إلى تبوك تخلَّف عنه قوم. فقيل له تخلّف فلان وفلان. فقال: دعوهم فإن يكن فيهم خير يُلحقهم اللَّه بكم. وأبطأ بأبي ذرٍّ بعيرُه، فتخلَّف؛ ثم أخذ متاعه على ظهره ولحقه. فقيل يا رسول اللَّه قد أقبل رجل. فقال: «اللَّهُم اجعله أبا ذر». فلما دنا، قال: «يرحم اللَّه أبا ذرٍّ، يمشي وحده ويموت وحده ويُدفن وحده»، فتوفي بالرَّبذة ولم يكن معه غير امرأته

وغلامه، فوضعوه على الطَّريق؛ فأقبل رهط من العراق ماراً وفيهم ابن مسعود. فقال الغلام: هذا أبو ذر أعينونا على دفنه. فجعل ابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول اللّه (ص) حيث قال: تمشي وحدك وتموت وحدك وتُدفَن وحدك. ومن قوله (ص) لفاطمة (ع): «أنت أول أهلي لحوقاً بي»، فكان كما قال.

(٧) فهذا وجه آخر من أعلامه. ومثلها أخبار كثيرة تشاكلها منها: أخبار جاءت في وقت الطَّعام والشَّراب الذي كثّره اللّه وبارك فيه، حتى أكل منه وشرب قوم كثير، فشبعوا ورووا. من ذلك: حديث عليّ كرَّم اللّه وجهه، قال:

لما أنزلت «وأَنْذِرْ عشيرتَك الأقربين» قال لي رسول اللّه (ص): «اصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه رِجل شاة واملأ لنا عُسّاً من لبن». ففعلت. فاجتمع بنو عبد المطلب وهم يومئذٍ أربعون يزيدون رَجلاً أو ينقصون. ثم دعا بالطَّعام فتناول جذبةً من اللَّحم فشقّها ثم ألقاها في نواحي الصّحفة، قال: «خذوا باسم اللّه!» فأكلوا حتى ما لهم بشيء من حاجة، ثم قال: «اسق القوم» فجئتهم بالعُسّ فشربوا حتى رووا منه. وأيم اللّه إنَّ الرَّجل منهم ليأكل ما قدمت ويشرب مثل ذلك العسّ. فلما أراد (ص) أن يتكلّم بَدَرَه أبو لهب فقال: سحرنا محمد! فتفرّق القوم ولم يكلِّمهم. ثم قال: «من الغد يا عليّ، إنَّ هذا سبقني إلى القول فتفرّق القوم، فاتّخذ لنا من الطَّعام مثل ما صنعته». ففعلت ثم اجتمعوا، ففعل مثل ما فعل بالأمس: فأكلوا وشربوا حتى شبعوا ورووا ثم تكلَّم (ص)، فقال: إنَّ اللّه أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين»، الحديث المشهور.

ومثل ذلك حديث جابر بن عبد اللّه الجعفي أيّام الخندق، قال:

ذبحت شاة غير جدّ سمينة وأمرت بها فطُبخت وصُنع خبز من شعير، وقلت لرسول اللّه (ص): أحبُّ أن تنصرف معي إلى منزلي. قال: نعم، وأمر صارخاً فنادى في الخندق: انصرفوا مع رسول اللّه (ص)

إلى منزل جابر. فقلت: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، فأقبل (ص) وأقبل النّاس، وقعد (ص) يأكل ويوردها النّاس كلما فرغ قوم جاء قوم، حتى صدر عنها أهل الخندق وقد شبعوا وهم ثلاثة ألف رجل.

ومثل ذلك حديث ابنة أُخت عبد اللّه بن رواحة، كانت قد حملت تمراً إلى خالها وهو يعمل في الخندق، فقال لها رسول اللّه (ص): «هاتيه يا بنيّة»، فأخذه وهو ملء كفيه، فدعا بثوب وبسطه ثم دحى بالتّمر عليه، فسدد فوق الثوب، ثم أمر أن يصرخ في أهل الخندق وهم ثلاثة ألف، يجيء نفر وينصرف آخرون، حتى صدروا عنه وبقيت على الثوب بقية. فهذا في باب الطعام، ومثله أخبار غيرها.

وشبه هذا فعل المسيح (ع) كما هو مكتوب في الإنجيل، أن المسيح لما سمع بقتل يوحنا الصابغ، انتقل إلى القفر ومعه جمع من المدائن، فرحمهم وأبرأ مرضاهم. فلمّا كان العشاء قال له تلاميذه: المكان قفر وقد حان أن يسرح النّاس فيذهبوا ويشتروا طعامهم. فقال: أَطْعِموهم أنتم ما تأكلون. قالوا: ليس معنا إلاّ خمسة أرغفة وسمكتان! قال: ائتوني بها وأمر الناس أن يتّكئوا رفاقاً وأخذ الخبز والسمكتين، فبارك عليه وكسره وفرّقه، فأكل جميعهم وشبعوا وأخذوا فضلة الكسر اثنتي عشرة قفّة وكان الذين أكلوا خمسة ألف رجل سوى النّساء والصّبيان. فهذا شبيه بما فعل النبيّ (ص) في هذا الباب.

وأما في باب الماء، فإنّه لما خرج في غزوة الحديبية نزل ثنيّة المُرار، فقيل يا رسول اللّه، ما بالوادي ماء. فنزل عليه فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه البراء بن عازب، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه في جوف القليب، فجاش القليب بالرّواء حتى ضرب النّاس عليه العطن ونزل في القليب ناجية بن جندب يميح على الناس وهو يقول:

قد علمت جارية يمانية أنّي أنا المائح واسمي ناجية
ببلغة ذات رشاش واهية

ومثل ذلك لمّا كان بتبوك، أصاب المسلمين العطش حتى كادوا يهلكون، فأمر (ص) أن يطلبوا الماء في الرّحال فأتى بأداوة وأمر فصبت في إناء ووضع يده فيها. قال أنس بن مالك: فرأينا الماء تخلّل من بين أصابعه كأنّها عيون؛ ففاضت، فرويَ، حتى روي منها العسكر مع إبلهم وخيلهم.

ولمّا انصرف من تبوك وبلغ وادي المشقّق قال (ص): «من سبقنا إلى الماء فلا يستقينَّ». فلما أتاه وقف عليه فلم يرَ شيئاً فقال: «من سبق إلى الماء؟» فقالوا فلان وفلان. فقال: «أوَلم أنههم أن يستقوا؟». فلعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل، ثم مسحه بيده، فانخرق الماء حتى سمعوا له حسّاً شديداً، فشرب النَّاس واستقوا حاجتهم، فقال (ص): «لتسمعن بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه». فخضب ذلك الوادي بعد ذلك كما قال.

ومثل هذا فعل موسى (ع) كما هو مكتوب في التّوراة أن بني إسرائيل لمّا نزلوا بريَّة سيناء ولم يقدروا على ماء يشربون وضجّ الشعب إلى موسى وهارون فكلَّم الربُّ موسى، فقال له: خذ قضيباً واجمع الجماعة أنت وهارون وتكلّمْ على الصخرة باسمي يجرِ ماؤها؛ فأخرج لهم الماء في الصَّخرة فشرب منه الجماعة كلها ومواشيها. فهذا في التوارة وتصديقه في القرآن؛ قال اللّه عزَّ وجلَّ: «وَأَوْحَيْنَا إلى مُوْسَى إذ اسْتسْقاهُ قَومُه أَن اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَر فَانبَجَستْ مِنْهُ اثنتا عَشَرَة عَيْناً قَد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ». فهذا شبيه بما فعله محمد (ص) في هذا الباب.

(٨) ووجه آخر من أعلامه وهو دعاؤه على قوم فاستجاب اللّه له فيهم. ومن ذلك دعاؤه عليه السَّلام على مضر حين آذوه وكذَّبوه، فقال: اللَّهُمَّ أشدد وطأتك على مضر، ابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف؛ فاحتبس عنهم القطر وقحطوا حتى جفَّ الشَّجر والنّبات وهلك الخفُّ والظلف وأكلوا العهن واشتووا القِدّ.

ومن ذلك دعاؤه على عامر بن الطُّفيل وأربد بن قيس، كانا وفدا إليه عن بني عامر فطلبا منه شرائط ولم يجبهما إلى ذلك. فقال عامر بن الطفيل: واللّه لأملأنّها عليك خيلاً ورَجْلاً، فدعا عليهما حين وليّا عنه وقال: «اللَّهُم اكفني

عامراً واهدِ بني عامر». فلمّا كان ببعض الطَّريق أرسل اللَّه إلى عامر بن الطُّفيل الطَّاعون فمات في بيت امرأة من بني سلول وهو يقول: أُغدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلولية؟! وأرسل اللَّه على أربد بن قيس صاعقة فأحرقته وفيه يقول لبيد بن ربيعة وكان أخاه لأمّه:

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السّماك والأسد
فجّعَني الرَّعد والصَّواعق بالـ ـفارس يوم الكريهة النّجد

فهلكا في طريقهما وجاءت بنو عامر فأسلمت.

ومن ذلك أنّه بعث نفراً من أصحابه إلى إضم وفيهم مُحَلِّم بن جثّامة، فمرّ عليهم في طريقهم عامر بن الأضبط الأشجعي فسّلم عليهم، فأمسكوا عن أذاه، فقام إليه مُحلِّم بن جثّامة، فقتله لأمر كان بينهما وأخذ بعيره ومتاعه فلما انصرفوا أخبروا به رسول اللَّه (ص) فرفع يديه وقال: «اللَّهُم لا تغفر لمحلِّم بن جثّامة!»، فما لبث إلاً قليلاً حتى مات، فدفنوه، فلفظته الأرض، ثم أعادوه، فلفظته الأرض، حتى فعلوا ذلك ثلاث مرّات، ثم واروه بالحجارة. فقال (ص): «إنَّ الأرض لتنطوي على من هو شرٌّ منه ولكن اللَّه عزَّ وجلَّ أراد أن يعظكم به».

ومن ذلك دعاؤه على المستهزئين، وهم نفر من قريش كانوا يؤذونه ويستهزئون به وبالقرآن، وهم لهب بن أبي لهب والأسود بن عبد يغوث والوليد بن المغيرة والأسود بن المطلب والعاص بن وائل السهمي والحارث بن الطُّلاطلة، كانوا يجتمعون فيستهزئون. فأوحى اللَّه إليه أن سلني فيهم؛ فوقف حتى مرَّ عليه لهب بن أبي لهب، فقال: «اللَّهُم سلِّط عليه كلباً من كلابك»؛ فأكله الأسد. ومرّ عليه الوليد بن المغيرة، وفي رجله جرح، فأومى (ص) إلى رجله، فانتقض جرحه حتى قتله. ومرَّ عليه الأسود بن عبد يغوث فأومى إلى بطنه ودعا عليه، فسُقِي ومات. ومرّ عليه الأسود بن المطّلب فرماه بورقة في وجهه وقال: «اللَّهم اعم بصره واثكله ولده»، ففعل اللَّه ذلك به. ومرَّ عليه العاص بن وائل السهمي فأشار إلى رِجله ودعا عليه، فدخلت الشوكة في أخمصها فقتلته. ومرَّ عليه

الحارث بن الطُّلاطلة، فأومى إليه ودعا عليه، فجعل يتقيّأ قيحاً حتّى هلك: فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: «إنَّا كَفَيْنَاك المُسْتَهْزِئينَ الَّذينَ يَجْعَلُون مَعَ اللَّه إلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعلمُونَ».

ووجه آخر من أعلامه أمورٌ نَطق بها القرآن قبل أن حدثت، ثم حدثت وصحّت، وظهر صدق ما أنزل اللَّه عى لسانه (ص). فمنها ما صحّت في حياته ومنها ما صحّت بعد وفاته، من ذلك فتح مكّة، وصلح الحديبيّة؛ وقد كان اللَّه عزَّ وجلَّ بشّر بأن يفتح عليه مكّة حتى يدخل هو وأصحابه والمسلمون مكّة آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصّرين حاجيّن ومعتمرين لا يخافون، فقال جلَّ ذكره: «لَقَد صَدَق اللَّهُ رسولَه الرُّؤيا بالحقّ لتَدخُلنَّ المَسجدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللَّهُ آمنين مُحَلِّقينَ رُؤوسَكُم ومُقَصِّرينَ لا تَخافونَ فعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَل مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتحاً قَريباً». فسهَّل اللَّه له صلح الحديبية، وفتح له بعد ذلك مكة وأنجز وعده. فلمَّا فتحها دخل الكعبة وأخذ بعضادتي الباب وأمر بالصّور الَّتي كانت في الكعبة فطُلست وبالأصنام فكُسرت. وقال: «الحمد للَّه وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

فإن قال قائل: فلمَ استثنى في هذه الآية حين قال: «لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شاء اللَّه آمنين»، فإن الاستثناء في أشياء يقع فيها الشكّ؛ فقد احتجَّ الملحدون بذلك، قلنا: لم يشك في أنَّ اللَّه ينجز له ما وعده ولم يكن استثناؤه لذلك، ولكنّه عزَّ وجلَّ كان أدَّبه أن لا يقول لشيءٍ إنّه يفعله حتَّى يستثني فيه. وذلك أن المشركين كانوا سألوه عن قصّة أصحاب الكهف فقال: أخبركم بها غداً، ولم يستثنِ، فانقطع عنه الوحي أربعين يوماً حتى قال المشركون: قد قلاه صاحبه وودّعه، يعنون به جبرائيل عليه السَّلام. فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ بعد ذلك: «ما وَدَّعَك ربُّك وَمَا قَلَى»، وأنزل عليه «سورة الكهف» وقصّ عليه نبأ الفتية، ثم قال له بعد تمام القصة: «وَلاَ تَقُولَنَّ لِشيءٍ إنّي فاعِلٌ ذَلِكَ غداً إلاَّ أنْ يشاءَ اللَّه»، فأدَّبه بذلك فكان لا يقول بعد ذلك لشيءٍ أنْ يكون إلاَّ ويستثني فيه. ونزلت «سورة الكهف» قبيل الهجرة بمكة ونزلت «سورة الفتح» بعد الهجرة بالمدينة؛ فلذلك استثنى.

وكان نزل أيضاً في فتح مكة: «إنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآنَ لَرادُّكَ إلَى مَعَادٍ» فوعده عزَّ وجلَّ أن يردَّه إلى مكّة عوداً بعد بدء ويفتحها عليه؛ ونزل به القرآن، فأنجز اللَّه وعده. فهذا ما كان في حياته.

ومن ذلك أنَّ فارس غلبت الروم على مملكة الجزيرة، فسرَّت قريش بذلك مخالفة لرسول اللَّه (ص)، وحزن عليه السَّلام وأصحابه لميلهم إلى الرّوم، لأنَّ هرقل قبل كتاب رسول اللَّه وكسرى مزَّقه، فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: «ألم غُلِبَت الرّومُ في أَدْنَى الأرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غلْبِهِم سَيَغْلِبُون في بِضع سِنينِ» إلى قوله: «وَيوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنونَ بِنَصْرِ اللَّه» فجاءَت الروم وغلبت فارس بعد سبع سنين، وحقق اللَّه قوله، وسُرَّ المؤمنون بذلك. فهذا ما نزل في القرآن قبل أن كان ثم صح بعد ذلك، وهذا في حياته (ص).

ومن ذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَعَدَ اللَّه الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصَّالِحات لِيَسْتَخلِفَنَّهُم في الأرض كما استخلَفَ الَّذين من قبلهم وَلِيُمكِّنَنَّ لَهُم دِينَهم الذي ارْتَضَى لَهُم وليُبدِّلَنهم مِنْ بَعدِ خَوفِهِمْ أَمناً يعبدُونَني لا يُشركون بي شيئاً»، فحقّق اللَّه قوله فاستخلفهم في حياته وأهلك أعداءهم ومكَّن لهم في دارهم في حياته (ص) حتى عبدوا اللَّه وأقاموا شرائع الإسلام وأباد أهلَ الشّرك؛ هذا قبل أن مكَّن أهل الإسلام في الأرض وفتح عليهم هذه الفتوح.

ومن ذلك ما وعده اللَّه أن ينصر على قريش ببدر، وأنزل عليه في قوله عزَّ وجلَّ: «سَيُهزَمُ الجَمعُ ويُوَلُّون الدّبر»، وذلك أنَّ أبا جهل قال: نحن أكثر منه جَمعاً وعدّة وعتاداً وأقوى قوّة؛ لأنَّهم كانوا يزيدون على ألفٍ في خيل وسلاح وشوكة شديدة، وكان أصحاب رسول اللَّه (ص) ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليس معه إلاَّ فرس المقداد بن الأسود وفرس الزُّبير بن العوّام، كانوا يركبون المطايا، وكانوا خرجوا يطلبون عير قريش وفيها الأموال؛ فاجتمعت قريش تنصر بعضها بعضاً وكان أصحاب رسول اللَّه (ص) يودّون أن يظفروا بالعير ويأخذوا الأموال، فلمّا فاتتهم العير وجاءت قريش بشوكتها هالهم ذلك فنزل جبرائيل (ع) بهذه الآية

وأنزل أيضاً: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فِئةً كَثِيرَةً بإذْنِ اللَّه واللَّهُ مَعَ الصَّابِرين». فقال رسول اللَّه (ص) لأصحابه إنَّ اللَّه قد بشَّرني أنْ ينصرني عليهم ووعدني إحدى الطَّائفتين، إمّا العير وإمّا الظفر بقريش، وقد فاتت العير، وجاءكم جبرائيل (ع) بالنّصر وقد عرَّفني مصارع القوم. ووقف (ص) عى مصارعهم وقال لأصحابه: هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، فعرّفهم مصارعهم رَجلاً رَجلاً. فأظفره اللَّه عزَّ وجلَّ بهم ولم يخالف أحد مصرعه، وحقّق قوله وصدق وعده؛ ثم نزلت: «وإذْ يعدُكُمْ اللَّه إِحْدَى الطَّائِفَتيْن أَنَّها لَكُمْ وَتَودُّون أَنْ غَيْرَ ذاتِ الشوكةِ تكونُ لَكُمْ ويُريد اللَّهُ أنْ يُحقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابرِ الكَافِرين»، فحقّق اللَّه قوله وقطع دابرهم وقتل فرسانهم وصناديدهم وأسر رؤساءهم وعظماءهم، وانتقم اللَّه منهم ببطشه وأنزل أيضاً: «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الْكُبْرَى إنّا مُنْتَقِمون» ونزلت: «ولقد صَدَقَكُم اللَّهُ وَعْدَه إذ تَحسّونَهم بإذنه حتَّى إذا فَشَلْتُم» إلى قوله: «مِنكُم مَنْ يُريدُ الدُّنيا ومِنْكُمْ مَنْ يُريدُ الآخِرَةَ»، وذلك أنَّ كثيراً منهم كانوا يودّون أن يأخذوا الأموال التي في العير بغير حرب، وكثير منهم رضوا بما اختار اللَّه لهم، فنزلت أيضاً: «إنَّ الَّذين يُحادُّون اللَّهَ ورسُولَه أُولئك في الأذلّين كَتبَ اللَّه لأغلبنَّ أنا ورُسُلي إِنَّ اللَّه قويٌّ عزيز». فهذا نزل به القرآن قبل أن كان قوله: «سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُولّونَ الدُّبر». والآية تدلُّ على أنّها نزلت قبل هذه القصَّة؛ لأنَّ قوله: «سيُهزم الجمعُ» هذه السِّين تكون للمستقبل لا للماضي، وكذلك السِّين التي في الآية في قصّة الرُّوم: «سَيَغْلِبُون في بِضْعِ سنينِ» تدلُّ على المستقبل، ونزلت هذه الآيات بهذه الأنباء قبل أن كانت، ثم كانت من بعد ذلك وصحّت. وهذا القرآن ينطق به، وهذه القصص لا شكَّ فيها أنَّها كانت، وهي شبه العيان والمشاهدة لا يدفعها إلاَّ جاهل عديم العقل. ومثل من ينكر هذه القصص مثل شيخ كان يقول بالإرجاء والنَّصب وكان جاهلاً، قال لي يوماً: ما رأيت أكذب من الرَّافضة، يزعمون أنَّ طلحة والزُّبير أخرجا عائشة إلى البصرة، وانّهار كبت الجمل وحاربت علياً بن أبي طالب. قلت له: فما تقول في هذا؟ قال: هذا حديث وضعه الرافضة وهو كذب ليس له أصل. وكذلك من ينكر هذه القصص ويدفعها ويزعم أنّها لم تكن فقد ردَّ

العيان، وإن أنكر الآيات التي هي في القرآن فهو أيضاً ردّ للعيان. ومثال الملحد في ردِّ هذه الأعلام مثال هذا الشيخ الذي قد ذكرناه في ردّ ما هو مثل العيان ولا مرية فيه؛ لأنّها أعلام نطق بها القرآن قبل أن كانت، ثم كانت بعد ذلك.

(٩) ووجه آخر من أعلامه ممّا جاءت في القرآن، منها حديث الإسراء والبُراق والمعراج وما أراه اللَّه عزَّ وجلَّ من ملكوت السَّماوات والأرض في ليلة الإسراء. فلمّا أصبح حدَّث به الناس. فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: «سُبحانَ الَّذي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حولَه لِنُريَه من آياتنا إنَّه هو السَّميع البصير»، فقالت العرب ما سمعنا مثل هذا وكانوا يسألونه عن صفة بيت المقدس فجعل يصفه لهم، ثم قال لهم: «إنِّي مررت بعير بني فلان بوادي كذا وأنا متوجِّه إلى المسجد الأقصى، فأنفرها حسُّ الدَّابَّة، فنَدَ لهم بعيرٌ، فدلّلتهم عليه. فلمَّا أقبلت مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناءٌ فيه ماء قد غطّوه، فكشفت غطاءه وشربتُ ما فيه وغطّيت عليه كما كان». وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنيَّة التنعيم، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء. فابتدر القوم الثنيَّة فأول ما لقيهم الجمل كما وصفه وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنّهم وضعوه مملوءاً وغطّوا عليه، وأنّهم لما هبّوا وجدوه فارغاً مغطّىً. وسألوا القوم الآخرين وهم بمكّة عن خبر البعير الذي نَدَّ لهم فقالوا: نَدَّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه فأخذناه. فهذه من دلالاته التي نطق بها القرآن. ولما نزل ذلك سمعه المشركون، وسمعوا هذه القصَّة، وطالبوه بذلك؛ فكان حديثها ما ذكرناه والقرآن ينطق بأنَّ ذلك كان بمحضر منهم.

ومن ذلك حديث انشقاق القمر وذلك أنَّ أبا جهل قال لرسول اللَّه (ص) إن كنت نبيّاً فأتِ بآية كما أتت بها الرُّسل لنؤمن لك، فأتِ بآية من السَّماء لا من الأرض! فدعا (ص) ربّه فانشقّ القمر أو التقى طرفاه على جبل أبي قبيس. فقال أبو جهل: يا معشر قريش إنَّ محمّداً قد سحر القمر فانظروا من يقدم عليكم من النّواحي هل رأوا ما رأيتم؟ فكان من يقدم عليهم يحدثهم بانشقاق القمر. فقال أبو

جهل: هذا سحر ذاهب في الدّنيا. فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: «اقْتَربَتِ السَّاعَةُ وانشقّ القَمَرُ وإنْ يَرَوْا آية يُعرِضوا ويقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ». فهذا ما نطق به القرآن، ولو لم يكن ذلك لطالبوه ولقالوا أين هذا الذي تدّعي من انشقاق القمر. ولكنهم شاهدوه ورأوه، ويصحّح ذلك قوله: «وإنْ يَروا آيَةً يُعرِضوا ويَقولوا سِحْرٌ مُستَمِرٌ»، فهذا يدل أنه قد كان، وأنّهم قالوا إنَّه سحر مستمر لما رأوه منشقّاً؛ وقالوا عند ذلك هو من السّحر، هذا سحرٌ من سحرِه وحيلة من حيله. وهذه القصّة كانت بمكّة قبل الهجرة، وأعداؤه متوافرون يتطلبون عليه العثرات. وهذه السُّورة مكّية، والقرآن لا يقع فيه تغيير وتبديل وزيادة ونقصان، وليست سبيله سبيل الخبر الذي ادّعى الملحد أنّه نقله واحد واثنان وثلاثة، وأنّه يجوز عليه التّواطؤ؛ لأنَّ الذي نزل به القرآن سمعه الكافرون كما سمعه المسلمون، ونطق بهذه القصص بمشهد من كفّار قريش وغيرهم من العرب ومن أهل الكتاب، ثم ظهرت حقيقتها بعد نزول القرآن، وظهر صدق محمّد (ص) فيها؛ ثم القرآن نقلته الأمّة بأسرها، ولم يقع فيه زيادة ونقصان. فهذا أوكد من أن يقدر أحد على إنكاره إلاّ أن يجحده على معرفة ويقين أو مكابرة أو يقول إنّه سحر وكَهانة، كما قاله من شاهد هذه الآيات، أو يكون جاهلاً أحمق مثل الشّيخ الذي ذكرنا قوله في شأن عائشة وحديث الجمل؛ وإلاّ فمن يقدر أن ينكر حديث غَلَبة فارس على الجزيرة، ثم غلبة الرّوم بعد ذلك، فيقول: إنَّ هذا لم يكن أو ينكر حديث غزوة بدر أو يقدر أن يقول إنَّ هذا الذي نطق به القرآن في هذه القصص هو شيء قد زِيدَ فيه. ومن ردَّ هذا فقد ردَّ العيان ونعوذ باللَّه من الكفر والطغيان.

الباب السادس

في شأن القرآن

قد ذكرنا بعض دلائل محمّد (ص) كما اشترطنا دون ذكر الجميع لأنها كثيرة جدّاً، ولم نشرح قصّة كلّ دلائله ولا ذكرنا حديثها بكماله، بل اختصرنا واقتصرنا على تلك النّكت. ولسنا نحتج بها على الملحدين إذ كانت أموراً قد مضت، وإن كان منها ما هو شبه العيان على حسب ما قلنا من حديث غلبة الرّوم وانشقاق القمر وغير ذلك، ومنها ما تنطق به كتب الأنبياء وهي في أيدي أهل الذِّمة. ولكنّا نقول في جواب قول الملحد في شأن القرآن وما طالب به محمد (ص) العرب أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه.

(١) فقال الملحد:

إنكم تدّعون أن المعجزة قائمة موجودة وهي القرآن وتقولون من أنكر ذلك فليأتِ بمثله. ثم قال: إن أردتم بمثله في الوجوه التي يتفاضل بها الكلام، فعلينا أن نأتيكم بألفٍ مثله من كلام البلغاء والفصحاء والسّجعاء والشّعراء وما هو أطلقُ منه ألفاظاً وأشدّ اختصاراً في المعاني وأبلغ أداءً وعبارة وأشكلُ سجعاً. فإن لم ترضوا بذلك، فإنّا نطالبكم بالمثل الذي تطالبون به.

ثم قال على أثر هذا الكلام: قد، والله، تعجّبنا من قولهم في كلام هو في حكاية أساطير الأولين، مملوء مع ذلك تناقضاً من غير أن تكون فيه فائدة أو بيّنة على شيءٍ، ثم يقولون: فأتوا بمثل هذا؛ هذا قول الملحد.

ونحن نقول:

إنَّ الملحد لم يخطئ سنّة من تقدّمه من أهل الكفر والضَّلالة حين قالوا: «قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إنْ هذا إلاَّ أساطير الأوّلين». فهكذا قال الملحد مثل قولهم حذو النّعل بالنّعل والقِذَّة بالقذَّة؛ ولكنَّه قال ولم يفعل ولا يقدر أمثاله من الملحدين أن يفعلوا. وما مثله في هذا القول إلاَّ كمن يقول: إنّي أخلق مثل السَّماوات والأرض ثم لا يقدر أن يخلق؛ وقوله جنون يضحك منه، لأنَّ السَّماوات والأرض اللّه خلقها، ولا يقدر على مثل خلقها غيره. وكذلك القرآن اللّه أنزله، ولا يقدر أن يأتي بمثله غيره. وفيه من المعجز نحو ما في خلق السَّماوات والأرض، وسوف نكشف عن ذلك إن شاء اللّه تعالى.

(٢) ثم قال: وأيم اللّه لو وجب أن يكون كتابٌ حجةً، لكانت كتب أصول الهندسة والمجسطي الذي يؤدِّي إلى معرفة حركات الفَلَك والكواكب، ونحو كتب المنطق وكتب الطّب، التي فيها علوم مصلحة الأبدان، أَولى بالحجّة ممَّا لا يفيد نفعاً ولا ضراً ولا يكشف مستوراً ـ يعني به القرآن العظيم ـ. وقال أيضاً: من ذا يعجز عن تأليف الخرافات بلا بيان ولا برهان إلاَّ دعاوى أنَّ ذلك حجة، وهذا باب إذا دعا إليه الخصم سلّمناه وتركناه وما قد حلَّ به من سكرة الغفلة والهوى، مع ما أنَّا نأتيه بأفضل منه من الشِّعر الجيّد والخطب البليغة والرَّسائل البديعة، مما هو أفصح وأطلق وأسجع منه؛ وهذه معاني تفاضل الكلام في ذاته. فأما تفاضل الكلام على الكتاب فلأمور كثيرة فيها منافع كثيرة، وليس في القرآن شيء من ذلك الفضل، إنّما هو في باب الكلام، والقرآن خلوٌ من هذه التي ذكرناها.

هذا قول الملحد لعنه اللّه واحتجاجه وطعنه على القرآن الذي هو كتاب محمَّدٍ (ص) ومعجزته وكلام اللّه عزَّ وجلَّ، وجهله بما فيه من الأمور العظيمة التي: «لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثله لعجزوا عنه ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً»، كما قال اللّه عزَّ وجلَّ. ونحن نكشف عن حقيقة ما في القرآن من

الأمور الجليلة والمعجز العظيم ببرهان واضح، ليعلم من هو على مذهب المُلحد أنّه ليس في العالم معجزٌ أكثر منه ولا دلالة أكبر منه، وليعرف الملحدون أنَّ القرآن هو عظيم الشأن رفيع البنيان واضح البرهان، وأنّه نور ساطع لمن استضاء به، ودليل هادٍ لمن عرفه، وحجّة قاهرة لمن خاصم به، وعِلمٌ زاهر لمن وعاه، وحكمة بالغة لمن نطق به، وحبل وثيق لمن تعلق به، وفوز ونجاة لمن آمن به، وأنَّ نفعه للأنام أعظم، ومقداره أجلُّ من أن يقاس بالمجسطيّ وكتب الهندسة والطب والمنطق والنّجوم التي ذكرها الملحد وجعلها نظائر للقرآن، بل فضَّلها عليه لضعف عقله وعمى قلبه وقلّة معرفته ولضلالته ولغلبة هواه؛ وندع الاحتجاج على الملحد بالآيات والمعجزات التي جاءت عن الأنبياء (ع) وعن محمَّدٍ (ص) على حسب ما اشترطناه، إلاَّ بالقرآن العظيم، ولما فيه من الدّلائل الواضحة القائمة في العالم، وإن جحدها الملحدون. فليس هم بألوم في جحودهم الآيات التي مضت أيّامها من الذين شاهدوا تلك العجائب فردُّوها. إنّما يلامون على ما بلوا به من العمى والضَّلال والإنكار للمعجز العظيم الذي هو في القرآن، لأنّه شاهِدٌ قائم في العالم، وقبوله لمن عَبَر ألزم منه لمن مضى، والحجة عليهم أوكد لأنَّ برهانه يزداد على مرّ الأيّام إيضاحاً.

(٣) فأمّا المعجزات التي قد مضت، فإنّهم لا يلامون على دفعها، لأنَّ الذين شاهدوها ورأوها بأبصارهم وسمعوها بآذانهم وباشروها بأنفسهم، دفعوها وكفروا بها ونسبوا الأنبياء (ع) إلى السِّحر فيما ظهر لهم من بعد أن طالبوا بها الرُّسُل (ع)، فلمّا أتوا بها جحدوها وقالوا هذا سحر مبين، وهذا ساحر كذّاب. فمنهم من عاجلته نقمة ربِّه، ومنهم من أملى لهم ليزدادوا إثماً وقد باؤوا كلّهم خاسرين لدنياهم وأخراهم؛ كما سأل أصحاب صالح (ع) أن يُخرج لهم من الصَّخرة ناقة تمخض؛ فخرجت، ونتجت سقياً، كما حكى اللّه عزَّ وجلَّ عنهم في قولهم لصالح: «إنّما أنت من المسحرين ما أنت إلاَّ بشر مثلنا فأتِ بآيةٍ إن كنت من الصَّادقين قال هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكمْ شربٌ يومٌ معلوم». ثم عقروها «وقالوا يا صالح ائتنا بِما تَعِدُنا إنْ كُنْتَ من المُرْسَلين فأخذتهم الرَّجْفَةُ»، وحديثها مشهور

عند أهل الملل وعند غيرهم، لأنَّ العرب من أهل الجاهلية كانوا يعرفون شأن النَّاقة والعذاب الذي نزل على القوم الذين عقروها حتى رغا السَّغب، وحديث الوفد الذين خرجوا إلى مكّة يدعون اللّه أن يصرف عنهم العذاب؛ وذلك مشهور في أشعار الجاهليين الذين لم يكن لهم كتاب ولا إيمان كما قال زهير وهو جاهلي:

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمانَ أشأم كلّهم كأحمرِ عادٍ، ثُمَّ تُرْضِعْ فَتفْطِمِ

يعني بأحمر عاد عاقر النَّاقة، لأنَّهم ضربوا المثل به في الشّؤم. وقال ابن أحمر، وهو مخضرميّ، يذكر القَيْل الذي وفد إلى مكة مع قوم عاد ليدعوا اللّه أن يصرف عنهم العذاب فشربوا ولهوا حتى نزل العذاب على قومهم:

كَشَرابِ قَيْلٍ عَنْ مَطِيّته وَلِكُلِّ أمَرٍ وَاقعٍ قَدَر

ومثل حديث موسى (ع) لما سأله فرعون أن يكشف عنه وعن قومه ما نزل بهم من أنواع العذاب، فلما كشف اللّه عنهم العذاب نكثوا وكفروا، كما حكى اللّه عزَّ وجلَّ عنهم فقال: «قالوا يا موسى ادعُ لنا ربَّك بما عَهِد عندك لئن كشفت عنّا الرّجز لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرّجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون»، فكان هذا دأبه ودأب موسى، فلما نزلت آية من الجراد والقمل وغير ذلك، سأل أن يكشف عنهم، ثم نكثوا وكفروا، ثم فزع إلى السَّحَرة وجمعهم، وكان ذلك زمان السِّحر. فلما حضروا ورأوا فعل موسى (ع) علم السَّحرة أنَّه ليس من جنس السِّحر الذي يستعمله السَّحَرة، لأنَّهم كانوا من العلماء بالسِّحر وعرفوا صدق قوله وأثَّر في أنفسهم فعل موسى وقوة الوحي فآمنوا واعترفوا بنبوّته فهدَّدهم فرعون وأوعدهم بالقتل والصَّلب وقطع الأيدي والأرجل، فلم يرجعوا من ذلك يقيناً منهم بأنَّ فعل موسى ليس بسحر، و«قالوا لن نُؤْثِرك على ما جاءنا من البيِّنات والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاضٍ». ولم يؤمن بما أظهر موسى من أمر العصا وغيره من المعجزات إلاَّ السَّحرة؛ لما قد ذكرنا أنّهم كانوا معدن السِّحر وعرفوا أن فعله ليس بسحر. فأما فرعون وقومه الذين جهلوا ذلك

فلم يزدادوا إلاَّ طغياناً وكفراً وعتوّاً واستكباراً، ودفعوا تلك الآيات التي عاينوها، وقالوا هو سحر، وقالوا إنَّ موسى كبيرهم الذي علمهم السِّحر. وهكذا فعل سائر الأمم بأنبيائهم، كما فعلوا بعيسى حتى أحيا لهم الموتى وعمل تلك الجرائح العظيمة وعاينوها، فقالوا: هذا سحر.

وهكذا فعلوا بمحمد (ص) كانوا يطالبونه الآيات؛ وكلَّما رأوا آية، قالوا هذا سحر، كما قالوا لما انشقَّ القمر: «هذا سحر مستمر». ثم عاندوه وطالبوه بأمور عظيمة فقالوا: «لن نؤمِنَ لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنَّة من نخيل وعنب فتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيراً أَو تُسقِط السماءَ كما زعمت علينا كِسَفاً أَو تأتيَ باللَّه والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أَو ترقى في السماء ولن نؤمن لرُقِيّك حتى تنزّلَ علينا كتاباً نقرأه». فكانوا يسألونه هذه الآيات العظام. فقال اللَّه عزَّ وجلَّ: «قل سبحان ربي هل كنت إلاَّ بشراً رسولاً»، أي أنَّ هذه القوَّة هي للَّه عزَّ وجلَّ، ولا يقدر أن يأتي بشيء منها إلاَّ ما يؤيّده اللَّه به، وأنَّه يفعل ما يُؤمَر به. فإن أعطاه اللَّه آية أظهرها، وإلاَّ فلم يسألها؛ لأنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ قد كان أعلمه أنّهم لا يُؤمنون بالآيات وينسبونه إلى السِّحر، فقال عزَّ وجلَّ: «ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إِن هذا إلاَّ سحرٌ مبين». وقال: «ولو أنّنا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلاَّ أنْ يشاء اللَّه». وأعلمه عزَّ وجلَّ أنَّ سبيله سبيل من تقدَّمه من الأنبياء (ع)، فقال: «قالوا لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسى أو لم يكفروا بما أُوتي موسى من قبلُ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنَّا بكل كافرون». ومثل هذا في القرآن كثير، ممَّا يدلُّ أن الذين شاهدوا الآيات والمعجزات من الأنبياء (ع) لم يؤمنوا بها، ونسبوها إلى السّحر وسمّوا الأنبياء سَحَرةً، فكيف يؤمن الملحدون بآيات محمّدٍ (ص) التي مضت، ولم يعاينوها، ولا يقرون بأنَّ لها حقيقةً، ويزعمون أنّها لا تصحّ شهادةً لأهل الشَّريعة؟

(٤) ولكنا نحتج عليهم بما هو قائم في العالم من معجز محمد (ص) مشهور واضح وبرهانه معه، يشهد أنَّه ليس من فعل السَّحرة، وأنّه ليس في وسع

المخلوقين أنْ يأتوا بمثله ولا يقدر على دفعه إلاّ معاند؛ لأنَّ فعل السَّحرة يبطل ولا يثبت في العالم، ومعجز محمَّد (ص)، الذي هو القرآن، قد خلد على الدّهر، ويزداد قوّةً على مرور الأيام. وسوف نكشف عن البرهان فيه ليعلم الملحدون أنَّ الأمر كما دعا إليه (ص) العرب حين قالوا: «لو نشاء لقلنا مثل هذا» فقال اللّه عزَّ وجلَّ ردّاً عليهم: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سُوَر مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون اللّه إِنّ كنتم صادقين». ثم خفف المطالبة فقال: «وإن كنتم في رَيب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون اللّه إن كنتم صادقين». ثم عرّفهم عجزهم، فقال: «فإنْ لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار التي وقودها النَّاسُ والحجارة أُعِدَّت للكافرين». فقوله «فإن لم تفعلوا» يعني أنّهم لم يفعلوا ما ادَّعوا أنَّ يأتوا بمثله، وقوله «ولن تفعلوا» أي لا تفعلون فيما بعد أبداً. ثم عرَّفهم أنَّ ذلك ليس في وسع الخلائق، فقال: «لئن اجتمعت الإنسُ والجِنُّ على أنَّ يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً». وقد قدَّمنا القول إن الملحد لم يخطئ سُنّة من تقدَّمه حين زعم أنَّه يأتي بألفِ مثله، فإنّه لم يحصل من هذه الدّعوى على أكثر من أن صار في جملة من ذكره اللّه حيث يقول: «ومن قال سأُنزل مثلَ ما أنزل اللّه ولو ترى إذ الظَّالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهُون بما كنتم تقولون على اللّه غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون».

على أنّا نقول في جوابه حين زعم أنَّ الشّعر والخُطَب والسَّجع وغير ذلك هو مثل القرآن، أنّه قد أحال في هذه الدّعوى، لأنَّ الذي يجمعه القرآن لا يجمعه شيء مما ذكره في ظاهر اللّفظ دون القوة العظيمة التي هي فيه. فإنَّ كلَّ صنف مما ذكره هو نوع واحد. فالشّعر هو كلام فصيح موزون بالأعاريض، وهذه فضيلة لا غير؛ والخُطَب البليغة هي فصاحة وإيجاز لفظ لا غير؛ والسّجع هو كلام فصيح مسجّع لا غير، إلاّ ما كان من سجع الكهّان، فإنّه يجمع ذلك إلى تلك الأسباب التي كانوا يخبرون بها لا غير؛ والقرآن يجمع هذه المعاني كلّها التي هي

في الشعر والخطب البليغة والسجع في ظاهر الأمر، دون سائر الأسباب التي يجمعها. ونحن نذكرها ونشرح الحال بها إن شاء اللَّه، فنقول:

إن العرب اشتبه عليهم الأمر فيه، لأنّه جمع هذه المعاني كلَّها. فقالوا مرَّة هو شعر، فشبّهوا السُّور بالقصائد، والآيات بأبيات الشّعراء؛ كما قالت أم جميل بنت حرب بن أميّة، امرأة أبي لهب حمّالة الحطب، لما نزلت «سورة تبّت»، أخذت فِهْراً تريد أن تضرب به رسول اللَّه (ص) وكان جالساً عند الكعبة ومعه أصحابه، فقالت لهم: قد بلغني أنَّ محمداً هجاني، ووالله لو وجدته لضربت بهذا الفهر رأسه، وإنّي واللَّه لشاعرة، ثم قالت:

مذمَّماً عَصَيْنا ودينَه أبَيْنا

فقال النبيّ (ص) لو رأتني لما قالت ما قالت ولكن قد أخذ اللَّه ببصرها. فهكذا مرّة شبّهوه بالشعر، ومرّة شبّهوه بالخطب البليغة لما فيه من إيجاز القول وسهولة الألفاظ وإحكام المعاني؛ ومرّة شبهوه بسجع الكهّان لما فيه من مشاكلةٍ للسّجع، ولأنَّ الذي كان يخبر به محمّد (ص) من الأمور الغائبة كان يصحّ، كما كان الكاهن يسجع بأشياء ثم يقع ذلك الأمر الذي يخبر به، كما سجع سطيح الشَّامي الكاهن في أمر الحادثة التي كانت ببلاد العجم ليلةَ وُلِد رسول اللَّه (ص) من ارتجاس الإيوان ورؤيا الموبذان وغير ذلك. فسجع حين سُئِل عن ذلك، وأخبر بما يكون من أمر محمّد (ص)، فخرج الأمر كما قال، وحديثه مشهور.

فمن أجل ذلك شبّهوا القرآن بسجع الكهَّان وقالوا لرسول اللَّه (ص) هو كاهن. كما ذكرنا أنّه كان يخبر بأمور غائبة ثم تصحّ. فاشتبه على العرب أمر القرآن فمرّة قالوا هو شعر، ومرّة قالوا هو سجع الكهّان، ومرّة قالوا هو بلاغة وفصاحة ولو شئنا لقلنا مثل هذا. ولما أعيتهم الحِيَل ولم يدروا من أيِّ صنفٍ هو، اجتمعوا وتشاوروا في ذلك وتدبّروا فيه؛ فانتُدب الوليد بن مغيرة المخزومي، وكان مبجَّلاً فيهم، فقال: قد تدبّرت كلام محمد وما هو إلاَّ سحر

يؤثر، ألا ترونه كيف يأخذ بقلوب الناس؟! فقالت قريش: صدقت والقول ما قلتَ؛ واتّفقوا بعد ذلك على أنّه سحر. وكان هذا التّشبيه عندهم أوكد وأبلغ من سائر ما قالوا فيه إنّه شعر وخطب وسجع. فأنزل اللّه عزَّ وجلَّ في ذلك وفي الوليد بن المغيرة: «ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً» إلى قوله: «إنَّه فكّر وقدَّر فقُتلَ كيف قَدَّر ثم قُتل كيف قدَّر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إنّ هذا إلاّ سحر يُؤْثَر إِنْ هذا إلاّ قول البشر»، فاستنكفوا واستكبروا وأدبروا عنه وقالوا كيف اختار اللَّه محمّداً من بيننا، فهلاّ اختار عروة بن مسعود الثَّقفي، فإنّه أكثر أهل مكة والطائف مالاً وأوفرهم عقلاً وأعظمهم جاهاً؟! ما هذا إلاّ سحر!! فأنزل اللَّه عزّ وجلَّ: «ولما جاءَهم الحقُّ قالوا هذا سحر وإنَّا به كافرون وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»، يعنون به عروة بن مسعود، ثم قال: «أَهُم يقسّمون رحمة ربّك نحن قسّمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدُّنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات»، أي أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقسم في خلقه نِعَمَه ديناً ودنيا، فمن شاء رزقه من أعراض الدُّنيا، ومن شاء اختاره للنبوّة واختصّه برحمته وجعله سبباً لرحمته بعباده، وهو يعلم بحيث يجعل رسالته؛ لأنّه جلّ ذكره أعرف بنيّات الخلائق، وليست القسمة إليهم فيختارون من يشاءون؛ بل اللَّه يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة؛ سبحان اللَّه وتعالى عما يشركون. فالقرآن فيه هذه المعاني التي ذكرناها ويجمعها. وسائر كلام العرب كلّ نوعٍ هو في فنٍ واحدٍ.

(٥) ثم في القرآن من الأمور الجليلة التي لا يقوم الدِّين والدُّنيا وسياسة العالم إلاّ بها مثل: الدّعاء إلى توحيد اللَّه عزَّ وجلَّ؛ والحثّ على عبادته وتحميده وتسبيحه وتهليله وتمجيده والثَّناء عليه بما هو أهله، والرّغبة إليه بالدّعاء والتضرّع، والمسألة في العفو والمغفرة، والرهبة منه، والتّصديق برُسُله وإثبات طاعتهم، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والتّرغيب في الجنّة والتَّرهيب من النّار، والوعد والوعيد، والترغيب في الآخرة، والزّهد في الدّنيا، والبسط من رجاء أهل التوحيد وأهل الإيمان به فيما وعدهم اللَّه عزَّ وجلَّ من الرَّأفة بهم،

واجتناب القنوط من غفران اللَّه، وتخويف أهل الكفر بشدَّة العقاب وأليم العذاب، والأمر بمكارم الأخلاق ومعاليها مثل: صلة الرَّحم وبذل المعروف ورعاية الحقوق والوفاء بالذِّمَّة والعهد وبِرّ الوالدين والأمر بالإحسان والنّهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، واجتناب الشّر والأعمال النّجسة والفواحش القذرة، والأمر بالاقتصاد وترك البخل والتّقتير والإسراف، وإقامة الحدود في القتل وفي أخذ أموال النَّاس بغير حقّها والفساد في الأرض والزّنى والسّرق وغير ذلك، مما حُدِّدت فيه الحدود وبُيِّنت فيه الأحكام، وقام بها الدِّين وسياسة الدّنيا، وأقرّ بنفعها وفضلها العدوّ واعترف به كما اعترف به الوليُّ؛ كما ذكر عن بطريق البطارقة بأرمينية أنّه قال: ما خفي عليَّ وجه السّياسة بعد أن سمعت الآية من القرآن: «خُذ الْعفو وأمُرْ بالعُرف وأَعرِضْ عن الجاهلين». ولَعمري قد وقف مع كفره بالقرآن حين عرف لطائف المعاني التي في هذه الآية في باب السّياسة ومكارم الأخلاق. ولها في القرآن نظائر كثيرة، فمنها ما خرج على الاختصار والإيجاز، ومنها ما خرج على الشّرح والتَّفسير.

وفيه أخبار القرون الخالية وأنباء القرون الآتية وضرب الأمثال. فجمع النبي (ص) في هذا الكتاب من هذه الشرائع والآداب التي قد ذكرناها إلى غير ذلك ممَّا يطول به الشَّرح، بتأييد من اللَّه عزَّ وجلَّ ووحي منه إليه؛ وهو أُمّيٌّ، كان لا يقرأ كتاباً قبل ذلك ولا يكتبه، ولم يكن يخالط الملوك والرّؤساء، ولا كان يختلف إلى العلماء والأدباء، كما وصفه اللَّه عزَّ وجلَّ فقال: «وما كنت تتلو من قَبْله من كتابٍ ولا تَخطّهُ بيمينك إذاً لارتاب المبطلون».

وهذا من معجزاته أن يأتي صلوات اللَّه عليه بمثل هذه الأسباب الجليلة الخطيرة، ويجمعها في كتابه، وهو أمّيٌّ لم يقرأ ولم يكتب قبل أن أُوحي إليه، فجرى على تلك السُّنّة، ولو أراد أن يكتب لفعل؛ فإنَّ الذي أورده في كتابه من ذكر حروف المعجم التي لا يعرفها الأميّون يدل على ذلك. فأين الملحد المعتوه حين زعم أنّه ليس في القرآن فائدة ولا نفع ولا ضرّ، ثم قرنه بالمجسطي وكتب الهندسة والطبِّ والمنطق وغير ذلك وجعل هذه الكتب نظائر القرآن، بل فضّلها

عليه، وأبطل فضائل القرآن. فمن لم يؤمن بشرائعه وبما في إقامتها من النّفع الذي وعد اللّه القائمين بها من الثّواب العظيم، والضّرّ الذي أوعد التّاركين لها من العذاب الأليم، كيف عمي عن الذي فيه من مكارم الأخلاق والأمور الجليلة التي ساس بها الأنام؟! وكيف لم يتدبّر أمر الكتب التي ذكرها، التي ليس فيها من التّدبير ما يسوس به الإنسانُ أمرَ بيته وأهله وولده، كما قد قامت سياسة العالم بأحكام القرآن وحدوده؟! فإنه ليس في هذه الكتب إلاّ آداب إن تعلّمها الإنسان سُمِّي متأدِّباً بنوع من الأدب، وإن لم يتعلَّمها لم يضرَّه ذلك شيئاً. ولو أنَّ إنساناً عاش ألف سنة لا يعرف المجسطيَّ وإقليدس وكتب الهندسة والطبِّ والمنطق، ولم يكن منجّماً ولا مهندساً ولا طبيباً، لكان مثاله مثال من لا يكون بنّاءً ولا خيّاطاً ولا حائكاً ولا صائغاً، ولكان يكفي ذلك ولا يضرّه ترك تعلّمه ذلك والنّظر فيه في دينه ولا مروءته. وجميع النّاس لا يستغنون عن أحكام القرآن والشّرائع، ولا بدّ لكلِّ واحد أن ينظر في شيء منها مقدار ما يكون داخلاً في جملتها، كما أنَّ كلَّ مسلم لا بدَّ له أن يحفظ سورتين من القرآن، وكذلك كلُّ ملحد متستّر بالإسلام، لا بدّ له من ذلك، وإن ترك ذلك طَرْفة عين هلك في أُولاه وأُخراه.

فإن قال قائل: إنَّ العالم كان يساس قبل نزول القرآن، قلنا: قامت سياسة العالم قبل نزوله في جميع الممالك برسوم الأنبياء (ع) التي أسّسوها على الدِّيانة، وبآثارهم في جميع الممالك. فأهل كلّ مملكة كان يسوسهم من يملكهم بتلك الرّسوم. فلما جاء القرآن طبّق الأرض وكبس العالم تحت أحكامه وظهر على جميع الأديان وعلى جميع الأمم وقهر الأنام كافةً. فأين يقع النّفع والضّرّ الذي في تلك الكتب من النّفع والضّرّ الذي في القرآن؟ فإنَّ أحكام القرآن قد نفعت المؤمن والكافر في أمور دنياهم، لا يستغنون عنها يوماً واحداً، وخصّت المؤمنين دون الكافرين بالنّفع في أخراهم. فهلاّ التجأ الملحد إلى المجسطيّ وكتب الهندسة والطبِّ والمنطق، فحقن بها دمه وحصّن ماله وذريَّته حتى يكون خارجاً من أحكام القرآن الذي زعم أنه لا نفع فيه ولا ضرّ كما في تلك الكتب، وجهل ما قد نفع الملحدين حين دخلوا تحت أحكام القرآن وحقنوا دماءهم وحصّنوا أموالهم

وذراريهم. وهل ينكر هذا الشَّأن العظيم من نفع القرآن وضرّه إلاً معتوه؟ ونعوذ باللَّه من الكفر لنِعَم اللَّه والعمى في دينه.

(٦) وقد ذكرنا طرفاً من الأمور الجليلة التي يجمعها القرآن دون القوَّة الإلهية التي هي فيه كامنة مستسرّة، التي هي المؤثرة في العالم بهذه الأسباب الظّاهرة، التي جمعت الخاصَّ والعامَّ، والمؤمن والكافر. وتلك القوة هي للخاصَّة دون العامّة، وللمؤمن دون الكافر؛ وذلك أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ اصطفى محمّداً (ص) لنبوّته وبعثه إلى خلقه ليدعوهم إلى عبادته واختاره من الأنام؛ فكان أطهر النَّاس نفساً وأطيبهم روحاً، وكانت روحه النَّاطقة ونفسه الحسّيّة أبلغ تهيّؤاً لقبول آثار الوحي، وأشدَّ مشاكلةً للرّوح المقدَّسة التي أيَّد اللَّه بها أنبياءه ورسله، من جميع أرواح البشر وأنفسهم، فأثّر ذلك الوحي في نفسه لصفائها من كدورة العوارض النّفسانيّة التي تكدّر الأنفس، مثل الهوى والحسد والكِبَر والحرص والبخل والطّغيان والاستنكاف وغير ذلك ممّا يشاكلها، الضَّارَّة بأنفس البشر، المفسدة لها. فكان هو (ص) أصفى الخلائق أجمعين نفساً من الأوساخ المدنِّسة للأنفس؛ وأثّرت تلك الرّوح المقدّسة في نفسه الحسّيّة وامتزجت بروحه النَّاطقة الطيّبة النقيَّة من هذه الآفات والنّجاسات، وقَبِل هذه الموهبة من ربّه عزَّ وجلَّ، وعرف بها عظمة اللَّه سبحانه وربوبيّته وإلهيَّته ووحدانيّته وجلال سلطانه، وقام بخالص العبوديّة، وقويت نفسه بذلك التّأييد، وأيقن بكلّ ما وعد اللَّه، وقام بأمره عزَّ وجلَّ، باذلاً نفسه له، موقناً بكل ما أوحي إليه، مؤمناً بكل ما أعلمه أنه يبلغه إذا قام بأمر ربّه من الشّرف الرّفيع في أُولاه والدّرجات العُلى في أُخراه، لم يشكَّ في ربِّه ولا ارتاب بوعده. فلمّا أثّر ذلك الوحي في نفسه وقبله بقلبه وصوّره في فكره، أظهره بنطقه. فذلك الوحي أوكد أسبابه في نبوّته وأعلى حجج اللَّه على برّيته وأوضح ما أتى به من براهينه وبيّناته ومعجزاته، وكان ما أظهره بمنزلة ضياء يطلع في العالم؛ فكذلك أضاء في قلوب البشر، فقبله من كان أقرب النَّاس إليه في الصفوة والطَّهارة، لا في قرب البشريّة، بل في القرب الروحانيّ من طهارة الأنفس وسلامتها من الآفات وقرب بعضها من بعض، والمشاكلة والائتلاف؛ فأثّر كلامه

في أنفس الذين قبلوه واختلط بها كاختلاط الرّوح المقدسة بنفس محمد (ص)، فكان فضله على مَنْ قَبِل منه كلامه كفضل ما قبله عن ربه بواسطة من الملائكة الروحانيين في حد اللطافة على من قبله من الناس بواسطة من الملائكة ومنه (ص) على سبيل النطق. فمن كان منهم أصفى نفساً، كان أحسن تهيّؤاً لقبول ذلك الكلام ولتأثير تلك القوة في نفسه، وقبله الواحد بعد الواحد يوماً يوماً، وهو يلقيه إليهم على حسب ما يوحى إليه ويؤثّر ذلك في الأنفس على حسب تصفيتها، وتنبو عنه الأنفس الكدرة الظّلمانيّة التي قد أفسدتها العوارض النّفسانيّة التي قد ذكرناها، ومنعتها عن الطّهارات. فعلى قدر سلامة الأنفس من تلك العوارض وصفائها، وعلى مقدار امتزاجه بها، كان قبولهم ما أتى به محمّد (ص). ووقعت عليهم الأسماء على طبقاتهم، فطائفة سمّاهم مسلمين، وطائفة سمّاهم مؤمنين، وطائفة سماهم كافرين، على حسب الاستحقاق، وكذلك سائر الأسماء والنّعوت التي سمّى بها أمّته ونعتهم بها. وأكثر هذه الأسماء لم تعرفها الأمّة التي بُعث فيها، بل هو رسمها بتأييد اللّه إيّاه على حسب قبولهم ما أتى به.

فشرق ذلك النور على العالم وفشا في قلوب البشر وأثّر فيها وصار بمنزلة بذر يبذره الزرّاع في أرضه، فمنه ما يقع على صخرة ومنه ما يقع على سبخة، ومنه ما يقع على صعيد طيب؛ فعلى حسب ذلك يزكو وينبت، كما قد ذكرنا أنّه مكتوب في الإنجيل. وبهذا وصف عزَّ وجلَّ محمَّداً (ص) وأصحابه ومن تبعه وأخذ عنه وقبل كلامه، فقال عزَّ وجلَّ: «محمَّدٌ رسول اللّه والذين معه أشدَّاء على الكفّار رحماءُ بينهم» إلى قوله: «كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظَ فاستوى على سوقه يُعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفار» فشبه تبارك اسمه محمّداً ونبوته بالزّرع وشبّه أتباعه وأصحابه بشطأ الزّرع، والشّطأ هو فراخ الزّرع وصغاره التي تنبت حوله بمنزلة الحبّة التي تنبت ساقاً واحدة، ثم ينبت حول تلك السّاق فراخ كثيرة، فمن أجاب محمَّداً (ص) إلى يومنا هذا، هم زرعه، وغذاؤهم القرآن وبه قوامهم. ولولا القرآن الذي ورّثه محمد (ص) أمّته، وما فيه من القوّة الشّديدة التي قد جمعت قلوب البشر على قبوله وقبول أحكامه، لما استقام أمر الأنام ولا

اعتدل أمر العالم. ولولا ما أثّرت تلك القوى الرّوحانيّة في أنفس البشر لما قبلوه ولما بقي أثره في العالم إلى هذا اليوم. ولكنّه يزداد ويقوى على مرور الأيّام، لأنّها قوة إلهيّة مقدّسة من كلام اللّه عزّ وجلّ. ولولا ذلك لكان سبيل القرآن سبيل مسيلمة وطلحة والأسود العنسيّ وغيرهم من المتنبين الكذّابين، ولكان رسمه لا يبقى في العالم، كما أنّ كلام أولئك ورسومهم لم تبقَ في العالم. ومن أجل هذه القوّة التي في القرآن سمّوه سحراً، لأنّ محمّداً (ص) كان يتلوه على النّاس، فيقع في أسماعهم وتؤدّيه الأسماع إلى القلوب، فيجذب القلوب إلى طاعته بتلك القوة الرّوحانيّة الإلهيّة التي هي مستترة كامنة فيه، التي من أجلها قالت قريش والعرب إنّه سحر وإنّ محمّداً هو ساحر على حسب ما يدّعيه النّاس أنّ السّحر يؤثّر في أنفس البشر وأنّ كلام السَّحَرة وما يكون منهم من الرُّقَى والنَّفث في العُقَد وأصناف السّحر تؤثّر في القلوب وتقلبها من الإلف إلى التّعادي، ومن التّعادي إلى الإلف، ومن المحبّة إلى العداوة، ومن العداوة إلى المحبّة، إلى غير ذلك من التأثيرات التي تقع من فعل السَّحَرة في أنفس البشر. وهذا شيء قد اتّفقت عليه أمم من النّاس وإنّ أنكره قوم ودفعوه؛ فإنّ أكثر الأمم التي قد خلت، فيما مضى من الدهور والأعصار إلى يومنا هذا، قد قالت به وصحّحته وزعمت أنّ عينه قائم، كما يذكر عن الهند خاصة من الأمور العظيمة في الرُّقَى التي تُذكَر عنهم، أنّهم يحلّون بها ويعقدون، ويذكر أنّهم يرقون الملسوع ومن سُقِيَ السمّ فيُخرجون السمّ، وما يذكر أنّهم يظهرونه من التّخائيل التي يتحيّر فيها الأريب اللّبيب، وما يذكر عنهم من أمر النُّكر، وما يفعلونه في باب المطر والبرد وحبسه، وغير ذلك من أصناف السّحر.

هذا، وإن لم يصحّ كلّه فإنّا نقول إنّ أصل السحر صحيح، وقد خُلط به كثير من المخاريق؛ لأنّ القرآن وسائر كتب اللّه عزّ وجلّ قد نطقت به، وجماهير النّاس يقرّون به ولا يدفعون أنّ أصل السّحر صحيحٌ. ومن أجل ذلك قالت الأمم لأنبيائهم سَحَرة، كما قالت العرب إنّ محمّداً (ص) هو ساحر وقوله سِحر. وكانوا يقعدون بكل سبيل ويصدّون عنه النَّاس، مخافة أن يسمعوا كلامه فيؤمنوا

به. وكانوا يسمّون من سمع كلامه وآمن به صابئاً وقالوا: «صبأ فلان وفلان». ومعنى التّصابي في كلام العرب هو العشق والمحبّة. فلمّا رأوا من يسمع كلامه يحبّه ويؤثّر في قلبه ويختلط بنفسه، قالوا له: «قد صبأ». وكانوا يصدّون كلّ من ورد مكة من أهل الوبر والمدر عنه وينهونه عن الاستماع منه. وذلك أن العرب كانت تأتي مكة حجّاجاً وفي التّجارات وكانت مواسمهم بمكة قائمة، وكان رسول اللّه (ص) يعرض عليهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن فيأمنون وتخبت له قلوبهم وينقادون له ويرجعون إلى قبائلهم فيدعونهم إلى الإسلام؛ كما رُويَ أنَّ الطفيل بن عمرو الدّوسي ورد بمكّة، وكان لبيباً شاعراً ورئيساً في قومه، فاجتمعت إليه قريش ونهوه أن يقرب رسول اللّه (ص) وقالوا له: كلامه سحر يفرّق بين المرء وزوجته وأحِبَّته وعشيرته، وإنّا نخشاه عليك وعلى قومك؛ فلا تكلّمه ولا تسمع من قوله، فإنّه يسحرك بكلامه. فعمد إلى كرسفٍ وحشا به أذنيه فَرَقاً من أن يسمع قوله، وغدا إلى المسجد وطاف بالبيت، وإذا رسول اللّه (ص) يصلّي عند الكعبة وهو يتلو هذه الآية: «إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون». فوقر ذلك في أذنيه. فلّما سمعها، أخرج الكرسف من أذنيه ورمى به وقال: وا ثكل أميّ، إنّي لبيب شاعر أعرف الحَسَن من القبيح، ما لي أتّهم عقلي ولا أتّهم عقول قريش؟ ثم أقبل إلى النبيّ (ص) فقال: أعِدْ عليّ كلامك يا محمّد! فأعاده عليه وزاده. فقال: واللّهِ إنَّ هذا لو لم يكن أيضاً ديناً لكان حسناً، وإنّي لأشهد أنّك صادقٌ. فأسلم وحسن إسلامه ورجع إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام. وقد كان سأل النبيّ (ص) أن يعطيه آية، فقال: «اللَّهُم أعطه آية»، ومسح سَوْطاً كان في يده. فلمّا طلع على قومه من الثّنيّة، رأى قومه نوراً يسطع من رأس سَوطه؛ فسألوه عن شأنه، فأخبرهم، فأسلموا وقدموا على رسول اللّه (ص) وشهدوا معه فتح مكة. وله في ذلك شعر يقول فيه:

رأيت علامةً والليلُ داجٍ ... على ظهر الطَّريق كضوءِ برقِ
علامَة أحمد إذا سأل ربّي ... فكانت آيةً مصداقَ صدقي

وهي قصيدة. فكان أصل إسلامه ما وقع في قلبه من قوة كلام رسول اللّه (ص).

وهكذا سبيل هذه القوّة المستسرّة في القرآن التي وقعت في أنفس النّاس وألّفت بين قلوبهم بتأييد من اللّه عزَّ وجلَّ. وهكذا قال اللّه تعالى ذكره: «هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بين قلوبهم ولكنَّ اللّه ألّف بينهم». ولولا أنَّ القرآن وما فيه من القوَّة التي ألّفت بين قلوب النّاس وجمعتهم على قبوله وقبول أحكامه، ثم اجتمع أهل الأرض على أن يفعلوا ذلك، لما قدروا عليه.

والذي ذكره الملحد أنّ الذي جمع هذه الأمّة على قبول أحكام الإسلام والإقامة عليها، سببه الإلف والعادة ومرُّ الأيام، فليست له في ذلك حجّة؛ لأنّه لم يتقدَّم إلف ولا عادة لأصحاب رسول الله (ص) الذين آمنوا به بمكّة عند ظهوره قبل أن قوي الإسلام، ولم يعتادوا ذلك، ولا مرّت به الأيام بالإلف. وإنّما سمعوا كلامه، فقبلوه وآمنوا به، كما ذكرنا من شأن الطُّفيل بن عمرو، وأثّر القرآن في قلوبهم وجمع بينهم وألّفها على طاعته، وصبروا معه على الأذى الشديد؛ فإنهم كانوا يُفتَنون ويُعذَّبون بأنواع البلاء ليرجعوا عنه، فصبروا ولم يرجعوا عنه كما رُوي من حديث بلال: أنّ ورقة بن نوفل مرَّ على بلال وقد أخذه أميّة بن خلف الجمحي وألقاه على ظهره في الرّمضاء ووضع الحجر على بطنه وهو يقول: هذا دأبي ودأبك أو أن تكفر بمحمد. وبلال يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ. وورقة بن نوفل يقول: نعم يا بلال! أحد أحد. فصبر على ذلك ولم يرجع عن الإسلام.

ومثل حديث بلال، فيما كانوا يلقون من قريش، عددٌ كثير تطول الخُطب بذكرهم. فعلى هذا كانوا يُؤذَون ويصبرون ويزدادون إيماناً ويقيناً، حتى صار الأمر بهم إلى الجلاء، فخرج كثير منهم مهاجراً إلى أرض الحبشة، ثم اشتدّ الأمر بهم فهاجروا إلى المدينة وهجروا الآباء والأمّهات والأبناء والبنات والإخوة والأخوات والعشائر والقرابات وقطعوا الأزواج والأحبّة ولحقوا برسول اللّه (ص)

في دار الهجرة في المدينة؛ وخرجوا إليه أرسالاً كعُرف الفرس يتبع بعضهم بعضاً، ينقطع الرجال عن حلائلهم، والنّساء عن أزواجهن، طيّبة بذلك أنفهسم، مستميتين في حب رسول اللّه (ص)، تابعين له على دينه، قابلين لسنته وأحكامه، باذلين له أنفسهم ومُهجَهم وأموالهم. وعلى هذا تابعه من آمن به في دار هجرته لمّا سمعوا القرآن وأثّرت قوته في قلوبهم، فآووه ونصروه، وأحبوا من هاجر إليهم، واتّخذ بعضهم بعضاً إخواناً، وواسوهم بأموالهم وآووهم في ديارهم، ونابذوا آباءهم وأبناءهم وعشائرهم، فقطعوا كل عهد وذمّة كانت بينهم وبين من يحاددهم، وردوا كلَّ جوار وحرمة كانت بينهم بعضهم في بعض، وآثروا محمداً (ص)، ومن هاجر معه إليهم، على جميع من ذكرنا من القريب والبعيد، ونزلوا على حكمه، ولم يُقبل إيمانهم حتى حكّموه في أنفسهم وأموالهم وذراريهم، ورضوا بذلك وسلّموا له، وهم مختارون غير مُجبَرين وطائعون غير مُكرَهين؛ وتلا عليهم قول اللّه عزَّ وجلَّ: «فلا وَرَبِّك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويُسلّموا تسليماً»، وقوله: «ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّه ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيرَةُ من أمرهم ومن يعصِ اللّه ورسولَهُ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً»، فقبلوا ذلك منه وألزمهم هذه الشّرائط، وهو رجل وحيد فريد لا سلطان له عليهم ولا مال له ولا عشيرة تعينه ولا قبيلة. فقبلوا منه هذه الشرائط طيّبة بذلك أنفسهم مع ما قد جبل اللّه عليه البشر من حبّ من أحسن إليها، والنّفور ممّن أساء إليها؛ ولم ينالوا منه من أمر الدُّنيا شيئاً، من أعراضها التي يعدّها من يُؤْثِر الدُّنيا إحساناً، بل نالوا منه هذه الأسباب التي يعدونها إساءة إذا آثروا الدُّنيا على الآخرة؛ كما قالت له قريش: قطعت أرحامنا وسفّهت أحلامنا وعبت أديانا وفرّقت بيننا. ومن آثر الدِّين على الدّنيا قَبِلَ ذلك من محمّد (ص) وعدّه إحساناً.

وأثّرت قوّة كلام اللّه في قلوبهم، ولولا ذلك لما أجابوه إلى ما دعاهم إليه من ترك الشّهوات الدُّنيويّة ومن قطيعة من ذكرنا من الأحبّة، ولا تابعوه على بذل الأموال والمهج له في حياته، والتّمسك بما شرعه لهم بعد وفاته والتّشديد فيه،

وما ظهر منهم من استماتتهم في ذلك واعتكافهم عليه ومحبّتهم له والتزامهم إيّاه طائعين غير مُكرَهين. فأيّ إلفٍ وعادةٍ تقدّمت لهم، وأيُّ أيّام مرَّت عليهم في بدء أمرهم، وسبيلهم ما قد وصفناه؟! وأيُّ حجّة تثبت للملحدين بما يدَّعونه في باب الإلف والعادة؟!

فإن قال قائل إنّه حارب من خالفوه وأجبرهم على قبول ما أتى به، قلنا: قبلوه في بدء أمره وهم مختارون، حتى قوي أمره؛ ثم عانده النّاس من كل وجه وأظهروا منازعته؛ فلم يحب اللّه عزَّ وجلَّ له قبول الصِّغار على نفسه بعد أن أظهره اللّه. فحينئذ أكره المستكبرين والعتاة، الذين كانوا يفتنون أصحابه، على قبوله، وألزمهم الذُّلَّ، وأعلى المُؤمنين به عليهم. وبذلك أمره اللّه عزَّ وجلَّ، فقال: «وقاتِلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدِّين كلّه للّه». وإلاّ فإنَّ أوّل أمره لا يخفى، أنّه قام فيهم وهو رجل واحدٌ، ثار بين ظهراني قومه، وأظهر ما أوحى إليه ربّه؛ فجفوه، واستخّفوا به، وبلغوا من أذاه كلّ غايةٍ، وخرج في بعض أيّامه حين رهقه الأمر إلى الطّائف، وعرض نفسه على أهلها؛ فنظر إليه عبدياليل بن عمرو، وهو قاعد في ظل حائط له، يتّقي حمّارة القيظ عن نفسه، وكان عبدياليل بن عمرو سيّداً فيهم متكبِّراً طاغيةً. فقال له: قُم يا محمّد عن ظلّ حائطي، فرفع رأسه إلى السَّماء وقال: «يا رب، إليك أشكو ضعفي وقلّة حيلتي وهواني على الناس. إن لم يكن بك سخط، فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي».

واجتمعت قريش وتعاقدوا فيما بينهم وتحالفوا وكتبوا بينهم كتاباً، وعلقوه في الكعبة. واتفقوا أن يقطعوه ويقطعوا من تابعه، فلا يخالطوهم ولا يبيعوا منهم طعاماً، وأن يمنعوا من مخالطتهم كلّ حاضر وبادٍ. وأخرجوهم إلى شِعَب مكّة. وبقوا فيه على هذه الحال. وكتبوا بذلك كتاباً وعلقوه في الكعبة حتى استقبح ذلك قوم من قريش واجتمع نفر منهم ومزّقوا ذلك الكتاب وقالوا: مزِّقُوا هذه الصَّحيفة القاطعة. فلم يزل صلّى اللّه عليه وآله ومن آمن به يَلقون هذا الأذى الشّديد من عشيرته وقومه إلى أن هاجر إلى المدينة على السبيل التي في شهرتها غنية عن تطويل الخطب بها، وهاجر على إثره أصحابه على نحو ما قد ذكرناه، فأيُّ إلفٍ

جمع المسلمين مع هذه الشّدائد؟ وأيُّ عادة تقدَّمت منهم؟! وأيُّ أيّام مرّت عليهم؟! وأيُّ دهر أتى عليهم في ابتداء أمرهم؟! فهذا كان أصل بنيانه وتأسيس أمر دينه، وما بعد ذلك فهو فرع لذلك الأصل، فإن كان ذلك الأصل مبنيّاً على الإلف والعادة، فكذلك يجب أن يُحكَم في الفرع، فإنَّ الفروع تُقاس على الأصول، وإلاّ فحجّة الملحد داحضة في باب الإلف والعادة.

وكانت سبيل الأنبياء (ع) كلّهم مثل سبيل محمّد (ص) وعزّاه [سبحانه] عمّا كان يتلقّى من قومه وأمره بأن يتأسّى بمن تقدّمة من الأنبياء (ع)، فقال تبارك اسمه: «ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرُنا ولا مُبدِّل لكلمات اللّه ولقد جاءك من نبأ المرسلين». وعزّى من آمن به فأمرهم أن يتأسّوا بمن تقدَّمهم من أتباع الأنبياء (ع)، فقال جلَّ ذكره: «وكأيّن من نبيٍّ قاتل معه رِبِّيُّون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل اللّه وما ضعفوا وما استكانوا واللّه يحبّ الصّابرين». وإنَّما امتحن اللّه عزَّ وجلَّ الأنبياء (ع) في ابتداء أمرهم بهذه المحن، لكي لا تثبت حجج المبطلين في دعواهم، أنَّ الذين قبلوا الشرائع قبلوها بالإلف والعادة، ثم نصرهم اللّه بعد ذلك وقوّاهم بعد الضعف وأعلى أمرهم وشدَّ بنيانهم بتأييد منه وبقوة الكلام الذي أنزله عليهم، وعمل ذلك في قلوب البشر هذا العمل العظيم كما قد ذكرناه. وإنّما أطلنا الكلام بذلك لأنَّ الملحدين يحتجّون بهذه الحجّة الواهية ويزعمون أنَّ الذي جمع أهل الشَّرائع على إقامتها، سببه الإلف والعادة ومرور الأيّام والدّهور. وهذه عندهم أوكد الحجج جهلاً منهم وقلّة إنصاف وسوءَ تمييز؛ إذ لا يميّزون حال الأنبياء في ابتداء أمرهم كيف كان؟ وكيف امتحن اللّه الخلائق؟ لكي لا يقولوا إنّه إلف وعادة، ولئلاً يكون للنّاس على اللّه حجّة، وليعرفوا عِظَم شأن كُتب اللّه المنزَّلة وكلام الأنبياء (ع) وما في ذلك من القوّة الجامعة لهم المؤلِّفة بين قلوبهم على إقامة الشَّرائع؛ كما نرى كيف اختلطت تلك القوّة بأنفسهم ودبّت في عروقهم وأثَّرت في قلوبهم كما تدبّ العقاقير في أبدان البشر وتجري في عروقهم وتؤثّر في طبائعهم.

(٧) وإن قال قائل: فما بال هذه القوّة أثّرت في بعض الأنفس دون بعض؟ ولِمَ أثّرت في أنفس من تبع محمّداً (ص) ولم تؤثّر في أنفس من خالفه وعاداه وأخرجه عن أهله وداره؟

قلنا: قد تقدّم القول منّا أن هذه الأنفس تلحقها عوارض نفسانيّة لطيفة تفسدها وتنجّسها حتّى لا تقبل تلك التّأثيرات، كما ذكرنا في باب الهوى والحسد والكبر والجفاء والبغي والطّغيان والطّعن والعداوة والخيلاء والنّخوة والافتخار والحرص والأمل والشكّ والشّبهة والعتوّ والشقاق والعزة وغير ذلك ممّا يشاكل هذه الأسباب المفسدة للأنفس. فهذا كان سبب امتناع تلك القوّة من التّأثير في قلوب من خالفه وعاداه. ومثل ذلك موجود بيّن في العقاقير التي تؤثّر في طبائع النّاس؛ فإن الطِّباع إذا عارضتها علّة قويّة امتنعت من قبول أثر العقاقير فيها، ومثل حجر المغناطيس إذا حُكَّ عليه الثّوم لم يجذب الحديد، ولم يظهر أثر قوّته للعارض الذي منعه؛ فهكذا كان سبيل تلك القلوب التي لم تقبل أثر القرآن. وكانت قريش قد بُليت بهذه العوارض ما لم يُبلَ به سائر العرب لأنّهم كانوا من معدن الشّرف والعزّ ومصاص الفخر وكانوا سكان حرم اللّه ويقولون: نحن آل اللّه ونحن أهل اللّه. وكانت العرب قاطبةً تعرف ذلك لهم، فكانوا لا يغزونهم ولا يؤذونهم، كما كان يغزو بعضهم بعضاً، إكراماً لهم واعترافاً بشرفهم. فكانت تلك النّخوة وذلك الكِبَر والافتخار قد ران على قلوبهم، وأفسدتها تلك العوارض المذمومة وكدّرتها ونجّستها، فامتنعت من قبول تلك القوّة الطّاهرة الطيّبة. وقبلتها القلوب التي سَلِمت من تلك العوارض وصفت منها. فمن أجل ذلك آمنوا بمحمّد (ص) وصبروا معه على الأذى الشّديد والمِحَن العظيمة، ولم يَهِنوا لذلك، ولا ملّوا ولا ضعفت نياتهم، بل كانوا يزدادون إيماناً إذا اشتدّ بهم الأمر وخوّفهم النّاس، ويقوى يقينهم كما وصفهم اللّه به، فقال: «الّذين قال لهم النّاسُ إنَّ النَّاسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من اللّه وفضل لم يمسسهم سوء واتّبعوا رضوان اللّه واللّه ذو فضل عظيم». فأولئك أسلافنا الذين هم أُسُّ دعوة الإسلام وقواعد الشريعة. هكذا

جرى أمرهم في قبول الملّة اختياراً من غير إجبار ولا قهر، وابتداءً من غير إلف ولا عادةٍ ولا مرور أيّام عليهم ولا دهور؛ بل عملت تلك القوّة الإلهية في قلوبهم وألّفت بينها وجمعتها على قبوله. ونحن فروع لتلك الأصول وخَلَف لذلك السَّلف، وسبيلنا في حبّ الإسلام واجتماع القلوب عليه سبيلهم.

فهذا فعل القرآن العظيم بقلوب البشر، أعدنا القول به مرة بعد مرة لتعرف ـ رحمك اللّه ـ عِظَم شأنه وما فيه من المعجز الكبير الدّالّ على نبوّة محمد (ص) وهو ظاهر قائم في العالم، يزداد قوة على مرور الأيّام تشتد وتنمو في مشارق الأرض ومغاربها، وتثمر هذه القوة هذه الثّمرة الزّكيَّة كما ترى في هذه الأمصار الكثيرة التي لا تُحصى عدداً في كل مصر، في قصبته وسواده، من المساجد ما يعجز الناس عن إحصائها، وكل مسجد يقوم فيه منادٍ ينادي في كلّ يوم في خمسة أوقات، يشهد بتوحيد اللّه عزَّ وجلَّ وبتصديق محمّد (ص) وبنبوّته، ويدعو إلى إقامة شريعته بأعلى صوته مجدّاً مجتهداً. فأي قوّة في العالم عملت في أنفس البشر ما عملت قوّة كلام اللّه الذي جاء به محمّد (ص)؟ وأيُّ دلالة أوكد من هذه؛ وأي معجزة أبلغ من القرآن؟ وأي كتاب في العالم أعظم نفعاً للبشر منه في الدِّين والدُّنيا، به حُقنت الدّماء وحُصِّنت الأموال ومُنعت أيدي الخلائق ـ بعضهم عن بعض ـ من الفساد في الأرض؟ ولولا ذلك لهلك الحرث والنَّسْل وفسدت الأرض وما فيها.

وهذا هو المثل الذي طالب به محمّد (ص) النَّاس أن يأتوا به حيث بلّغ عن اللّه عزَّ وجلّ، فقال: «لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً». وهذا هو المثل الذي طالَبنا به الملحدُ في كتابه، فقال: إنّا نطالبكم بالمثل الذي تزعمون أنّا لا نقدر أن نأتي به؛ لا ما قاله الملحد، أنَّ شعر الشعراء وخطب البلغاء وسجع الكهّان هي أفضل منه، وأنَّ القرآن خلو من هذه على زعم الملحد المعتوه وزعم أنّه يأتي بألف مثله. وأي مثل يوجد للقرآن في العالم مع ما قد وصفناه به من هذه القوة الشَّديدة وهذا الفضل العظيم؟ هيهات هيهات!! لا يوجد ذلك أبداً.

(٨) هذا، سوى ما فيه من المنفعة الدّينيّة التي بها نجاة المؤمنين به المقيمين لما فيه من الفرائض والسُّنَن، وما وعدهم اللّه عليه من الثّواب العظيم وأعدّ لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون. وتلك هي النّعمة الكبرى والمنفعة العظمى والشّرف الأعلى والجزاء الأوفى. وإنَّ الملحد قد سخر بنفسه وغرب فهمه وتاه عقله حين زعم أنَّ المجسطيّ وكُتب الهندسة والطبّ والمنطق والنّجوم أكبر نفعاً من القرآن، وأنّه ليس في القرآن فائدة ولا نفع ولا ضرّ، وأورد كلام المجانين الذين لا يعقلون ما يقولون. وقد كشفنا عمّا في القرآن من النّفع العظيم في الدِّين والدُّنيا؛ فليكشفْ لنا الملحدون عن الذي في المجسطيّ وكتب الهندسة والمنطق والنّجوم من النّفع، سوى ما فيها من الآداب التي لا يحوز نفعها إلا من يتعلّمها وذلك شيءٌ نزر قليل، يشاكل سائر الآداب التي يتأدَّب بها النَّاس، ويستغني عنها من لا يشتغل بها في دينه ودنياه. وأنت لا تجد في دهماء النَّاس في كلّ مصر من يشتغلون بها إلاَّ رجلاً أو رجلين، بل أمصار كثيرة ليس فيها أحد يعرفها. وقد اتّفق المسلم والملحد على أنَّ المجسطي وكتب الهندسة والطبَّ والمنطق والنّجوم ليس فيها نفع من جهّة الدِّيانة. وأمّا في أمور الدُّنيا، فكل الصّناعات أكبر نفعاً منها، وأهلها أوفر حظّاً وأغنى بما في أيديهم ممّن يكسب بتلك الكتب. ومن ازداد فيها نظراً، إذا لم يكن متمسّكاً بحبل الشّريعة والتّوحيد والنبوّة، مستبصراً فيه، مستحكمَ المعرفة بأمر الدِّين، أدّاه ذلك إلى التّعطيل والخروج إلى الإلحاد، ويدعوه ذلك إلى الاشتغال بكتب هؤلاء الذين تشبّهوا بالفلاسفة والقدماء الحكماء، وتسمّوا بأسمائهم، ووضعوا كتباً مزخرفة ليس فيها إلاَّ الوساوس المتناقضة على حسب ما فسّرنا وشرحنا اختلالها وتناقضها، التي تذهل عقل من يشتغل بها وتسلبه لبّه وتوقعه في حيرة مُهلِكة ولا تزيده إلاَّ عمىً وضلالاً. ولسنا نطعن على المجسطيّ وإقليدس وبطليموس وغير ذلك من الكتب في المنطق والطبّ وما كان من هذا الجنس؛ فإنَّ هذه من الحكماء، وأظهروا ما فيها من الحكمة بتأييد من اللّه عزَّ وجلَّ. ولكنَّها ليست نظائر القرآن. كما أنَّ أولئك الحكماء لم يكونوا نظائر لمحمَّد (ص) لأنَّ حكمة محمّد (ص) عمّت أهل الأرض، المؤمن والكافر، على

ما قد وصفنا. والحكماء الذين وضعوا هذه الكتب أظهروا للنّاس حكمتهم ليعرّفوا النّاس مراتبهم، وكان نفع ذلك راجعاً إليهم في أنفسهم وإلى من عرف فضلهم في أعصارهم، فأخذوا عنهم أمر دينهم. وكل واحد منهم كان حكيم دهره، وكان نفع كلامهم وضرّه في أمر الدّيانة يصل في عصره إلى الذين شاهدوه، فمن عرف منزلته وفضله، نفعه ذلك في دينه ودنياه، ومن جهل فضله ومنزلته، لم ينتفع بحكمته إلاّ مقدار هذا النّفع الذي يصل إلى أهل هذا الدهر. فلما خرجوا عن العالم، لم يبقَ نفع هذا الكلام وهذه الكتب إلاّ ما فيها حتى يومنا هذا. وليست قوة تلك الكتب، مثل قوّة كتب أصحاب الشّرائع الذين كانوا أئمّة أهل الأرض دهراً طويلاً، مثل موسى وعيسى وغيرهما، ومثل محمّد (ص) الذي هو إمام العالم إلى يوم القيامة، وفي كلامه من النّفع والضّرّ ما قد فسّرناه. وقد عمّ ذلك أهلَ الأرض واشترك في نفعه المؤمنون به المخلصون فيه، وأصناف الملحدين والمعطّلين والمنافقين الذين يستترون بالإسلام. ولولا أحكام الشّريعة وما في القرآن من الرّسوم والسُّنن والفرائض في المناكحات والمواريث وقسمة الأموال وغير ذلك، لكان سبيل الملحدين في الأزواج والأولاد سبيل البهائم، وكان لا يُعرف لهم رحم ولا نَسَب، ولكانت أموالهم نهباً. فقبحاً للملحدين الذين رضوا لأنفسهم أن يخرجوا عن أحكام القرآن، فتكون أمّهاتهم وبناتهم وأخواتهم بغايا، يُنكَحن بلا مهور ولا تزويج، وينزو عليهنّ كل مسلم وكافر، وأن يكون أولادهم لغير رشدة، فلا يُعرَف لهم أب، وتكون أموالهم منتهبة في حياتهم، ومستباحة بعد مماتهم، ويكون سبيلهم سبيل بهائم الأنعام. فلولا الإسلام وأحكام القرآن، لماج النّاس بعضهم في بعض وتهارجوا؛ فلم يكن نكاح بتزويج ولا قسمة بالسّوية ولا مبايعة على العدل والصلاح. ومن خلع ربقة الإسلام من عنقه، فاتته نفسه قبل أن يرتد إليه طرفه. ولكن قد أحاطت سلاسل الدِّين برقابهم وجعلت ربقة الإسلام في أعناقهم وربطوا بها أوثق رباط كما قال بعض الشُّعراء المخضرمين، حين أسلم وقبل أحكام الإسلام وترك أمر الجاهليّة من الزّنى وشرب الخمور والميسر وغير ذلك من الفحشاء والمنكر، فقال في شعره:

وليس كعهد الدّار يا أمَّ مالك ولكن أحاطت بالرّقاب السَّلاسلُ
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذلُ

فهذا نفع القرآن وضرّه في الدُّنيا والآخرة.

فإن قال قائل: إنَّ أمر الآخرة غائب ولا يُدرَى ما يكون من نفعه وضرّه هناك، قلنا:

فإن كان ذلك أمراً غائباً يقدر الملحد على إنكاره، فكيف يجوز دفع ما يعاينه ويشاهده في الدُّنيا؟ أوَليس من قد دخل تحت أحكام القرآن، قد آوى إلى ركن وثيق وحصن منيع، لا حصن في العالم أمنع منه؟ ومن خرج عن أحكامه فلا مأوى له ولا وزر، ولا ملجأ ولا عنصر؟ فأيّ كتاب يعدل القرآن وأيُّ شاهد أعدل من هذه القوة التي قد ظهرت منه؟ وأيُّ دليل أوكد من هذا: أنّه كلام اللّه ومعجز محمّد (ص) ولا يقدر على مثل هذه القوة إلاّ اللّه؟ ومن يقدر على دفع هذا إلاّ مباهت مكابر أو مجنون مختبل؟

فإن قال قائل: إنَّ أهل الملل لم يدخلوا تحت أحكام القرآن وقد نجوا من هذه الأسباب التي قد ذكرناها، قلنا:

إنَّ من هم منهم في دار الإسلام قد دخلوا تحت أحكامه لقبولهم الجِزية والتزامهم الذِّلَّة والصَّغار. وبذلك حقنوا دماءهم وحصنوا أموالهم وذراريهم. ومن هم في الممالك التي هي خارجة عن دار الإسلام فإنّهم متعلقون برسوم الأنبياء (ع)؛ وبتلك الآثار ساسوا ممالكهم، وبتلك الشَّرائع انتظمت أمورهم، لا بالمجسطي وبطليموس وكتب المنطق وإقليدس وكتب الطبّ، بل بقوّة كتب الأنبياء (ع) التي قد بقيت آثارها في أيديهم؛ وإن كانت قوة كتاب محمّد (ص) هي أعظم وأجلُّ منها، كما أن مقدار مرتبته ورفيع درجته وعلوّ منزلته عند اللّه فوق درجات النّبيِّين، وهذه معجزته القائمة في العالم.

ومما يزيد في تأكيدها وإيضاحها أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ لمّا أنزل عليه هذا الكتاب، وعده فيه أن يؤثّر في هذا العالم هذا الأثر العظيم، وبشّره بذلك في أوَّل أمره ومبتدأ شأنه قبل أن كان، فأنجز له ما وعده. وقد كان بشّر محمَّدٌ (ص) بذلك أمّته وصدق اللَّه عزَّ وجلَّ بشراه وأنّه وعده أن تعلو ملّته على جميع الملل والأديان علوّاً ظاهراً على حسب ما قد انكشف وظهر للعالمين. فقال: «يريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم ويأبى اللَّه إلاَّ أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، فأنزل هذه الآية عليه ووعده فيها أن يظهر دينه على جميع الأديان في مشارق الأرض ومغاربها، فقد ظهر عليها وقهرها وهو يزيد قوة وعلوّاً على مرور الأيّام. وأعلم (ص) أمّتَه أنّ اللَّه عزَّ وجلَّ قد كشف له عن الذي يكون بعده وأنّه قد عاين ذلك وأنَّ اللَّه سيُنجز له ما بشره به، فقال: «زويت لي مشارق الأرض ومغاربها وسيبلغ مُلك أُمتي ما زوى لي منها». فكيف ترى صنع اللَّه له في تصديق قوله بعد خروجه عن العالم؟ وكيف ترى صحّة هذه الآيات التي في القرآن والخبر الذي رُويَ عنه (ص)؟ ولو كان كذّاباً، كما يدعيه الملحدون وأعداء اللَّه ـ لعنهم اللَّه ـ لبطلت دعاويه، ولما أنجز اللَّه له عداته، ولسقط بنيانه بعد وفاته، ولكن سبيله سبيل من كان بنيانه على غير أصل صحيح، وكان أساس أمره من عنده غير اللَّه. فإنّا نرى كلّ من يدّعي رياسة في الدِّين والدُّنيا ويكون له أتباع، يبطل أمره عند موته من الملوك والرُّوساء ومن جميع الأصناف؛ فإذا خرجوا عن العالم يتفرّق جمعهم وتنقطع رسومهم وآثارهم وينهدم بنيانهم، إلاَّ ما كان من رسوم الأنبياء البَرَرة الطَّاهرين (ع).

فإن ادَّعى مشغب أنَّ كثيراً من المبتدعين قد بقيت رسومهم في العالم وبقي جمعهم وأتباعهم، واحتجَّ بالمنّانيَّة والدّيصانية وأشباههم، من المبتدعين في

الشرائع وبأهل الأديان في البلدان التي هي في أطراف الأرض، مثل التُّرك والهند وغير ذلك، قلنا:

قد تقدم القول منّا أنَّ هؤلاء بنوا بدعهم على رسوم الأنبياء (ع) وخلطوا بدعهم بآثارهم ونسبوا ما رسموه إلى الأنبياء (ع) وإن كانوا مبتدعين. فإنهم متعلقون بحبلهم، يحتذون حذوهم ويتشبهون بهم ويدعون إلى زخارف قد مثلوها برسوم الأنبياء (ع) وأقاموها بتلك الرّيح. وهكذا سنّ لهم أوائلهم الذين وضعوا لهم هذه البدع؛ ولولا ذلك لما قام لهم رسم ولا أثر. ولكن مقدار ما يثبت من رسومهم هو ريح الرّسوم التي كانت من الأنبياء (ع) ومن خمير كلامهم. ومع ذلك فإنَّ بنيانهم قد ضعف ويضعف على مرور الأيّام؛ لا كبنيان محمّد (ص) الذي لا يزداد في كلّ يوم إلاَّ علوّاً وظهوراً؛ لأنَّه خرج (ص) عن العالم والأمصار التي دخلها الإسلام قليلة العدد، مضى (ص) والإسلام بأرض الحجاز وتهامة في الحرمين، مكة والمدينة وما والاهما من المخاليف مثل قرى خيبر وفدك ووادي القرى والطائف واليمن والبحرين وما والاهما، مثل نجران وعُمان. فكانت عمّاله (ص) في هذه الأمصار وفي البوادي على صدقات القبائل. فأما سائر الممالك والأمصار فقد فتحت بعده بسيفه وقوة كتابه وشريعته وأقيمت فيها أحكامه وسُننه وثبت فيها زرعه. وكان (ص) يبشّر أمّته ويخبرهم أن هذه الممالك تفتح عليهم بعده كما ذكرنا من آيات القرآن والأخبار التي جاءت عنه.

ورُوي عنه (ص) أنه قال: «إذا فتح اللّه عليهم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإنَّ لهم رحماً»، يعني بذلك إبراهيم (ع) ولده وكان من مارية القبطيّة. وما رُوي عن في يوم الخندق، أنَّ سلمان قال: كنت أضرب في ناحية من الخندق صخرة فغلظت عليَّ، فرآني (ص) ورأى شدّة المكان، فنزل وأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة، فلمعت برقة تحت المعول، ثم ضرب أخرى، فلمعت برقة، ثم ضرب الثالثة،

فلمعت برقة. فقلت: يا رسول اللّه ما هذا الذي رأيت يلمع تحت المعول؟ قال (ص): رأيت ذلك يا سلمان؟ قلت: نعم، قال: أمّا الأولى فإنّي رأيت فيها فتح اليمن، والثانية فتح الشام، والثّالثة فتح المشرق. وقد رُويت عنه في هذا أخبار كثيرة قد صحت بعده.

(٩) فإن قال قائل من الملحدين: إنَّ الحديد إذا ضُرب به الحجر فعل هذا الفعل، قلنا:

لا ننكر ذلك، ولكنّا أردنا أن نذكر ما قاله (ص) من أمر الفتوح التي كانت بعده، فبشَّرَ بذلك كما أراه اللّه عزَّ وجلَّ، ثم ظهر صدقه بعد ذلك. ومثل هذا كثير تركنا ذكره، من الأخبار التي ظهر صدقه فيها بعد وفاته (ص) وصحّت، ولم يبطل شيء منها كما بطلت دعاوى الكذّابين المتنبّئين الذين ظهروا في العرب مثل مسيلمة الكذّاب بن حبيب المتنبّي باليمامة، وطليحة بن خويلد المتنبّي في أرض بني أسد، والأسود العنسي المتنبي بصنعاء، وسجاح بنت الحارث اليربوعيّة التي تنبّت في بني تميم فتبعتها عامتهم وأطاعوها، حتى قال فيها بعض شعرائهم:

أمت نبيّتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء النّاس ذكرانا

ثم صارت إلى اليمامة وتزوَّجها مسيلمة الكذَّاب، وهؤلاء كلهم كان لهم أتباع ونهض معهم قوم آمنوا بهم وأطاعوهم ونصروهم وكانوا يسجعون ويعدون النَّاس. وربما سجعوا وتكهَّنوا وأصابوا بكهانتهم فيفتتن بهم الناس كما فعل طلحة حين نهضت معه بنو فزارة وبنو أسد: وأمرهم أن يصلُّوا قياماً لا يركعون ولا يسجدون وقال: اذكروا اللّه قياماً فإنّي أشهد أن الصريخ يحب الدعوة، ما يفعل اللّه بتعفير خدودكم وفتح أدباركم؟ فأطاعوه وقبلوا منه وأصابه هو وأصحابه عطش فسجع وتكهن فقال: اركبوا غلالاً واضربوا أميالاً تجدوا بلالاً، وغلال فرسه، فركبوه وفعلوا ما قال فوجدوا ماءً، ففتن به النّاس. وكانت قاتلت عنه أسد وفزارة وهو متلفّف بكساء له في بناء بيته يتنبّى عليهم والنّاس يقتتلون حتى قُتل

منهم خلق عظيم وهو يقول: يأتيني ذو النون الذي لا يكذب ولا يخون، ولا يكون إلاَّ ما يكون. وكان عُيَيْنةُ بن حصن سيد بني فزارة يقاتل بين يديه ويرجع إليه ويقول: جاءك ذو النّون؟ فيقول لا، حتى رجع إليه مراراً والحرب قد طحنتهم وعُيَيْنة يقول: حنقاً حتى متى، ثم جاءه فقال له: هل أتاك ذو النون؟ قال نعم. قال: فما قال لك؟ قال: قال لي رحاءً كرحاه وحديثاً لا تنساه. فقال عيينة: أظن واللّه يكون لك حديث لا تنساه يا بني فزارة! انصرفوا، فإنه كذاب، فانصرفوا عنه وخذلوه.

وكذلك كان حديث مسيلمة، نهضت معه بنو حنيفة وغيرهم وقالوا: منّا نبي ومنكم نبي؛ وكان يسجع لهم ويقاتلون معه، حتى قُتل منهم ستة ألف رجل ثم قُتل. وسأل أبو بكر قوماً من بني حنيفة، فقال: ما كان يقول صاحبكم؟ قالوا: كان يقول، يا ضفدع نقّي نقّي، لا الماء تكدّرين ولا الشراب تمنعين. فقال: ويحكم إنّ هذا كلام لم يخرج من آل، فأين يُتاه بكم؟!

وكذلك كان الأسود العنسي، الذي كان يقال له «ذو الخمار» ، تنبّى على أهل صنعاء وتبعه عالم من الناس كثير ونهضت معه كندة وبقايا ملوكها، منهم الأشعث بن قيس وحارثة بن سراقة بن معدي كرب وغيرهما، وجمع كثير من الأبناء الذين كانوا باليمن فحاربوا معه ونصروه حتى قُتل، وقُتل معه خلق كثير. وكانت قبيلة من كندة يقال لها بنو قتيرة، قد انضموا إلى المهاجرين وخالفوه وحاربوه، فسجع لهم وقال:

صباح سوء لبني قتيرة ... وللأمير من بني مغيرة

فلما قُتل الكذّاب قال رجب من بني قتيرة في ذلك:

صباح صدق لبني قتيرة ... وللأمير من بني مغيرة

إذ آثروا اللّه على العشيرة

فهؤلاء الكذّابون الذين تنبّوا وتبعهم عالم من النَّاس وكانوا يسجعون ويتكهّنون ويعدون أتباعهم، فلمّا قُتلوا بطل أمرهم وتهدّم بنيانهم. وإنما ذكرنا شأنهم ليعلم

الملحدون أنَّ أمر محمّد (ص) لم يكن مثل أمر هؤلاء الكذّابين الذي تشبّهوا بالأنبياء، فلما هلكوا بطلت دعواهم ودرس كلامهم وسقط بنيانهم لأنه كان على شفا جرف هاوٍ فانهار به في نار جهنّم؛ لا كبنيان محمَّد (ص) الذي أسّسه على تقوى من اللَّه ورضوان؛ فهو يعلو ويزداد قوّة على مرور الأيام والشهور وانقضاء السّنين والدُّهور، ولو كره المشركون، ومعجزته قائمة في العالم وهي التي يجب أن تدعى معجزة على الحقيقة، لا ما ادَّعاه الملحد من فعل أصحاب الخفَّة والشّعبذة كالرّقص على الأرسان والدّوران على رؤوس الأسّنة فوق الرِّماح وغير ذلك مما يجوز أن يأتي بمثله كثير من النَّاس، وسمّاها معجزات وشبّهها بمعجزات محمّد (ص). وإنّما سُمّيت المعجزة معجزةً لأنَّ الناس يعجزون أن يأتوا بمثلها. فأمّا الأسباب التي يشترك فيها الصَّادق والكاذب، ويشتبه الأمر فيها على النَّاس حتى ينساغ لهم القول ويشبّهوها بفعل السَّحَرة، وتبطل كما يبطل فعل السَّحرة فلا يقال لها معجزات؛ بل المعجزة على الحقيقة ما قد ذكرنا من شأن القرآن وشريعة محمّد (ص) وما قد ظهر من قوّته التي قد كبس بها الأرض تحت أحكامه وسننه وهو يزداد حتى لا يبقى في الأرض إقليم ولا جزيرة ولا مصر ولا بلد إلاَّ ويدخله الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فيتمُّ آخره كما تمَّ أوَّله وينجز اللَّه وعده، إنَّ اللَّه لا يخلف الميعاد. فهذه هي المعجزة التي لا يقدر أحد أن يأتي بمثلها.

(١٠) فإن قال قائل: فلعلَّ ما تدَّعون لا يصحُّ ولا يكون، قلنا:

هذه الدَّعوى هي لمحمد (ص)، وهي فرع لدعواه التي ذكر أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يُظهر دينه على كلّ دين ولو كره المشركون. وقد صحّ ذلك الأصل، والفرع تابع للأصل؛ لأنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ قد أظهر دينه على جميع الأديان. وأمارات هذه الدعوى، التي هي الفرع، قد ظهرت؛ لأنَّ الإسلام يزداد، وظهوره يقوى على مرور الزَّمان، كما قلنا.

فإن شغب معاند واحتجّ بمثل ما قاله الملحد بأنَّ النَّصرانيّة قد غَلَبت بروميّة،

واليهوديّة بالخزر، والمجوسيّة في بعض الجبال، قلنا:

إنَّ الظهور هو الغَلَبة والاستعلاء. وقد غلب الإسلام هذه الملل، واستعلى عليها؛ لأنَّ الأمصار التي قد ملكها أهل الإسلام كانت كلّها ممالك لأهل هذه الملل، مثل بلاد العجم من أرض بابل العراق وكور الأهواز وفارس وكرمان وسجستان وإصبهان وسائر الجبال إلى خراسان وطخارستان وبغرغر وإلى حد السند والهند وإلى حدود الصِّين وفيافي التّرك ونواحي الخزر وغيرها من الممالك العظيمة التي كان يملكها الأكاسرة وملوك الهياطلة وكانوا في المجوسية، وكذلك أرض الحجاز وتهامة إلى البحرين ونجران، إلى أقصى الحجر باليمن؛ وكانت ممالك لأهل أديان مختلفة من اليهود والنّصارى والمجوس، سوى ما كان في مملكة عبدة الأصنام من العرب. ثم بلاد الشّام والأردن إلى طنجة وفرنجة وتاهرت الأقصى التي ملكها إدريس بن إدريس بن عبد اللّه بن حسن بن حسن بن علي (ع)، وإلى جزيرة وراء البحرين ببلاد الأندلس وتاهرت الأدنى التي ملكها الدّيمسي الإباضي فلان بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم الفارسي الذي كان يسلّم عليه بالخلافة. ثم وراء بحر الأندلس في بلاد ولد عبد الرحمن بن معاوية الأموي من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان والى حدود وادي الرّمل الذي قد نصب على طرفه تمثال من نحاس، قد كُتب عليه: ليس ورائي مذهب ولا يطأ تلك الأرض أحد إلاّ ابتلعه النَّمل. ثم إلى باب النّوبة ثم إلى الجزائر، ثم إلى صقليّة ومدائنها، ثم الثغور الحرريّة والشّامية من شمشاط وملطية وطرطوس وغيرها إلى قليقلا وما وراء ذلك من بلاد أرمينية وأذربيجان إلى الباب والحرن والداب وتفليس والباب إلى رومية. هذه كلها كانت ممالك الرُّوم وقد غلب أهل الإسلام أهل الأديان على هذه الممالك وقهروا ملوكها واستعلوا عليها. وأما المجوس فقد صار أمرهم إلى ما ترى. وأما النّصارى فقد التجأوا إلى رومية وتحصّنوا فيها، بمنزلة من

يأوي إلى قلعة أو حصن يمتنع فيه من عدوه، وكذلك سبيل اليهود بخزر، والمجوس الذين في رؤوس الجبال ـ كما ذكر الملحد ـ وسائر الأديان في أطراف الأرض كلّهم مقهورون مغلوبون. فمن كان منهم في دار الإسلام قد التزم الجزية والصغار. ومن كان ملتجئاً إلى ممالكهم فالسّيف على رقابهم. وأهل الإسلام لم يؤدُّوا إلى أحد جزيةً ولا دخلوا تحت أحكام متسلِّط في الدِّين والدُّنيا، بل الإسلام على عليتهم قاهر لهم قد بنيت المساجد بروميّة على صغر منهم وقمأة، لا يجسرون أن يمنعوا من بنيانها إذعاناً لأهل الإسلام وانقياداً لهم.

فإن قال قائل: فإنَّ البيعَ والكنائس وبيوت النّيران في دار الإسلام، قلنا:

ليس سبيل الكنائس والبيع وبيوت النّيران في دار الإسلام تلك السّبيل، لأنَّ محمداً (ص) ترك هذه الأبنية اختياراً لا اضطراراً؛ ولو شاء لأمر بقلعها. بل لو شاء لما ترك في دار الإسلام ذمّياً واحداً. ولكن أراد أن تبقى رسوم الأنبياء في العالم، وشهد لهم بالتّصديق، وسالم أهل الملل بأخذ الجزية منهم، لتبقى رسوم الأنبياء (ع)؛ فيكون حجّة للّه عزَّ وجلَّ على خلقه. ولولا ذلك لاستنَّ فيهم بسنّة العرب؛ فإنّه لم يرضَ منهم إلاَّ بالإسلام أو القتل، ولم يقبل منهم الجزية. ولو فعل ذلك بأهل الملل لكان قادراً على ذلك. فلهذه العلة أقرَّ هذه الأبنية. وليس سبيل المساجد بروميّة هكذا، لأن النّصارى لا تشهد لمحمّد (ص) بالتصديق كما شهد محمد لعيسى (ع). ولو قدرت الروم على إخرابها لما تركتها، ولكنهم أقرّوها اضطراراً.

ثم نقول:

إنَّ هذه الممالك، التي هي تحت أحكام القرآن، هي أعدل الجزائر طبائع، وأفضل أقاليم الأرض، وهي أرض الأنبياء والرُّسل، وفيها مبعثهم، وهي منشأ الحكماء وأهل الفضل، وقد صارت ممالك لأهل

الإسلام، والإسلام قد طبّق العالم تطبيقاً. ولم يغلب أحدٌ من أهل سائر الملل أهلَ الإسلام في شيء من ممالكهم. فهذا هو القهر والغلبة والظُّهور الذي وعد اللَّه محمداً (ص) أن يظهر دينه على الدِّين كلّه ولو كره المشركون. وقد أنجز له وعده، وظهرت حجّته، وصحّت هذه الدَّلالة الواضحة والمعجزة البيّنة، وبان صدقه؛ وهو عزَّ وجلَّ يتمّم ذلك كله له حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئِت جوراً، «واللَّه بالغ أمره ولو كره الكافرون».

وتأوَّل قوم في هذه الآية: «ليُظهره على الدِّين كلّه ولو كره المشركون» فقالوا: إنَّ اللَّه وعد محمّداً أن يظهره على الدين كلّه. فخرج عن الدُّنيا، ولم يظهره على الدِّين كلّه، واحتجّوا بذلك. وليست لهم حجّة في هذه الآية. قال جلَّ ذكره: «أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه»، يعني يظهر الدِّين الذي أتى به محمد (ص)، وهو دين الحقّ، على الدِّين كلِّه، فالهاء في قوله «ليظهره» راجعة على دين الحقّ؛ وقد ظهر دين الحقّ على الدِّين كلِّه. وهذا صحيح من جهة اللّغة العربيّة: وليس لمعاند فيه مقال. ولو كانت الهاء راجعةً على رسوله، لكن المعنى صحيحاً؛ لأنَّ ظهور دينه على الدِّين كلِّه هو ظهوره. ولكن إذا أردت الهاء على دين الحق سقطت حجّة المعاند ولم يكن له مقال.

الباب السابع

الفصل الأوّل

الأنبياء أصل التعاليم وموَرّثو الحكماء

الآن بعد فراغنا من القول في معجز محمّد (ص) الذي هو القرآن العظيم، وكشفنا عن الدَّلالة الكبيرة له القائمة في العالم، وتكرير القول بذلك لإيضاح المعاني التي فيه، وتنوير الحجّة، نقول في جواب ما ادَّعاه الملحد:

(١) إن الفلاسفة استدركوا هذه العلوم بآرائهم، واستنبطوها بدقّة نظرهم، وأُلهموا ذلك بلطافة طبعهم، يعني ما في كتب الطبّ من معرفة طبائع العقاقير والخصوصيّات التي فيها، وما في المجسطيّ وبطليموس من معرفة حركات الفلك والكواكب وحساب النُّجوم، وما فيه من اللطائف والأحكام، وما في إقليدس من علم الهندسة والمساحات ومعرفة مقدار عرض الأرض وطولها ومسافة ما بين السَّماوات وغير ذلك ممّا في هذه الكتب. فزعم الملحد أنَّ ذلك كلّه باستنباط وإلهام، وأنّهم استغنوا عن أئمَّتنا في ذلك، يعني الأنبياء (ع). ثم افتخر وقال: إنَّ نفعها وضرّها أكبر من نفع كتب أهل الشَّرائع وضرّها. وتبجّح بذلك ثم قال: أخبرونا أين ما دلّت عليه أئمَّتكم من التَّفرقة بين السموم والأغذية وأفعال العقاقير؟ أرونا منه ورقةً واحدةً كما نُقل عن بقراط وجالينوس الألف لا الآحاد؛ وقد نفعت الناس. وأرونا شيئاً من علوم حركات الفَلَك وعلله، نُقِل عن رجل من أئمّتكم، أو شيئاً من الطَّبائع اللَّطيفة الطَّريفة نحو الهندسة وغير ذلك من أمر اللّغات، لم تكن معروفة اخترعها أئمَّتكم. ثم قال: إن قلتم إنَّ هذا كلّه أخذ أصله من أئمَّتنا، قلنا هذه دعوى غير صحيحة ولا مسلَّمة لكم، وإنّا لنعرف ما تدّعون أنّه من

أئمّتكم؛ وهو الضَّعف الوقح الذي شاع ذكره في عوام النَّاس وخواصهم. ثم قال: فإن قلتم فمن أين عرف النّاس أفعال العقاقير في الأبدان وحركة الفلك، وبأيّ لغة تُدعى الناس إلى اختراع اللُّغات؟ فإنَّ لنا في ذلك أقاويل تستغني عن أئمَّتكم. فمنها ما تكون مستخرَجةً على رسومها المعروفة المشهورة عند أهلها كالأرصاد للنجوم ومعرفة أفعال العقاقير في الأبدان ومعرفة قوامها بالطُّعوم والأرائح، ومنها ما أُخذت أولاً عن أوّل إلى نهاية الزَّمان، ومنها أن تكون معرفتها بالطَّبع كما يُحسن الإوزُّ السّباحة من غير تعليم من أئمّتكم؛ ويدحض الاحتجاج الذي احتججتم به. هذا قول الملحد حكيته على وجهه، ونقول في جوابه:

(٢) أمّا القول في باب نفع الكتب التي ذكرها وضرّها وفي تفضيله إيّاها على القرآن العظيم وعلى سائر الكتب المنزَّلة فقد شرحنا ما فيه كفاية لمن أنصف ولم يعاند ولم يغشَّ نفسه. «فأمّا من طغى وآثر الحياة الدُّنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربّه ونهى النَّفْس عن الهوى فإن الجنَّة هي المأوى».

وأمّا هذه الكتب التي ذكرها وذكر أنَّها عن أئمَّتهم فإنا نقول:

إنّها من رسوم الحكماء الصَّادقين المؤيَّدين من اللّه عزَّ وجلَّ، وليس أسماء أئمّتهم فيها إلاّ عارية، وهذه الأسماء التي تُنسَب هذه الكتب إليها، مثل جالينوس وبقراط وإقليدس وبطليموس وغير ذلك ممّا يشاكلها، فهي أسماء كُني بها عن أسماء الحكماء الذين وضعوا هذه الكتب. وهذه الكتب هي مبنيَّة على الحكمة الصَّحيحة والأصول المنتظِمة. وقد كنت ناظرت الملحد على أشياء في كتاب بليناس، وقد كان ذكر لنا أن صاحب هذا الكتاب «حدوثي» وأنّه كان في هذه الشريعة، وتسمى بهذا الاسم، ووضع هذا الكتاب؛ وقد ذكرنا شيئاً من كلامه والأمثال التي ضربها في كتابه. فذاكرت الملحد بذلك، فقال: هذا هو صحيح، وقد عرفناه، واسم هذا الرجل فلان، وكان أيّام

المأمون، وكان حكيماً متفلسفاً. وهكذا كنا سمعناه من غيره. فهذا الرَّجل سلك سبيل أولئك الحكماء القدماء، وتَسمَّى بهذا الاسم الذي يشاكل تلك الأسماء، وكلامه من ذلك النوع؛ ولكنه قد جرَّد القول في التوحيد، ورد على أصحاب الاثنين وسائر الملحدين، وأثبت حدث العالم، وأورد في ذلك حججاً كثيرة قويّة، ثم تكلَّم في كون العالم، وعلى علل الأشياء، وضرب أمثالاً كثيرةً، منها سهلة تلحق معانيها، ومنها مستغلقة. وهكذا كان سبيل سائر الحكماء الذين تَسمّوا بهذه الأسماء.

وقرأت في كتاب دانيال أن بخت نصر لما فتح بيت المقدس وسبى أهله، انتخب غلماناً من ذلك السبي لخدمته، وكان فيهم دانيال فكانوا يخدمونه حتى رأى تلك الرّؤيا، فسأل السَّحرة وأصحاب الرّقى والمجوس والكلدانيين والمنجّمين والكهنة عنها وعن تعبيرها، فلم يخبروه بها، ولم يقدروا على ذلك، فأخبره بها دانيال وعبّرها له، فقال له بخت نصر: ليس في جميع مملكتي من يقدر أن يخبرني بها وتعبيرها، وأنت يا دانيال تقدر على ذلك لأنّ فيك روح اللَّه الطَّاهرة، وأنت اسمك بلطشاسر. ثم رأى بعد ذلك رؤيا أخرى، فقال: أدخِلوا إليّ دانيال عظيم الحكماء الذي سميته باسم إلهي بلطشاسر. فأدخلوه إليه فعبّرها له بعد أن أخبره بها وقال: بلطشاسر معناه صورة بال وهو الوثن الذي كانوا يعبدون.

وإنَّما ذكرنا هذا لما قلنا إنَّ هذه الأسماء، التي نُسبت إليها هذه الكتب، هي كنايات عن الحكماء الذين وضعوها، ولها معان يعرفها من يعرف تلك اللُّغة، وتَسمَّى بها أولئك الحكماء وكنّوا بها عن أسمائهم. ثم تشبّه بهم هؤلاء الكذّابون الضُّلاَّل الذين نظروا في تلك الرُّسوم وعوّلوا عليها دون التَّمسك برسوم أصحاب الشَّرائع، وتأسّوا بآرائهم وتعمقوا، وابتدعوا تلك الوساوس الكبيرة التي زعموا أنّها حكمة وفلسفة، وأنّهم سلكوا مسالك الحكماء، وتكلّموا في الباري جلَّ وعزَّ وفي مبادئ الأشياء وتحيّروا فيها وتاهوا، وزعموا أنّهم يستخرجون بفطنهم

وطبعهم ما أغفله مَنْ تقدمهم من الحكماء. فأوردوا هذه الوساوس التي ذكرناها، وذكرنا اختلافهم فيها وتنازعهم وتحيّرهم وتناقضهم وانهماكهم في تلك الضَّلالات، كما زعم الملحد أنّه استدرك بفطنته ما لم يفطن له من تقدّمه، وابتدع مقالته السخيفة، وزعم أنّه نظير بقراط في الطبّ وسقراط في استخراج اللَّطائف. وهكذا كان سبيل أولئك الكذابين الذين تقدَّموه ممَّن تشبّهوا بالفلاسفة وتسمّوا بأسمائهم واتَّخذوا الإلحاد شريعةً ورسماً ودانوا بالتعطيل. وقد رأيت من كانت سبيله هكذا، وكان قد تسمى بنسطولس وآخر بنسطوس. فهكذا كان سبيل هؤلاء الكذَّابين. فأمّا الحكماء الأوائل المحقون الذين وضعوا هذه الرّسوم الصّحيحة في النجوم والطبِّ والهندسة وغير ذلك من علم الطَّبيعة، فإنَّهم كانوا حكماء أهل دهرهم وأئمَّة في أعصارهم وحجج اللَّه على خلقه في أزمنتهم، وأيّدهم اللَّه بوحي منه وعلَّمهم هذه الحكمة. فكلُّ واحد منهم أُعطي نوعاً من الحكمة. فمنهم من أُعطي علم الطبِّ وغير ذلك من علوم الهندسة والطبائع، فأخرجوها إلى النَّاس، وأخذها عنهم النّاس لمّا أراد اللَّه عزَّ وجلَّ أن يعرِّف خَلْقَه ما في هذه الأصول من الحكمة، وليُظهر مراتب هؤلاء الأنبياء في أزمنتهم، وتظهر حجج اللَّه على خلقه على ألسنتهم. كما قد رُوي أن أصل علم النّجوم من إدريس النبيِّ (ع). وتأوَّل قوم في قول اللَّه عزَّ وجلَّ في قصة قوله: «ورفعناه مكاناً علِيّاً» أن اللَّه عزَّ وجلَّ رفعه إلى الجبل الذي هو في سرَّة الأرض، وبعث إليه مَلَكاً حتى علَّمه أسباب الفلك وما فيه من الحدود والبروج والكواكب ومقدار سيرها وسائر ذلك من علوم النجوم. وقالوا إنَّ هرمس المذكور في الفلاسفة هو إدريس، فاسمه في الفلسفة هرمس، وفي القرآن إدريس. وهذان الاسمان مشاكلان لتلك الأسماء مثل جالينوس وأرسطاطاليس وغير ذلك مما في آخرها «سين»، واسمه في سائر الكتب المنزلة أخنوخ؛ فهذا دليل بأنَّهم كانوا يُكنَّون بهذه الأسماء وعلى هذا التقطيع عن أسماء الأنبياء. وممن ذكر منهم في القرآن إلياس وإدريس، ومن هو مذكور عند أهل الكتاب من الأنبياء والحكماء شمعون تلميذ المسيح (ع)، كان يقال له فطروس، وأخوه أيضاً أحد الاثني عشر اسمه أندريوس، ومن الحواريين الاثني

عشر فيلوس ومارقوس أحد الأربعة وملغوس الرّسول المُطاع فيهم، ومن الأنبياء المذكورين عندهم سراقسيس وآغايونس ولوقس وبولس وفيلدفيوس. فهذه أسماء الأنبياء والحكماء ومثلها أسماء كثيرة، وهي تشاكل أسماء الفلاسفة القدماء الذين وضعوا كتب الطبّ والنجوم والهندسة، وكنّوا عن أنفسهم بهذه الأسماء، كما ذكرنا من شأن إدريس أنّه أول من علَّم الناس علم النّجوم، وأنه هرمس المعروف عند الفلاسفة بهذا الاسم.

(٣) فإن قال قائل: فلم نهى محمّد (ص) عن النَّظر في النّجوم وهي من علوم الأنبياء؟ قلنا: لأنه أمرٌ منسوخ وسبيله سبيل سائر رسوم الأنبياء المنسوخة المُنهَى عنها. فأمرهم أن لا يشتغلوا به عن النظر في شرائع الإسلام، ولم يحرمه تحريماً جزماً. إنّما نهى عنه ترغيباً عنه، ولأنَّ الإنسان إذا تعمّق فيه ولم يكن مستبصراً بالشَّرائع وبأمر التوحيد ولَطائف العلوم الحقيقية، تحيّر وأدّاه ذلك إلى الإلحاد، ويكون سبيله سبيل هؤلاء الضَّالين الذين تسمّوا بالفلاسفة؛ فنهى عن التّعمق فيه. ولأنَّ الناظر فيه يتكلف ما لا يُحسنه ويكذب ويتشبّه بالكهّان ويغلو في القول ويُكثر الدّعاوي الباطلة في الأحكام. كما رُوي عنه أنه قال: «إيّاكم والنّظر في النُّجوم فإنه يدعو إلى الكَهانة»، فرغّب (ص) بالمسلمين عن الكذب والدّعاوي الباطلة وما يخاف عليهم من ذهول العقل إذا لم يكونوا مستبصرين في الدِّين. فهذه هي العلّة في النّهي عن النُّجوم والنَّظر فيه ولم يحرمه تحريماً. ولو حرمه لما جاز لمسلم أن ينظر فيه أصلاً ولكان سبيله سبيل سائر الأشياء المحرَّمة مثل الخمر والميتة والدّم ولحم الخنزير. فعلم النّجوم أصله من إدريس (ع)، وهرمس هو إدريس، وهو نبيٌّ وهو من أئمّتنا، لا من أئمَّة الملحدين، وكان بينه وبين آدم (ع) خمسة آباء.

(٤) وأما معرفة طبائع الأشياء، فإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ لمّا خلق آدم (ع) وكان جسده مركّباً من طبائع الأرض وغذاؤه مما أخرجت الأرض، وكانت الطَّبائع متضادّةً متشاكلةً ضارّة ونافعة، علّم عزَّ وجلَّ آدم الأسماء كلَّها، إذ كان بدنه وأبدان ولده لا تصحّ إلاّ بالغذاء، والغذاء منه ما يضرّ ومنه ما ينفع، وإذ كانت

الأدواء تلحق أبدانهم ولا بدَّ لكلّ داءٍ من دواء، فعرّفه عزَّ وجلَّ من أي شيء يتولّد الدّاء، وما دواء كلّ داء إذ لم يستغنِ عن ذلك. وإذ كان اللّه عزَّ وجلَّ أرحم به وبولده أن يدووا، ولا يعرفوا لأدوائهم أدوية، فعلّمه هذه الطّبائع كلّها، وعلّم هو ولده، فَوَعَى ذلك منهم من وَعَى ونسي من نسي. ثم أخذه الخَلَف عن السَّلَف كما قال اللّه عزَّ وجلَّ في القرآن العظيم: «وعَلَّم آدمَ الأسماء كلّها»، فعلمه كل شيء يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه. ولم يجز في حكمة اللّه إلاَّ هكذا، لأنهم لم يستغنوا عن عبادة اللّه عزَّ وجلَّ ومعرفته طَرْفَةَ عين، ولا جازت لهم الحياة في هذا العالم يوماً واحداً إلاَّ ويعرفون ما يُصلح أبدانهم وما يُفسدها وما يضرّها وما ينفعها. فهذه هي النهاية في معرفة طبائع الأشياء التي ذكرها الملحد وقال: أخذه الأول عن الأول إلى نهاية الزّمان وقد صدق في هذا القول، ولكن النّهاية ليست ما ذهب هو إليها أنَّ نهايتها إلى بقراط وجالينوس. وذكر أنّه روى عنهم الألف والآحاد من الطّب ومعرفة العقاقير. فما خبرُ الأمم الذين كانوا قبل بقراط وجالينوس؟ هل استغنوا عن معرفة العقاقير أم لا؟ فإنَّ الذين مشوا قبلهما كانوا في مثل طبائع من كان بعدهما إلى يومنا هذا! وإن كان قبل بقراط وجالينوس من عرف طبائع العقاقير، فإنهما أخذا عمَّن تقدَّمهما إلى أن ينتهي الأمر فيه إلى بدء الخلق الذي هو آدم (ع) وهو النّهاية. وإن كان بقراط وجالينوس زادا شيئاً، فإنَّ سبيلهما ما قد ذكرنا أنهما قدرا على ذلك بتأييد من اللّه جلّ ذكره ووحي منه. ومن كانت سبيله هكذا فهو نبيّ مؤيّد من اللّه، والأنبياء هم أئمّتنا، لا أئمّة الملحدين. ولا ينكر أنَّ عزَّ وجلَّ يوحي إلى الأنبياء فيما ينساه النّاس مما يحتاجون إليه ويجدّد التّعليم لهم بذلك. كما قالوا إنَّ المسيح (ع) كان لا يمرّ بحجر ولا شجر إلاَّ وكلّمه. فليس معنى الكلام ها هنا معنى المجاوبة، إنّما معناه الاعتبار والاستدلال. ومن اعتبر بالشيء وعلم ما فيه من النّفع والضرّ فقد كلّمه ذلك الشيء. وهذا باب مشهور عند أهل المعرفة والتمييز. فهكذا كان أمر المسيح (ع)، كان لا يمر بشيء إلاَّ ويعرف طبع ذلك الشيء بوحي من اللّه عزَّ وجلَّ. وهكذا كان سبيل الحكماء الذين وضعوا هذه الرسوم ولم يقدروا على ذلك إلاَّ

بوحي من اللَّه وبتأييد منه، وكانوا أنبياء؛ ولا يقدر أحد أن يعرف طبيعة شيء بعقله وفطنته، ولا يصح ذلك من جهة العقول.

وقد أحال الملحد حين زعم أنَّ ذلك باستخراج وإلهام ونظر وتجارب بالذّوق والأرائح وغير ذلك ممَّا ذكره، وزعم أنّهم أُلهموا هذه في طبعهم من غير تعليم، وأنَّ اللَّه أغناهم عن أئمَّتنا كما ألهم الإوزَّ السِّباحة بالطّبع وأغناها عن أئمَّتنا. وأقول: سبحان اللَّه تعجباً من الملحد! كيف اهتدى لهذه الحجّة التي تشبه عمى قلبه وقلَّةَ عقله حين ادَّعى أنَّ الحكماء أُلهموا استخراج هذه اللَّطائف من غير تأييد من اللَّه عزَّ وجلَّ ومن غير تعليم من الأئمَّة، بل بطبعهم كما يسبح الإوزُّ بطبعه، وأنّهم لم يحوجوا إلى أئمَّتنا كما لم يحوج الإوز إلى أئمَّتنا. أوَلم يعلم الجاهل أنَّ الأمر لو كان أيضاً كما ادَّعاه، أنّهم استخرجوا هذه الأشياء بالطَّبع، لما وجب أن يشبّه هذا الإلهام والطَّبع بإلهام الإوزّ وطبعه؛ لأنَّ الإوزَّ مطبوع على السِّباحة لا يحتاج في ذلك إلى فكر ولا استنباط، كما قد طُبع جميع الحيوان على شيء ما، فطُبع الطَّير على الطَّيران في الهواء، ودواب الماء على السباحة في الماء، وكلُّ جنس لا يقدر أن يخالف ما قد طُبع عليه: لأنَّه مُجبَر على ذلك لا مختار. فمنه ما يطير ويسبح كالإوزّ، ومنه ما يسبح ولا يطير كالسَّمك، ومنه ما يطير ولا يسبح كالحمام. والإوزُّ مطبوع على السّباحة والطَّيران، صغارها وكبارها مطبوعة على ذلك، كما ترى فراخها إذا انفلق عنها البَيض سبحت؛ وليس في كلّ الإوزّ واحدة تخالف هذا الطبع. وكذلك سائر الحيوان، ليس جنس إلاَّ وكلُّه لا يخالف ما طُبع عليه، لأنَّها مطبوعة على ذلك. وليس حكم البشر في استخراج العلوم واستنباطها هكذا؛ لأنَّه ليس في ألف إنسان وما فوق ذلك من العدد إلاَّ واحد يقدر على استخراج هذه اللَّطائف، إذا صحّت أيضاً دعوى الملحد من جهة الطّبع والإلهام. وأصحاب المعرفة بالحساب والهندسة والنّجوم والطب عددهم قليل جداً ما بين هذا الخلق الكثير. ولو كان مثالهم في استخراج هذه اللطائف بالطبع، كما يسبح الإوزُّ بالطّبع، لوجب أن يكون النَّاس كلهم حسّاباً ومهندسين ومنجمين وأطباء؛ ووجب أن لا يكون أصحاب الهندسة والأطباء والمنّجمون

مخصوصين بذلك دون سائر النّاس، لأنَّ الإوز كلّه يسبح صغاره وكباره؛ ولوجب أن يرتفع عنهم باب التّعليم، كما قد ارتفع عن الإوزّ باب التّعليم في السِّباحة، فكانوا لا يحتاجون إلى أئمَّتنا، كما لا يحوج الإوزُّ إلى أئمَّتنا.

(٥) فإن زعم زاعم أنَّ كلَّ النَّاس لو صرفوا هممهم إلى ذلك، لكانوا مهندسين وحسّاباً ومنجمين وأطباء، كما احتجّ به الملحد حين زعم أنَّ الناس لو صرفوا هممهم إلى تعلّم الفلسفة والنظر فيها، لبلغوا ما بلغ الفلاسفة، قلنا له: فهل رأيت فيلسوفاً نظر في الفلسفة بطبعه قبل أن عرف أصول الفلسفة ونظر في قوانين الفلاسفة وقبل أن ابتدأ بالتّعلّم من تلك الأصول، ثم نظر وقاس بعد التعلم؟ فإن قال: نعم، فقد باهت وكابر. وإن قال: لا، فهذا أوَّله التعلّم، ثم بعد ذلك نظر وقياس. وإنَّ الإوزَّ لا يحتاج إلى تعلّم في ابتداء أمره، لا إلى مسبح ولا إلى معلم على وجه السّباحة، بل كلّها تسبح طبعاً صغارها وكبارها، كما ذكرنا. والإنسان لا بدَّ له من التعلم في أول أمره، وإن ترك التعلم في أول أمره، لم يدرك بطبعه شيئاً؛ وليس ذلك في وسعه، ولا هو مطبوع عليه؛ ولا مُجبَر فيه، ولا بدَّ له من الرّجوع إلى إمام يعلّمه، وإلاَّ لم ينفعه طبعه ولم يُغنِه شيئاً كما استغنى الإوزُّ عن التعلّم من أئمَّتنا والرجوع إليهم. وإنَّما يفعل الإنسان بطبعه الأشياء التي لا يقدر على مخالفة طبعه فيها، مثل فعله بالحواس كالنّظر والسَّمع والشم والذوق واللمس، فإنَّه مُجبَر على ذلك، إذا نظر إلى الشيء رأى، وإذا وقع الصَّوت في أذنه سمع، وإذا وقعت في خياشيمه ريح شمّها؛ هذا إذا سلمت حواسّه. ثم هو مطبوع على المشي برجليه والتّناوُل بيديه. فالنّاس كلّهم قد طُبعوا على هذا كما طُبع الإوزُّ على السِّباحة، واستووا فيه كما أنَّ الإوزَّ قد استوى في السِّباحة. فهذا الطّبع من النَّاس هو الذي يشاكل طبع الإوزِّ في السباحة. وكلُّ جنس الحيوان هو مطبوع على فعله، لا يخالف ما طُبع عليه؛ والإنسان هو مطبوع ومخيَّر، قد شارك الحيوان فيما طُبع عليه، وخصَّ بما هو مُخيَّر فيه، مثل تعلُّم العلوم التي النّاس فيها خاصّ وعامّ، ومنهم من ليس في وسعه أن يتعلم حرفاً واحداً. ولا بدَّ أن يكون فيهم إمامٌ ومأمومٌ، وعالِمٌ وجاهلٌ. وهذا باب

لا يخفى على عوامِّ النَّاس، فكيف على أهل المعرفة والتّمييز؟! فهل رأيت أعمى قلباً وأقلَّ عقلاً ممن يشبّه سباحة الإوز بطبعه باستخراج علم الفلسفة ومعرفة حركات الفَلَك وطبائع العقاقير وسائر العلوم اللَّطيفة من الهندسة وغير ذلك؟ وهل رأيت أجهل ممّن زعم أنَّ النَّاس استخرجوا هذه اللَّطائف واستغنوا عن أئمّتنا، كما استغنى الإوزُّ حين سبح بطبعه عن أئمَّتنا، ثم يدّعي أنّه فيلسوف العالَم في زمانه وحكيم أهل دهره؟ ولَعمري لا تنكر له هذه الدَّعوة مع هذا القياس وهذا التشبيه، ثم يعيِّر المسلمين ويقول: مسلّم لهم بما قد حلَّ بهم من آفة سُكر العقل وغَلَبة الهوى. فأيُّ سكر عقلٍ وغلبة هوىً أشدُّ من سكر عقل صاحب هذا القياس وغلبة هواه؟! ونقول مسلّم له بقياسه وفلسفته هذه التي أعمى اللّه قلبه فيها وأسكر عقله.

(٦) وأمّا قوله: أخبِرونا بأيِّ لغة وقف أوّل إمام من أئمتكم على اللّغات؟ وهل في ذلك بدٌّ من الإلهام؟ على أنَّ إماماً لو عرف لغةً ثم أراد أن يعرّفها النَّاس لما قدر على ذلك، وإذا لم تكن عندهم سابقة، فليس بدٌّ من الرّجوع إلى الإلهام بتّة بتّة. هذا قول الملحد.

نقول في جوابه: إنَّ للملحد أن يقول بقِدَم العالم أو بحدثه. فإن ادَّعى قِدَم العالم فقد ارتفع القول معه في باب اللّغات، لأنّها قديمة مع العالم، على دعوى من ادَّعى قِدَم العالم؛ وانقطع القول في باب الإلهام والتعلم. وإن أقرَّ بحدث العالم، قلنا إنَّ مُحْدِث العالم، لمّا خلق هذا البشر علّمه اللّغات، كما قلنا إنّه عزَّ وجلَّ علّم آدم الأسماء كلّها. وجائز أن يكون علّمه جميع اللغات، فعلّم هو ولده، وجائز أن يكون علّمه بعضها دون بعض، ثم علّم عزَّ وجلَّ ولده، الذين كانوا في مثل منزلته من النبوّة، سائر اللّغات، كما قِيل إنَّ آدم (ع) كانت له اللّغة السّريانيّة. فلمّا كان انتشاء النّسل من آدم، تعلَّم ولده لغته، كما نرى أنَّ الأولاد يتبعون آباءهم في لغاتهم في جميع الأقاليم والجزائر. وكذلك كلُّ نبيٍّ لمّا علّمه اللّه لغة، اقتدت به أمّته وتعلمت لغته، كما نرى ونشاهد أنَّ العجم لم تعرف لغة العرب إلاّ النّبذ منهم اليسير. فلما قبلوا شريعة الإسلام أقبلوا على تعلم العربية

حتى قد مهر بها أكثرهم تعلّماً لا إلهاماً. فهل رأيت عجمياً أُلهم لغة العرب من غير تعلّم كما قال الملحد: إنّه لو أراد أن يعلّم النّاس لغة لما قدر عليه، إذا لم تكن سابقة، وإنّه لا بدَّ من الرّجوع إلى الإلهام بتّةً بتّة؟! فهذه العجم قد تعلّمت العربية، ولم يكن لهم سابقة، ولم يتكلّموا بها إلهاماً بل تعلُّماً. وكذلك سبيل من يتعلّم لغة لم يعتدها، أن يأخذها بالتعلّم، لا بإلهام. ولا بدَّ أن يكون لكلّ لغةٍ إمام قد علّمها اللّه إيّاه، ثم يعلّمها النَّاس. كما قد ذُكر أنَّ أوَّل من تكلّم بالعربيّة إسماعيل بن إبراهيم (ع)، فَتَقَ اللّهُ بها لسانَه وعلّمه إيّاها، لأنّه كان نبيّاً؛ ثم علّمها هو ولده، فأخذوها عنه تعلّماً لا إلهاماً؛ على سبيل ما يعاين: أنَّ العجم أخذتها عن العرب تعلّماً لا إلهاماً؛ وهذا واضح لا مرية فيه. وإذا وضحت الحجّة بالمشاهدة في هذه اللّغة، فهو دليل على أنَّ سائر اللّغات هكذا كان سبيلها، وأنَّ البدء فيها كان من رجل واحد. وذلك الرّجل علّمه اللّه لغةً ما، فعلّمها هو من اقتدى به. وإذا وضح أنَّ الفرع هو تعلّم وليس هو إلهام، صح أنَّ الأصل هو تعلّم لا إلهام، وإذا صحَّ أنَّ ذلك الأصل الذي هو من رجل واحد تعلّم، ولم نجد له أوّلاً، صحَّ أنَّ ذلك الأوّل كان تعلّمه من خالق اللّغات، كما أنَّ الأوّل خلقه خالق اللّغات وخالق الخلق كلّه، وأنَّ اللّه علَّمه على سبيل الوحي. فإن كان إلهاماً، فهو من اللّه عزَّ وجلَّ وهو جنس من الوحي. وليس له بد من الرجوع إلى قول أصحاب الشّرائع: إنَّ بدء تعلّم الأشياء كلّها من اللّه جلَّ ذكره، بوحي منه إلى أنبيائه (ع) ثم علموها النّاس. كما قد ذكر أنَّ بابل سُمّيت بابل لأنَّ الألسن تبلبلت فيها بعد خروج نوح من السَّفينة، لأنَّ ولد نوح ومن كان معه في السّفينة تفرقوا في البلدان، وتكلم كل واحد منهم بلغة ما، فأخذ أولادهم عنهم اللّغات، وأنَّ ذلك الواحد في كلّ بلد علّمه اللّه إيّاها. فإن كان إلهاماً، فهو وحي من اللّه عزَّ وجلَّ وهو تعلّم منه. وإن كان تعلُّماً من مَلَك، فهو أيضاً وحي من اللّه عزَّ وجلَّ، وهو تعلُّم منه؛ لأنَّ الأنبياء (ع) تفاوتت مراتبهم وفضّل اللّه بعضهم على بعض درجات؛ فمنهم من أتاه المُلك بالوحي وتراءى له حتى عاينه، ومنهم من رأى الملك بروحه، كما أنَّ محمَّداً (ص) كان يأتيه جبرائيل (ع) في أوقات

في صورة إنسان، وفي أوقات كان يغفو إذا أتاه الوحي ثم يفيق فيتلو ما أُوحي اللّه، ومنهم من يُقذف في قلبه فيكون ذلك إلهاماً وتأييداً من اللّه عزَّ وجلَّ ووحياً منه؛ ومنهم من يوحى إليه في منامه، ومنهم من ينظر في الشيء فيعتبر به ويلقي اللَّهُ في روعه ويعلِّمه ما في ذلك الشيء من النفع والضر، كما ذكرنا في قصة المسيح (ع) أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر إلاّ وكان يكلِّمه. والوحي من اللَّه عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه (ع) على هذه الجهات كلها؛ يوحى إليهم كيف يشاء على حسب درجاتهم.

(٧) فإن قال قائل: إنَّ النَّاس يُلهَمون أشياء وإنّهم يرون في منامهم أشياء، قلنا: الإلهام يكون على ثلاثة أوجه: فما كان يوحى من اللّه عزَّ وجلَّ صحَّ ما يتكلّم به من يلهمه اللّه ويظهر صدق قوله وحكمته فيما ينطق به من ذلك الإلهام، وإذا صحَّ علمنا أنّه من اللّه، كما ذكر اللّه عزَّ وجلَّ: «وأوحينا إلى أم موسى» إلى قوله: «فألقيه في اليم»، ثم قال: «إنّا رادُّوه إليكِ وجاعلوه منَ المُرسَلين»؛ فهذا كان إلهاماً من اللّه عزَّ وجلَّ، وصحَّ لأنَّ اللّه ردَّ موسى إليها وجعله من المُرسَلين. ومنه ما يكون توفيقاً من اللّه عزَّ وجلَّ للصَّالحين من عباده، فيما يأتون ويذرون من أمور دينهم ودنياهم. ومنه إلهامٌ يكون من وساوس النّفس، مثل كلام هؤلاء الموسوسين الذين ليس لكلامهم نظام ولا حقيقة، وهو جهة الطَّبيعة وخفّة الدّماغ وتغوية الشّيطان على ذلك. فهذا سبيل الإلهام.

وكذلك الرؤيا تكون على وجوه: فالذي يراه الأنبياء (ع) في منامهم لا يبطل بتّة بتّة، ولا يحتاج إلى عبارة، وإذا رأوا شيئاً كان ذلك الشّيء بعينه؛ فهذا ما خُصُّوا به. ثمَّ يشتركون مع النَّاس، فربَّما رأوا في منامهم شيئاً يحتاج إلى التّأويل؛ وسبيله سبيل سائر المنامات التي يراها الناس ممَّا إذا عُبّر كانت له حقيقة؛ وهذا جنس من الرُّؤيا يشترك الأنبياء (ع) مع سائر الناس في ذلك، ويخصّون بالنّوع الآخر الذي قد ذكرناه. ومن الرّؤيا ما يكون من جهة الطبيعة، ومنها ما يكون من بقايا الفكر؛ فهذان النّوعان لا حقيقة لهما، والأنبياء (ع) منزَّهون عن هذه الرؤيا؛ وهي التي يُقال لها «أضغاث أحلام»، ولا تأويل لها، ولا تصح عبارتها، كما

تصح عبارة الرّؤيا الصحيحة التي تكون من أسرار العالم العلويّ فيراها الإنسان الصالح، التي هي من جنس الرّؤيا التي يراها الأنبياء، فتصحّ بالتّأويل، وإن لم تكن على ذلك الصّفاء، كما قال النبيُّ (ص): «الرّؤيا الصَّالحة من الرجل الصَّالح جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوّة». فهكذا كان سبيل الرّؤيا التي هي وحي الأنبياء وهي على ما ذكرنا لا يحتاج فيها إلى عبارة ولا تأويل، وهم مخصوصون بها دون سائر الناس. فهكذا مراتب الأنبياء (ع) ودرجاتهم. وكان لمحمَّد في هذه المراتب كلّها حظّ وافر، وفضّله اللّه على من لم يكن في درجته بذلك. والإلهام الذي هو وحي من اللّه، سبيله على ما ذكرنا. ومن أُلهم اللّغاتِ، كان ذلك الإلهامُ وحياً من اللّه عزَّ وجلَّ وتوقيفاً وتعليماً؛ وهي نبوة. وليس سبيله سبيل الإلهام الذي هو وساوس الملحدين الذين زعموا أنّه عامّ في النّاس على حسب ما يوردونه من كلامهم؛ بل هو للأنبياء خاصّةً دون سائر الناس.

ومن اللغات ما هي أفضل، كما أنَّ في الأنبياء من هو أعلى درجةً. وأفضل اللّغات أربع: العربيّة والسريانيّة والعبرانيّة والفارسيّة؛ لأنَّ اللّه عزَّ وجلَّ أنزل كتبه على أنبيائه بهذه اللُّغات، ثم تُرجمت الكتب بسائر اللّغات للأمم إلاّ القرآن العظيم، فإنَّه باللّغة العربيّة، وهي أفضل الأربع، وهي متمنّعة عن التّرجمة لأسباب تركنا ذكرها للإطالة. وقد فسرنا ذلك في غير هذا الكتاب.

فأصل اللغات كلها على ما ذكرنا، هي بتوقيفٍ من اللّه عزَّ وجلَّ لأنبيائه، وهم علّموها النّاس. وليس سبيلها على ما ذكره الملحد أنّها باستخراجٍ من النّاس بلا وحي من اللّه، وأنه جائز أن يلهم النّاس كلّهم ذلك. ولو كان الأمر على هذا، لما انتظمت لغةٌ؛ بل كانت تتفاوت حتى لا يكون لها نظام؛ لأنَّ الشّيء إذا كان من قوم شتى واختلفت فيه الآراء، اختلف ولم ينتظم، كالاختلاف الذي قد ذكرناه من كلام هؤلاء المتّسمين بالفلاسفة الذي ينقض بعضه بعضاً. فلمّا وجدنا كلَّ لغة منتظمة قد اتفقت عليها أمّة من النّاس، علمنا أنَّ أصل كلّ لغة من رجل واحد مؤيَّد بوحي من اللّه عزَّ وجلَّ، وصحَّ أنَّ اللّغات كلّها من الأنبياء (ع). وأيضاً لو كان الأمر على ما ادعاه الملحد، لوجب أن يُلهَم أهلُ كلّ دهر لغةً ما،

كانوا يبتدئونها ويستكملون بها. فكيف قد انقطع هذا الإلهام وغارت هذه القريحة ولم يَطُل هذا الطبع، حتى لا يقدر أحد أن يذكر قوماً أبدعوا لغةً أخذتها النّاس عنهم منذ دهر طويل بلا توقف على غاية، إلاّ ما يذكر من أمر هذه اللّغات. فإن كان هذا عاماً وجب أن يذكروا لنا لغة محدثة. ولن يأتوا بذلك أبداً لأنَّ اللّغات أصلها من الأنبياء كما ذكرنا.

(٨) فلمّا خُتمت النبوّة، خُتمت اللّغات، كما خُتم سائر هذه الأسباب التي هي من أصول الأنبياء والحكماء بوحي من اللّه عزَّ وجلَّ، ولم يبقَ في العالم إلاّ رسومهم. فلا نجد في العالم غير رسومهم أو ما استخرج من رسومهم وبُني على أصولهم. ووجدنا من الرّسوم المحدثة التي تشاكل حكمة الحكيم، ما أحدث في هذه الأمّة، واستخرج من اللغة العربيّة، وهو النحو والعَروض؛ وهما معياران لكلام العرب. وأُخذ أصلهما عن حكماء الأمّة وأئمّة الهدى؛ لأنَّ النّحو رسمه أمير المؤمنين عليّ (ع) لأبي الأسود الدؤلي، وكان أمير المؤمنين (ع) حكيم دهره، بل رأس الحكماء بعد رسول اللّه (ص) في هذه الأمّة. فألهمه اللّه عزَّ وجلَّ استخراج ذلك. ولم يكن نبياً، بل كان مروَّعاً محدّثاً، وسبيل المروَّعين المحدّثين في هذه الأمّة سبيل الأنبياء في الأمم؛ وحكمتهم مستفادة من محمَّد (ص)، وكان علي (ع) مختصاً بذلك من بين الأمّة، أودعه النبيُّ أسراراً فضّله بها على غيره، فعلَّمها هو المستحقِّين من الأمّة. فمنها ما اختصَّ بها قوماً من الخاصّة وسترها عن العامّة، ومنها ما بذلها للخاصّة والعامّة. والنّحو يشاكل حكمة الحكماء، وإن لم يكن من أسباب الدِّيانة. وهو (ع) استخرجه من لغة العرب ورسمه لأبي الأسود الدؤلي، فأخذه عنه وقاس عليه، ثم أخذ عنه النّاس، فاتسعوا في القياس فيه.

(٩) وكذلك العَروض، أخذ أصله الخليل بن أحمد من رجل من أصحاب علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، وكان أيضاً حكيم دهر وإمام زمانه. ثم قاس عليه الخليل بن أحمد وأخرجه إلى النّاس. فهذان الأصلان أُحدثا في هذه الأمّة، وهما من حكماء الدّيانة وأئمة الهدى.

وهكذا كلُّ حكمة في العالم، صَغُرت أو كَبُرت، أصلها من الأنبياء (ع)، وهم ورّثوها الحكماء والعلماء من بعدهم، ثم صار ذلك تعليماً في النّاس؛ وكذلك سبيل اللّغات. ولو كان الأمر على ما ادَّعاه الملحد أنَّ النّاس شرعٌ واحد في الحكمة، وأنَّ كلَّ الناس يلهمونها ويدركونها بالطّبع لا بوحيٍ من اللَّه عزَّ وجلَّ ولا بتعليم، وأنَّ سبيل اللّغات كذلك، لما انتظم أصل ولا اعتدل الأمر فيه، كما نرى من انتظام أمر اللّغات واعتدالها. وكذلك السبيل في كل كتاب أُلِّف على حكمة مثل المجسطيّ وإقليدس وغير ذلك ممّا يشبههما، هي على نظام واعتدال يدل على أنَّ كلَّ أصل هو من رجل واحد، لم يشركه في تأليفه غيره. وإذا ثبت هذا، صحَّ أنَّه بتوقيف من اللَّه عزَّ وجلَّ ووحيٍ منه، وأنَّ ذلك ليس هو استخراجاً بطبع، لأنَّه لا يجوز أن يُخَصَّ رجلٌ واحد من بين جميع الأنام الذين نشأوا في أعصار كثيرة، وذلك الرجل الواحد يكون مختصاً بذلك، وهو في مثل طبعهم، دون أن تكون فيه قوّة إلهية موهوبة من الباري خالق الخلق جلَّ وتعالى، وتلك القوَّة هي الوحي الذي يوجب لصاحبه اسم النبوّة على ما شرحناه من مراتب الأنبياء (ع). ومن تدبُّر ما قلنا ونظر بعين النصفة لم تخف عليه هذه الحال؛ ولا يبعد اللَّه إلاَّ من عاند وظلم نفسه.

الفصل الثاني

مبدأ النجوم والرصد

(١) وأمّا قول الملحد: أين ما دلت إليه أئمَّتكم من التّفرقة بين السّموم والأغذية وأفعال العقاقير؟ أرونا منه ورقة واحدة كما نُقل عن بقراط وجالينوس الألف لا الآحاد وقد نفع الناس، وأرونا شيئاً من علوم حركات الفلك وعلله نُقل عن رجل من أئمّتكم، أو شيء من الطّبائع الطّريفة نحو الهندسة وغير ذلك. ثم قال: فإن قلتم من أين عرف النّاس أفعال العقاقير في الأبدان، وما ذكره في هذا الباب.

وقد حكينا دعواه في ذلك وقلنا في باب إلهام الإوزّ السّباحة، وفي باب اللّغات ما فيه مُقْنع إن شاء اللّه، وقد قدَّمنا القول في باب الحكماء الذين كنّوا عن أسمائهم ووضعوا هذه الأصول، وأنّهم كانوا أنبياء، وهم أئمَّتنا. وليس أولئك الحكماء معدودين في جملة أئمّة الملحدين الذين درسوا تلك الكتب والأصول بعدهم، ثم تسمّوا بأسمائهم ورفضوا الشَّرائع وتكلموا في الباري جلَّ وتعالى وفي مبادئ الأشياء وابتدعوا ذلك الغثاء المتناقض الذي يدلّ على حيرتهم ويشهد بضلالتهم. وليس للملحد أن يتبجّح بأولئك الحكماء المحقّين الذين لهم تلك الأصول، فإنّهم أئمَّتنا لا أئمَّة الملحدين. وما مثل الملحد في التّبجّح بهم والافتخار بتلك الأصول إلاَّ مثل شيخ كان واقفاً في رأس حلبة وقد أرسلت خيل في السّباق فجاء فرس سابقاً، فلما رأى الشيخ ذلك الفرس استشاط فرحاً وجعل يصفق بيديه ويضطرب ويطرب. فقال له قائل: أيّها الشيخ! أهذا الفرس لك؟

قال: لا، ولكن اللِّجام الذي عليه، هو لي؛ وكذلك سبيل الملحد بافتخاره بأولئك الحكماء وبأصولهم. وما قرابته منهم إلاّ كقرابة جار النّجار الذي ضُرب به المثل المشهور. لأن الملحد منكرٌ للنبوة، وهؤلاء كانوا أنبياء كما ذكرنا من شأن إدريس وغيره. وإنّما نظر الملحد في أصولهم وتعلّم منها وجهل فضلهم ومراتبهم وحطّهم عن تلك المراتب التي فضّلهم اللّه بها إلى المنزلة الخسيسة التي اختارها لنفسه، جهلاً منه وضلالاً. ولو تأمّل حالهم وأنصف، لعلم أنّه ليس في وسع البشر أن يدركوا مسافة ما بين مصرين متدانيين لا تبلغ مساحتهما مائة ميل، إلاّ بعد أن يمسحها بالحبال والقصب المذروعة المقوّمة المقاسة، وإلاّ بعد أن يشاهد تلك المساحة ويباشرها بنفسه وإنْ مسحها رجلان أو ثلاثة لم يسلموا من الاختلاف. فكيف يجوز أن يقال إنَّ أحداً يقدر على مساحة ما بين الأفلاك الغائبة عن تناول أوهام البشر؟ كيف... عن مشاهدتها؟ وكيف يجوز أن يحكموا في مقاديرها، ثم يدوِّنوا ذلك في كتبهم، كما قد رسموا فيها وقالوا إنَّ عرض الفلك مائة ألف فرسخ وإنَّ ما بين الفلك الأدنى إلى قبالة الأرض مائة ألف فرسخ وتسعمائة فرسخ. هذا إلى سائر ما ذكروا من مسافة ما بين كلّ فلكين. نحو هذا الحساب، تركنا ذكره للاختصار.

(٢) ثم قالوا إنَّ جميع ذلك من الفلك الأعلى إلى الوجه الذي بين السَّماء والأرض ألف ألف فرسخ وتسعمائة وثمانون فرسخاً، وقالوا إن استدارة الأرض أربعمائة وعشرون ألف ميل، وقطرها سبعة ألف وثلاثون ميلاً، وإن عرض الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل إلى القطب الشَّمالي الذي يدور حوله بنات نعش في موضع خط الاستواء، ثلاثمائة وستون درجة، والدّرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذِّراع أربع وعشرون إصبعاً، والإصبع ست حبّات، وإنَّ بين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعين درجة. واستدارتها عرضاً مثل ذلك. وفي الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة، ثم باقي ذلك قد غمره البحر الكبير. وكل ربع من الشمالي والجنوبيّ سبعة أقاليم. وإنَّ مدن الأرض أربعة ألف ومائتا مدينة، وإن طول

البحر، من القلزم إلى مشارق الصين، بلاد الواق واق، أربعة ألف وخمسمائة فرسخ.

ثم قالوا في مقادير الكواكب السيّارة إنَّ مقدار الشَّمس، مثل الأرض والماء، أربعمائة وستون مرَّة ورُبع وثُمن. هذا، مع سائر ما تكلّموا فيه من مقادير سائر الكواكب. فهذه أسباب تتحيّر العقول من استماعها وتكلّ الألسن عن وصفها، فكيف عن الحكم فيها؟ ومن الذي يقدر أن يدرك هذا بطبعه، ويستخرجه بفطنته، ويبلغ هذه الغايات باستنباطه، ويقدر على وضع المجسطي الذي عمل على الأرصاد وتركيبات الأفلاك وعللها وآلات الرّصد وذات الصَّفائح وذات الحلق وغير ذلك من الآلات والمقادير التي هي في أيدي النّاس ونقلت عن الحكماء وتعلّمها الخاص والعام؟ ومن قدر على وضع إقليدس وأشكاله ومعرفة الأكر والأوتار والأضلاع والمراكز بالمقادير الضّروريّة والهندسيّة؟ وهل يجوز لعاقل أن يحكم في هذه الأسباب بأنّها استُدركت بالفطنة، واستنبطها هؤلاء الحكماء بطبائعهم، ولحقتها عقولهم، وارتقوا إلى السَّماء واطّلعوا في الأفلاك فعلموا عددها وعدد الكواكب السيّارة وفرّقوا بينها وبين الكواكب الثَّابتة التي تعرف بها الطَّوالع والغوارب، وعرفوا منازل القمر، وقسّموا الفلك إلى اثني عشر برجاً، والبروج إلى الدّرجات، والدّرجات إلى الدّقائق، والدَّقائق إلى الثَّواني، والثَّواني إلى الثوالث حتى يدقّ الحساب. ثم عرفوا محل كلّ كوكب في فَلَكه، ثم مقدار سير الكواكب الخمسة في استقامتها ورجوعها ومقدار سير النّيّرين مع اختلاف سيرها. فإنَّ منها ما يقطع الفلك في زيادة على ثلاثين سنة، ومنها ما يقطعه في أقلّ من شهر. ثم مواضع سعودها ونحوسها وهبوطها وصعودها على حسب ما قد رسمه الحكماء في كتبهم، مع استقامة هذا الحساب واعتداله الذي لا اختلاف فيه إلاَّ الشيء اليسير الذي بين الزِّيجات؛ وهو حساب منتظم متسق يركّب على انقضاء السّنين، وتقوم به الكواكب، ويعرف به محلُّ كلّ كوكب في برجه ودرجته ودقيقته في كل سنة وكل يوم وكل ساعة. ثم ما تكلّموا فيه من الأحكام بعلوم السَّماء، وما يحدث من الأشخاص العالية في الهواء، وما يكون ويحدث في

التركيبات المحيطات بالأقاليم، وما تحت الثّرى إلى أعلى علّيّين من أسرار رب العالمين، وفي الدّعة والسّعة والرّخص والغلاء والصحة والوباء، ومتى تكون الأمطار والأنداء، ومتى تهيج الرياح وتكون الظلمة والضياء. وما ارتاض عليه وأفنى عمره في تعلّمه من العلماء بهذا الشأن وتوقيف منهم ومدارسة كتبهم ومداومة النّظر في قوانينهم. وكيف من يدّعي أنَّ هذا عُرفٌ كلُّه باستنباط وفطنة من غير تعليم ولا تقديم أصل فيه ولا نظر في أصول الحكماء الذين وضعوا هذه الكتب. وهل يجوز أن يحكم أنَّ أحداً من البَريّة في وسعه أن يبلغ معرفة هذه الأسباب بفطنته وطبعه بلا معلِّم ولا تعلُّم أو يقدر على وضع هذه الكتب ابتداءً منه واختراعاً؟ وهل يجوز أن يكون نهاية العلم والتّعلُّم في ذلك إلاَّ إلى معلم سماويٍّ من عند اللّه عزَّ وجلَّ خالق هذه الأشياء التي قد أحاط بها علمه ولا يخفى عليه منها خافية، وأنّه هو الذي علَّم أهل الأرض بوحيٍ منه إلى أنبيائه (ع) وهو الذي وقّفهم على هذا الحساب؟ وأن هذه الأصول التي قد انتظم أمرها واتّسق، لو لم يكن من واحد لاختلفت وتناقضت؟ فإنَّ كلَّ أمر، يجتمع عليه نفر، من الأمور التي هي أرضيّة ويشاهدونها ويباشرونها، يختلفون فيها؛ فكيف بأسباب سماويّة على ما قد فسّرنا وعلى انتظام الأمر فيها؟ هيهات هيهات!! إنَّ من أنكر أنَّ هذا أصله من الأنبياء بوحيٍ من اللّه إله السَّماء، وادَّعى أنّه استخراجٌ بالفطن والطَّبائع، قد اشتدَّ عماه وعظُم جهله وعزب عقله؛ والذي قاله الملحد وادّعاه بعمى قلبه: إن ذلك استخراج بالأرصاد ومن الأصول الموسومة مثل المجسطيّ وإقليدس وبطليموس والكتب المعروفة عند أهلها، وإنَّ منه ما يكون معرفته بالطَّبع، فقد تقدَّم في هذا الباب صدر من هذا الكلام.

(٣) ونقول أيضاً لو اجتمعت أمم من النّاس من أهل العقول الكاملة والفهم والتّمييز والعدالة، ومن لا يرتاب بأصالة رأيه ولطافة طبعه وصحّة قريحته ممن لم يتقدَّم له معرفة بشأن النّجوم ولم ينظر في هذه الرّسوم التي وضعت على هذا الحساب، ثم نظروا بآرائهم ودبّروا بعقولهم وقاسوا بأفهامهم وأفنوا أعمارهم واجتهدوا أن يلحقوا من حساب النّجوم حرفاً واحداً ويميّزوا بين الكواكب السيَّارة

والكواكب الثَّابتة، لما قدروا أن يفرّقوا بين الزّهرة والمشتري فضلاً عن غيره. فكيف بأن يقسّموا حساب الأفلاك هذه القسمة، ويرتّبوا الكواكب السّيّارة هذا التّرتيب؟ بل لو اجتمعوا على آلة من هذه الآلات المتّخذة مثل صفائح الأسطرلاب أو ذات الحلق وغير ذلك ثم سُئِلوا عن كيفيّتها وكيف العمل بها وهم يقلبونها بأيديهم ظهراً لبطنٍ ويرون العمل الذي قد نقش عليها من الحدود والبروج والدَّرج والسَّاعات والأوتاد ومحلّ الكواكب الثابتة وغير ذلك، ثم طولبوا بأن يقوّموا قوس النّهار في اليوم الذي هم فيه، ويقدّروا السَّاعة التي هم فيها، ومقدار ما مضى من نهارهم أو ينظروا إلى الطَّالع وارتفاع الشَّمس أو ينظروا في أيّ برجٍ الشَّمس أو سائر الكواكب، من غير معلِّم يعلّمهم ويعرّفهم، ثم أفنوا أعمارهم بالنّظر في ذلك، واجتهدوا أن يستخرجوه بعقولهم وطباعهم، لما ازدادوا على مرور الأيّام إلاّ عمىً فيه وقلّة هداية إليه. هذا في آلة من هذه الآلات وهم يقلّبونها بأيديهم ويباشرونها بحواسّهم وينظرون إلى كيفيّتها بأعينهم ويحيط بها نظرهم، فكيف يستخرجون بالطّبع حركات الفلك الذي لا يقدرون أن يعرفوا كيفيّته؟ وكيف يقدرون أن يلحقوا حساب الكواكب ومقدار سيرها في استقامتها ورجوعها وغير ذلك من الأمور الدّقيقة التي قد تقدَّم القول فيها؟ وكيف تلحق أوهامهم تلك الأسباب التي لا يشاهدونها ولا يقدرون أن يتوهموها؟ وهذا عيان لا يقدر أحد على دفعه إلاّ بالبهت والمعاندة.

(٤) وهكذا السّبيل في باب الرَّصد. لو نُدبت للرّصد أمم من النّاس على ما وصفنا من العقل والرأي والتدبير والعدالة، ثم جُمعوا في مفازة سبخاء وكُلّفوا أن يرصدوا النّيرين اللذين لا يخفى طلوعهما وغروبهما على الصّبيان والضّعفاء من النّاس، دون الكواكب الخمسة التي لا يعرفونها بأعيانها، ثم كُلّفوا أن يرصدوا حركات الفلك ويعرفوا الطّوالع والغوارب من غير أن سبقت لهم معرفة بذلك، ومن غير أن تكون معهم آلات الرّصد من الزّيجات والأسطرلابات، ثم بقوا في ذلك دهرهم، لما خلصوا إلاّ على النّظر إلى الكواكب ورؤية طلوع النّيّرين وغروبهما، ولما كانت معرفتهم تزيد في ذلك على معرفة البهائم في النّظر إليها؛

إلاَّ أن يكون لهم قدمة في العلم بذلك ومعرفة مستحكمة؛ وحتى يحضروا آلات الرّصد من الزّيجات والأسطرلابات وغير ذلك؛ ويكون ذلك بعلم بارع قد تقدَّم ورياضة من العلماء. وإذا كان هكذا، فقد دحضت حجّة الملحد حين زعم أنهم يدركون بالأرصاد شيئاً من هذه العلوم. وإذا كان الاستدراك بالرّصد لا يمكن إلاَّ بهذه الآلات التي قد تقدّمت، فما الذي اخترعوا بفطنهم من غير تعلّم ولا رياضة وغير أصل قد تقدَّم؟

فإن احتجّ محتجّ أنَّ المأمون ندب للرّصد قوماً فاستدركوا تفاوتاً بين الزّيجات التي قد تقدَّمت، وأحدث باستدراكهم الممتحن، وأنه مخترع مستدرك بالرّصد، قلنا: فإن هؤلاء الذين استدركوا هذا لم يقدروا على هذا إلاَّ بعد إحضار هذه الآلات ونظروا في الزّيجات المقدَّمة وكانت معرفتهم قد تقدَّمت بهذا الشَّأن بالتّعليم والرياضة وعلم بارع، ولم يكن ذلك اختراعاً ولا استخراجاً بطبع، بل برجوع إلى أصول، ومعوّل على تقدير علم ومعرفة؛ وباب الرّصد هو داخل في هذه الجملة على هذا القياس. ولا حجّة للملحد في باب الرَّصد والطّبع، ولم يبقَ إلاَّ الرّجوع إلى أنَّ ذلك كلّه مستخرَجٌ من الرّسوم المعروفة المشهورة عند أهلها دون الأرصاد والطّبع، وليس يصحّ بها اختراع شيء من هذه الأسباب إلاَّ من جهة التّعلّم والرّجوع في قوانين الحكماء التي رسموها بتأييد من اللّه عزَّ وجلَّ ووحي منه. وليس في وسع الناس اختراع شيء دون ذلك. وإذا صحّ هذا، صحّ أنَّ أولئك الحكماء لم يقدروا على اختراع شيء بالفطنة والطّبع، وأن ذلك أصله بالوحي كما قلنا، وأنهم لم يقدروا أن يرقوا إلى السَّماء ويقفوا على هذه الغيوب، بل اللّه أطلعهم عليها بوحي منه، لأنّه عزَّ وجلَّ عالم الغيب ولا يطلع على غيبه أحداً إلاَّ من ارتضى من رسول. سبحانه عن أن يُشركه أحد في علم هذه الغيوب من غير أن يمنّ هو بها عليه، وتعالى عن ذلك علّواً كبيراً.

الفصل الثالث

أصل معرفة العقاقير

(١) قد قلنا في باب النّجوم ما فيه كفاية إن شاء اللّه. وقد ذكرنا طرفاً في باب الطّب ونعيد ذكره، ونشبع القول فيه. زعم الملحد أنَّ النَّاس عرفوا أفعال العقاقير في الأبدان ومعرفة قوامها بالطّعوم والأرائح واستدركوا ذلك بالطّبع، وأدخل هذه الدّعوى أيضاً في جملة ما ذكر في باب سباحة الإوز بالطّبع.

نقول في جوابه: إنَّ سبيل معرفة العقاقير بالطّبع سبيل النّجوم. فإن قال قائل إنَّ هذا الباب أقرب مأخذاً من ذلك، لأنَّ العقاقير هي في الأرض ويمكن مباشرتها بالحواس كما ادَّعى الملحد أنّهم يعرفونها بالطّعوم والأرائح، فإنَّ النّجوم هي في السَّماء، وإنَّ الفلك لا يحسّ ولا يمسّ، وليس سبيل العقاقير سبيل ما قد فات أيدي المتناولين، قلنا:

صدقت في باب مباشرة العقاقير بالحواس وتناولها بالذّوق والشمّ. ولكنا نقول إنَّ هذه العقاقير تكون في بلدان مختلفة بعيدة بعضها من بعض. فمنها ما يُجلَب من بلدان بالمشرق، ومنها ما يُجلَب من بلدان بالمغرب، ومن بلدان في ناحية الجنوب وناحية الشمال كالأهليلج الذي يُجلَب من الهند والمصطك من الرّوم، والمسك من التّبت، والدّارصيني من الصّين، وحصى الخزّ من الترك، والأفيون من مصر، والصّبر من اليمن، والبورق من أرمينية. وهكذا سبيل جميع العقاقير التي تكون من مشارق الأرض ومغاربها. ومنها ما تكون منتنة ومنها ما

تكون طيّبة الرّيح، ومنها مُرّة ومنها حلوة، ومنها عفصة ومنها حرّيفة، على اختلاف طعومها، ومنها ما هي لحاء الشّجر ومنها عروقه ومنها ورقه ومنها ثمره ومنها زهره ومنها صمغه، ومنها حجارة، ومنها أصناف جواهر الأرض كالشبوب والبورقات المختلفات الأجناس والألوان التي تنقل من بلدان شتّى من أرمينية والرّوم وكرمان وسائر البلدان، وغير ذلك من جواهر الأرض من الأملاح والأحجار، ومنها ما هي مرارة الطّير والسّباع وسائر الحيوان من دواب البر والبحر وأدمغتها ورئاتها وغير ذلك من أعضائها، ومنها ما هي لحوم الحيّات ذوات السّموم النّاقعة التي تدخل في التّرياق وغيره، ومنها أصناف الكحل من الطيارة والدبابة من السَّامة والهامة كالعقارب التي تُجفَّف وتُستعمل في معجون يصلح النّقرس وتُحرَق ويسقى رمادُها صاحبَ الحصاة وتُنقع في الدهن فتنفع للأورام الغليظة، وكالذباب الذي يُستعمل في الكحل ويضمَّد على لدغة العقرب وكالضّفادع التي يقلع بها الأضراس الضَّاربة، وكالزّنابير والذّراريح التي يعالَج بها في إنبات الشّعر، ومنها أبوال أصناف الحيوان من البهائم والسّباع، وأحشاؤها وذرق الطّيور حتى غائط الإنسان وبوله، كأبعرة الإبل التي تُستعمل في معجون لحمّى الرّبع، وكبول الإبل العراب التي تُستعمل في دواء للرّياح المقعدة، وكبول الإنسان ينقع فيه بعض العقاقير للبهق، وكغائط الإنسان يسحق جافة وينفخ في حلق من يأخذه الخناق ويضمّد بالرّطب منه، وكذرق الحمام يدخل في معجون يتخذ للباءة، وكذرق الخطاطيف يستعمل في بعض الأدوية. هذا إلى سائر ما لم نذكره من العقاقير التي تجلب من بلدن شتى وتسمى بأسماء مختلفة وبلغات أهل تلك البلاد الذين هم أمم مختلفون، متعادون متغالون.

(٢) فأين هؤلاء الحكماء الذين اتّفقت آراؤهم وكملت عقولهم وتمّت طبائعهم وقويت أبدانهم وطالت أعمارهم واتّفقت كلمتهم وتظاهروا وتعاونوا وطافوا في أقاليم الأرضين وجالوا في جزائرها وبلدانها، وعاشروا كلّ أمّة وأقاموا في كلّ بلدة وعرفوا لغات أهل كلّ بلد وكلّ جزيرة حتى عرفوا أسماء العقاقير في كل مكان وجرّبوها وعرفوا أشجارها وبقولها وأدركوا صفاتها وعرفوا بالطعوم

والأرائح الخصوصيات التي في جميع العقاقير المختلفة الأعمال والطبائع؟ ومنها ما يعمل في الدّماغ ومنها ما يعمل في الكبد ومنها ما يعمل في الطحال ومنها ما يعمل في المثانة، ومنها ما يحلّ ومنها ما يعقد؛ لكل واحد منها خصوصية تعمل في عضو من الأعضاء، في أعالي البدن وأسافله. ومنها ما هي سموم قاتلة، لا يلبث ساعة مَن ذاقها حتى تذيقه حتفه، بل تدوى بالشّم دون الذوق. فأين من عرف هذه الخصوصيّات في هذه العقاقير بالذوق والشم وعرف مقاديرها وأوزانها بالطّبع والإلهام وقراريطها ومثاقيلها؟ لأن منها ما يُستعمل في خلط مقدار قيراط فما دونه، ومنها ما يستعمل في خلط عشرين مثقالاً فما فوقها، وإن زدت أو نقصت كان ضرّه أكثر من نفعه؛ لأن الذي يكون منها سموماً إن زدته على المقدار قَتل، وإن نقصته بَطُل. ومنها ما يدخل في خلط واحدٍ خمسون صنفاً من العقاقير فما فوق ذلك بأوزان مختلفة وأجزاء محدودة لا يجوز الزيادة والنقصان فيها. فأين هؤلاء الحكماء الذين تتبّعوا هذه العقاقير، فذاقوا شجرة شجرة وثمرة ثمرة وعرفوا نباتها ووقفوا على صفاتها ووضعوا نسبها وأمثالها ومقاديرها وتتبّعوا جميع طير الدُّنيا وسباعها ودوابها، دابة دابة، وطائراً طائراً، فذاقوا مرارتها، وغاصوا في البحار واستخرجوا دوابها، فذاقوا لحومها وأدمغتها وأبوالها وأحشاءها حتى ذاقوا بول الإنسان وغائطه، فعرفوه بالذّوق والشّم وعلموا بالطّبع والاستدراك عمل كل شيء من هذه الأجناس وكيف يدبُّ في العروق، حتى يؤدّي كل دواء فعله إلى الدّاء الذي عمل له في أعلى البدن وأسفله وداخله وخارجه، بعد أن يصير إلى المعدة ويختلط بالدّم فيصير شيئاً واحداً، ثم يتفرق من المعدة في الأعضاء والعروق التي هي مجرى الدّم؟ فهل يجوز أن يحكم أن قوماً تعاونوا وجالوا في الدّنيا بأبدان صحيحة وأعمار طويلة حتى عرفوا هذه الأشياء بعد أن جمعوها وجرّبوها بالذّوق والأرائح، فأدركوا طبائعها بالطّبع والإلهام كما ادَّعاه الملحد، ثم اتّفقوا فلم يختلفوا في شيء من ذلك؛ لأن هذا إن كان من جماعة تعاونوا على ذلك، لا بدَّ أن يقع في شيء منها خلاف، فكان لا ينتظم أمر هذا النظام الذي نراه في باب العقاقير من اتفاق الأطباء عليه وأهل المعرفة بالطبائع، ولو اجتمعوا

أيضاً في بلد واحد وجمعوا هذه العقاقير عندهم، فكيف مع تباين ما بين هذه البلدان وصعوبة الأمر في جميع هذه العقاقير وتجربتها من غير معرفة تقدمت من المجرِّبين لها ولا أصل يرجعون إليه؟

(٣) فإن زعم أن أهل كلِّ بلد جرّبوا ما ببلدهم وعرفوها، ثم نُقِلت من بلد إلى بلد وجُمِعت، قلنا: هذا غير جائز لأنّه لا يظهر علمها إلاَّ بعد أن تُجمَع وتُخلَط. فكيف يعرف أهل كل بلد ما في بلدهم على الانفراد، قبل أن تُجمَع وتُخلَط، وكيف عرفوا مقدار كل شيء في بلدهم على الانفراد من غير أن يُعرَف مقدار شكله وخلطه الذي هو في بلد آخر وهو لم يعرفه ولم يجربه؟ ونقول: إنه لا بدَّ أن تكون المعرفة بطبائع هذه العقاقير أصلها من رجل واحد، أو من جماعة. فإن كانت من جماعة فسبيلها ما قد ذكرنا.

(٤) فإن قال قائل: إن قوماً اجتمعوا في دهر واحد واتفقوا هذا الاتفاق ولحقوا هذه المعرفة، فقد أورد ما لا تقبله العقول؛ لأنّه غير ممكن أن يكون قوم يتفرّقون في هذه البلدان في مشارق الأرض ومغاربها، فيلحق كل واحد معرفة شيء منها ممّا في ذلك البلد، وسبيلهم ما قد ذكرنا، ثم يجتمعوا ويجمعوها ويتّفقوا، ثم لا يلحقهم موت ولا شيء من آفات الدنيا حتى يحكموا ذلك. هذا خلف جداً.

(٥) وإن ادَّعى أن قوماً بعد قوم عرفوا ذلك بطباعهم في دهور شتّى وأزمنة مختلفة، ثم جمعوها بعد ذلك، فهذا أمحل، لأنَّ الدَّواء الواحد الذي يخلط من خمسين لوناً من العقاقير، لا يجوز أن يكون اجتمعت على معرفتها الآراء من قوم شتّى في دهور مختلفة وأزمنة متفاوتة، قد لحق كل رجلٍ معرفة شيءٍ في دهرٍ ما جاء، ثم جاء آخر في دهر آخر، فيدرك معرفة شيء آخر، ثم تجتمع الآراء على ذلك الخلط الواحد الذي هو من الخمسين لوناً ولا يقع فيه شيء من الخلاف. هذا أنكر من الباب الأوَّل. فإن زعم أنَّ رجلاً واحداً عرف هذه الطبائع وعاش وعمّر حتى جال الدّنيا ووقف عليها، مع اختلاف أجناسها على ما وصفنا، فهذا أبعد من

العقول. وهل يقدر أحد أن يجرّب هذه العقاقير كلّها دون أن يمتحن جميع الشَّجر والنّبات، ثمرها وورقها وعروقها وغير ذلك، ويمتحن جميع الحيوان من الوحش والسّباع والبهائم والطَّير ودواب الماء والهوامّ وغير ذلك، حتى يعرف الضَّارَّ من النَّافع والمُستعمَل من المُهمَل من لحومها ومن مرارتها وسائر أعضائها، وأبوالها وأحشائها، وحتى يعرف الخصوصيّات التي فيها؟ فأي عقل لا ينكر هذا، وأي عقل يصغي إليه ويقبله؟ وهؤلاء الذين أدركوا معرفة طبائع هذه العقاقير بالطّعوم والأرائح، جماعة كانوا أم واحداً، في دهر واحد كانوا أم في دهور مختلفة؟ وَهَبْهم صبروا على ذوق هذه القذارات التي ذكرناها من الأبوال والأحشاء وغير ذلك على نتنها وكراهة شمّها وذوقها، كيف يسلمون من سمومها القاتلة؟ لأنَّ منها ما هو سم ساعة؛ وقد رأينا حشيشة تنبت في صحارينا، إذا أكلها من لا يعرفها، قتلته على المكان؛ ومثل ذلك كثير. فأين في العالم من يقدر على إدراك طبائع هذه الأشياء بالطعوم والأرائح والطّبع والإلهام؟ وأين في زماننا من أدرك من ذلك فيحكم بالشّاهد على الغائب؟ أوَليس من يدّعي هذا هو مسلوب العقل عازب الفهم؟ أوَليس من يصغي إليه ولا ينكره هو أعمى قلباً منه وأضلّ سبيلاً؟

(٦) ولعمري إن قوماً من المتّسمين بالفلسفة قد ادَّعوا مثل هذه التّرهات وكذبوا على الحكماء القدماء وعلّقوا عليهم الخرافات التي لا تليق بهم؛ فقالوا: إنَّ أفلاطن دخل في جبال تكون في الشَّمال حيث لا تُرى الشّمس وحيث لا يكون نبات، ومكث فيها حيناً يطلب حيلةً للموت بالتّجارب والأدوية، ويطلب الأخلاط التي تزيد في العمر. وإنّه كان عنده ألف رجل فأرسلهم إلى مشارق الأرض ومغاربها وإلى ناحية الشَّمال والجنوب ليذوقوا الأرض ويطلبوا العقاقير. وإنَّ أرسطاطاليس بعث قوماً مع ذي القرنين ليعلموا تخوم الأرض وكيف قوامها، وأيَّ مكان أخف وأيَّ مكان أثقل وأيَّ مكان أصفى وأيَّ مكان أكدر، وكم أقاليم الدُّنيا، وكم فرسخاً هو كلّ إقليم، ويجلبوا العقاقير ويجرّبوها. فبلغ الذين مضوا نحو المشرق إلى حيث أصابهم حرّ الشَّمس وخافوا أن يحترقوا، فحفروا أسراباً في الأرض ودخلوا فيها. والذين مضوا إلى المغرب ذهبوا إلى موضع لم يقدروا

أن يجوزوه من كثرة البخار وشدَّته. وقالوا: رأينا الشَّمس دخلت في البحر، ومنهم من قال دخلت في السَّماء، ومنهم من قال خلف البخار. والذين ذهبوا نحو الشَّمال لم يقدروا أن يجوزوا من البرد والثَّلج، حتّى مرضوا ثم رجعوا. والذين ذهبوا نحو الجنوب وصلوا إلى أرض يكون فيها العقاقير والأدوية والجواهر التي لا تكون ببلادنا. هذا ما ادَّعوه لأفلاطن وأرسطاطاليس، وادَّعوا أنّ بثاغورس ارتقى في الهواء حتى صار إلى عالم الطبيعة وعالم النفس وعالم العقل، فنظر إلى جميع ما فيها من الصّور والحسن والبهاء والأنوار. وبثاغورس هو الذي تلمذ له فلانوس الذي صار إلى الهند وأخذ عنه برخمس الفلسفة، وقد تقدَّم ذكره في باب قبل هذا. فادَّعوا هذه الترَّهات مع دعاويهم أنَّ أصول الأشياء كلّها منهم وأنَّ كلّ شيء ينتفع به بنو آدم وصار علمه إلى النّاس، من علم النّجوم والطبّ وغير ذلك، هم استخرجوها، وهم قسَّموا ذلك في الآفاق، وأنّهم وضعوا لأهل فارس ثمانين كتاباً من كتب الطب، وثلاثة عشر كتاباً للهند من الطب والحكمة والأمثال، وأنهم وضعوا هذه الكتب كلَّها بآرائهم ودبّروها بعقولهم إلهاماً وطبعاً من غير تأييد من اللّه عزَّ وجلَّ. وادَّعوا أنّهم أبدعوا إجانة النَّار التي لا تُطفَأ بفارس، التي يعبدها المجوس، مع دعاوى مزخرفة من هذا النَّوع لا تقبلها العقول. فأين الملحد لم يذكر هذه الخرافات التي يدّعيها هؤلاء الضُّلال الكذابون حين ذكر دعاوى المجوس والمنانيّة والخرافات التي حكاها عن المبتدعين عنهم، كقولهم: إنَّ ماني كان يُختطف من بين أيديهم فيصير في الهواء يحاذي الشمس؛ فربما مكث ساعات وربما مكث أيّاماً، ثم نزل. وإنّه الذي رفع سابور الذي عمل له الشابرقان إلى الجوّ وأخفاه حيناً هناك. فإنَّ هذه الدّعاوى مثل ما ادّعاه أولئك الكذّابون أنَّ بثاغورس ارتقى إلى الهواء وإلى عالم الطبيعة وعالم النّفس وعالم العقل حتى عاين هذه العلوم وأدركها. أوَليس هذا مثل ما ادّعاه المنّانيّة لماني حذو النّعل بالنعل والقذّة بالقذّة؟ فكيف لم يعب من على مذهبه من المتفلسفين بهذه الدّعوى؟ ولكنْ عيَّر المسلمين وعابهم بدعوى المنّانيّة لماني! وكيف لم يعلّق هذا الجلجل في عنق نفسه وأهل مذهبه!؟ فإنَّه أَولى به وأحق، إذ كان على

مذهب هؤلاء الذين ادّعوا لبثاغورس هذه الدّعوى، ولأفلاطن وأرسطاطاليس هذه الأكاذيب.

(٧) فأمّا القرابة بين المسلمين وبين المجوس والمنّانيّة فكالفيل من ولد الأتان. فإن زعم أنَّ هذا، لأنَّ المنّانيّة والمجوس أقرّوا بالنبوّة كما أقرّ بها المسلمون، قلنا: ليس كلّ من أقرّ بالأنبياء هو مصدّق في جميع دعاويه، ولا هو صادق مصيب في بدعهم التي يبتدعونها. إنما نصدقه في إقراره بالنبوة، ونكذّبه في هذه الترَّهات التي يبتدعونها. فإن ادَّعى الملحد أنَّ من ادّعى لبثاغورس هذه الدّعوى، ولأفلاطن وأرسطاطاليس، هو متكذّب عليهم، وأنّهم قد اختلفوا في ذلك، واختلفوا في الأصول التي قد ذكرناها، وذكرنا تناقض كلامهم وتكذيب بعضهم لبعض، فلمَ احتجّ على أهل الملل بالخلاف، والخلاف الذي بين أئمّته هو في القبح والشناعة بحيث لا غاية وراءه. ولكنه لعله يحتج بحجّة قد كان ذكرها لي لأنّي ناظرتُه في هذا الباب وطالبتُه وقلتُ له: الخلاف الذي بينكم هو أقبح وأشنع مما تدعيه على أهل الشَّرائع؟ فقال مجيباً: مثلنا ومثلكم في هذا مثل رجلين اختصما فقال أحدهما لصاحبه: أليست أختك معروفة بالزّنى؟ فقال الآخر: يجوز، فإنَّ ابنتك أيضاً مشهورة بالفجور. فكان هذا جوابه والتجأ إلى هذه السَّخافة يريد بذلك أنّه يجوز، وإن اختلفنا فقد اختلف أصحاب الشَّرائع. قلت له: إذا كان الأمر هكذا، فالتمسُّك بشريعة محمّد (ص) أَوْلى وأنفع في العاجل والآجل. أما في العاجل فحقن الدّم وتحصين المال والأهل وصيانة الفروج وتصحيح النَّسَب بالولادة الطّيّبة بتزويج حلال، فإنَّ ذلك أجمل في المروءة لمن لا يعتقد الإسلام أيضاً، من إباحة فروج الأمّهات والبنات والأخوات. هذا إلى سائر المنافع التي قد جرى ذكرها. وأما في الآجل فللوعد بالثّواب الجزيل العظيم الذي لا يقادر قدره، والوعيد بالعذاب الأليم الذي لا ألم فوقه. فالأخذ بالوثيقة في هذا أحزم من الدّخول في التّعطيل والقول بالإلحاد الذي لا يُحقَن فيه دمٌ ولا يحصَّن مال ولا أهل ولا يصان فرج ولا يصحّ نسب، وفي الآخرة عذاب أليم.

(٨) نقول لمن يصحّح هذا الدعوى لأفلاطن وجالينوس: أفلا عَلِم أفلاطن مع حكمته واستحكام معرفته أنّه إذا لم يوجد للموت حيلة في هذه الأرض العامرة التي تطلع عليها الشّمس وينبت فيها من كل نبات، وأنَّ هذه الأخلاط التي يعالج بها جميع الأدواء، تكون في العمران، فإذا لم يوجد ها هنا دواء يدفع به الموت، فكيف يجده في الخراب وفي جبال لا تطلع عليها الشمس ولا يكون فيها نبات؟! أو فكيف غرّته نفسه واغترّ بالأماني، وقد عاين وعرف أنَّ أحداً من العالمين لم يسلم من الموت؟! فهل اعتبر بذلك؟! أوَلم يكن له من العقل مع حكمته أن يعرف هذه الحال؟ وهل هذا إلاَّ كذب من هؤلاء الضُّلال الذين أرادوا أن يعظموا شأن أفلاطن فشانوه بما قدروا أنهم يزيّنونه به؟

(٩) وأمّا القول في الذين ادَّعوا أن أفلاطن بعث ألف رجل في مشارق الأرض ومغاربها، وأنَّ أرسطاطاليس بعث قوماً مع ذي القرنين ليعرفوا التّخوم والأقاليم والجزائر ويجلبوا العقاقير ويجرّبوها، فإنَّ فيما ذكرنا في شأن العقاقير، ومن يدّعي أنهم عرفوها بالطّبع والفطنة، كفاية. وهو جواب يجمع هؤلاء وأولئك؛ لأنَّ سبيل هؤلاء سبيل أولئك، وفي ذلك مقنع لمن أنصف إن شاء اللّه تعالى. وبعدُ فإنّا نقول: إن كان هؤلاء عرفوا من العقاقير في هذه البلدان التي صاروا إليها ما لم يعرفه أفلاطن وجالينوس، فهؤلاء قدوة لأفلاطن وجالينوس. فأين أسماء هؤلاء الذين كانوا أشدَّ عناية بهذا الشّأن من هذين الرّجلين، وتحملوا من المشقّة ما لم يتحمّله هذان الرجلان؟ وأين تلك العقاقير التي جلبوها من هذه البلدان؟ ولِمَ لمْ تُنسَب إليهم كما نُسبت كتب أفلاطن وجالينوس إليهما؟ ومحصول هذه الدّعاوى أنها زخارف وأكاذيب، وهو من سخف الملحدين ودعاويهم الكاذبة. وذكرنا ذلك لأنَّ الملحد ترك هذه الدّعاوى وعاب المسلمين بما تدَّعيه المجوس والمنّانيّة لزرهشت وماني من الأباطيل المبتدَعة إلحاداً منه وشدَّة عداوة للإسلام. وما مثله في ذلك إلاّ كما قال الأوّل:

كناطحٍ صخرةٍ يوماً ليفلقَها فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

الفصل الرابع

كل معرفة عائدة إلى الحكيم الأول

(١) قد ذكرنا في باب العقاقير التي هي في الأرض ويمكن مباشرتها بالحواس، بالذوق والأرائح، وجهاً من صعوبة الأمر فيها ما يقارب صعوبة الأمر في باب النّجوم وإن كانت في السماء. والسبيل في معرفة العقاقير بالطَّبع والفطنة مثل السبيل في معرفة النّجوم. وبيّنا أنَّ تناول ذلك عَسِر جدّاً، وليس إلاَّ الرجوع في ذلك إلى أصول الحكماء، وأنَّ ذلك لا يلحق إلاَّ بالتعلّم والرّياضة والاقتداء بقوانينهم؛ وما سوى ذلك من الدّعاوى في باب إدراك شيء منه بالطّبع والفطنة هو باطل، ومن يدّعي ذلك فهو كاذب أثيم ذو إفك عظيم. وإنّما يعرف هذه العقاقير بالطّعوم والأرائح من تقدَّمت معرفته بها، فيذوق ويشمّ ما يعلم أنّها تضرّه إذا ذاقها وشمّها ولا يخشى غائلتها، فيميّز الأجود من الأدون، والخالص من المغشوش، والصّافي من المختلط. فمن هذه الجهة تعرف بالشّم والذّوق. فأما أن يعرف إنسان طبعها بالشّم والذّوق، ويعرف الخصوصيّة التي فيها من غير معرفة تقدّمت منها بها، فهو أمحل المحال. وسبيل الطّبيب الحاذق المتفلسف، الذي يعرف العقاقير، وسبيل من لم يمارس هذا الشأن ولا يعرف شيئاً منه في معرفة طبيعة شيء لم تتقدَّم معرفته به، واحد. ومن ادَّعى سوى ذلك فهو مبطل.

(٢) وقد كنت ذاكرتُ الملحد في ذلك فباهتَ وأصرّ على هذه الدّعوى. فقلت له: هل أدركت أنت بطبعك وفطنتك ما لم يسبق إليه مَنْ تقدّمك فيصدّقك في هذه الدّعوى.؟ قال: نعم، أخبرك في هذا بأمر عجيب. كانت لي قصة مع

أحمد بن إسماعيل وقت مقامي ببخارى عجيبة. وذلك أنه قد كان خرج يوماً من الأيّام متنزهاً وكنت معه في موكبه. فدفعنا إلى موضع نزه كثير العشب والنَوْر. فنزل ونزلنا معه ونظر إلى حشيشة قريبة منه. فقال لي: يا فلان! لماذا تصلح هذه الحشيشة؟ فأجبته على البديهة وقلت: تدرُّ البول. فأمر أن تختلي تلك. وحضر الطّعام وقدّمت المائدة، فوضعت تلك الحشيشة على طرف المائدة وقعدنا معه. ودعا بغلام له كان يأكل معه. فأقعده في ناحية المائدة التي عليها تلك الحشيشة وأقبلنا نأكل. فتناول الغلام تلك الحشيشة على سبيل من تناول البقل، وهو لم يعرف خبرها وما جرى في أمرها. فما استتمّ طعامه حتى قام عن المائدة وغاب عنا وبال. فلمّا انصرف قال له صاحبه: ما شأنك ولِـمَ قمت عن الطعام؟ قال: غلبني البول ولم أقدر على ضبطه، فتعجّب هو من ذلك وتعجّب النّاس.

(٣) قلت له: فهل كنتَ عرفت هذه الحشيشة قبل ذلك؟ قال: لا واللَّه، ما كنت رأيتها ولا عرفتها. قلت: فهل توجد في بلدنا وهل تعرفها الآن؟ قال: لا واللَّه، ما أعرفها ولا أدري توجد ها هنا أم لا. قلت له: ألست تعرف شأن هؤلاء الزرّاقين الذين يقعدون على السّبيل ويخدعون عوامَّ النّاس بالزّرق؟ قال: هل أحد أعرف بهم مني؟ قلت: فإنَّ حديثك هذا هو من نوع الزّرق، وليس هو من نوع المعرفة بطباع العقاقير طبعاً وفطنةً وتجربةً. قال: وأي فطنة ألطف من هذه؟ قلت: كيف تعدّ هذا من الفطنة؟ وكيف تشبّه هذا بفطنة الحكماء الذين تزعم أنّهم أدركوا معرفة طبائع الأشياء بفطنتهم واستخرجوا ذلك بالذّوق والشّم، وكانوا بزعمك لا يعرفون ذلك إلاّ بتدبير وتأمّل وقياس وتجربة وشمّ وذوق؛ ثم كانوا يدونون في كتبهم ما يلحقون معرفته حتى يصير أصلاً يُعتمد عليه، وتزعم أنَّ هذه الأصول كان سبيلها هكذا، وأنت تزعم أنك تكلّمت في هذه الحشيشة على البديهة من غير فكرة ولا رويّة ولا تجربة، وأنك لم تعرف هذه الحشيشة قبل ذلك ولا ذقتها ولا شممتها ولا تعرفها الآن، ولا تدري هل توجد في هذه البلدان أم لا؟ أوَليس قولك هذا هو الزّرق، ودعواك هي بالزّرق أشبه منها بفطنة الحكماء وتجاربهم؟ أوَليس هذا هو الزّرق بعينه؟ أوَلست تزعم أنك أعرف الناس

بالزّراقين؟ فهل هذا إلاّ الزرق بعينه؟ أوَليس الزّرق هو خديعة وسخرية؟ فإن كان أولئك الحكماء سبيلهم في معرفة طبائع العقاقير هكذا، فكانوا زرّاقين يخدعون الناس ويسخرون. ولو كان كذلك لما صحَّ شيء من رسومهم ولا انتفع النّاس بشيء من كتبهم؛ لأن الزّرق باطل وخديعة لا قوام له ولا نظام. وأنت، وإن تمَّ لك ذلك الزّرق على ذلك الإنسان، فإنّا لا ننخدع لك؛ وهذه أوهى حجة أوردتها فانقطع.

(٤) وأستغفر اللّه من الزّيادة والنقصان في هذه الحكاية، فإن الكلام يزيد وينقص؛ ولكن هذا جملته. وإنّما ذكرت هذا لأن الملحد حين طالبتُه بما لحقه بطبعه وفطنته من معرفة طبائع العقاقير طول عمره، لم يحصل من دعواه إلاّ على ما ذكرناه عنه، مع دعواه أنّه نظير بقراط وجالينوس في الطّب، وسقراط وأرسطاطاليس في سائر علوم الفلسفة والعلم بالطّبائع. وهكذا تحصل جميع دعاوى الملحدين في باب معرفة الأشياء بالفطنة والطبع، وهي سخيفة متناقضة. فإن كان قد صدق في هذه الحكاية، فهو سخيف كما ترى. وإن كان كذب، فالكذب أولى به.

(٥) وأمّا ما ذكره الملحد في كتابه في هذا الباب أنَّ منها ما أخذه الأوَّل عن الأوَّل إلى نهاية الزّمان، فإن كان أراد بقوله نهاية الزّمان ما كان يعتقده من القول بقِدَم الزّمان المطلق الذي جعله أصل مقالته وزعم أنهما زمانان: زمان مطلق وزمان مضاف، فقد أحال في الدّعوى ونقض قوله؛ لأنَّ الزّمان المطلق عنده قديم بلا نهاية، ولم يدَّعِ هو أنَّ الطب قديم مع الزّمان. وإن كان أراد الزّمان المضاف الذي هو بحركات الفَلَك، فقد أحال أيضاً، لأنَّ الطب وحساب النّجوم أُخذت بعد حدوث البشر، والبشر آخر متولّدات العالم عند أهل الشرائع وعند الفلاسفة، والفلك وحركاته وما فيه أقدم من جميع المتولّدات. وليست النهاية في معرفة هذه الأسباب إلى نهاية الزّمان في هذا الوجه أيضاً. ولكنا نقول: إنَّ علم الطبّ ومعرفة طبائع العقاقير وغير ذلك من علم النّجوم والفلسفة، أخذه الخَلَف عن السَّلَف إلى أن ينتهي إلى الحكيم الذي كان الأوَّل فيها، وإنَّ ذلك الحكيم عرف هذه اللَّطائف

تأييداً من اللّه عزَّ وجلَّ ووحياً منه وهو داخل في جملة الأنبياء (ع)، لأن أحداً ليس في وسعه أن يبلغ معرفتها إلاَّ كذلك. وكفى بما تقدَّم من الاحتجاج برهاناً ودليلاً على ذلك. ونقول: إنَّ هؤلاء الحكماء الذين تُنسَب إليهم هذه الأصول إن كانت ابتداءً منهم، فكما ذكرنا. وإلاَّ فأخذوها عمّن تقدَّمهم شيئاً في شيء فيها؛ فكان سبيله سبيل من تقدَّمه في التأييد من اللّه عزَّ وجلَّ، حتى ينتهي الأمر إلى الأوَّل الذي ابتدأه اللّه بتعليم ذلك، لأنَّ اللّه عزَّ وجلَّ بعث أنبياءه فعلّمهم من كل شيء يحتاج إليه النَّاس في أمورهم ديناً ودنيا، ولذلك استقام أمر العالم. ولولا أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ علّمهم لما علموا؛ لأنَّه خلق جميع الخلائق، وعلم ما ظهر وما بطن، ولم يُشرك أحداً من خلقه في العلم بها إلاَّ النبيّ، وهو عالم الغيب، لا يُظهر على غيبه أحداً إلاَّ من ارتضى من رسول، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يُشرك في حكمه أحداً.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن